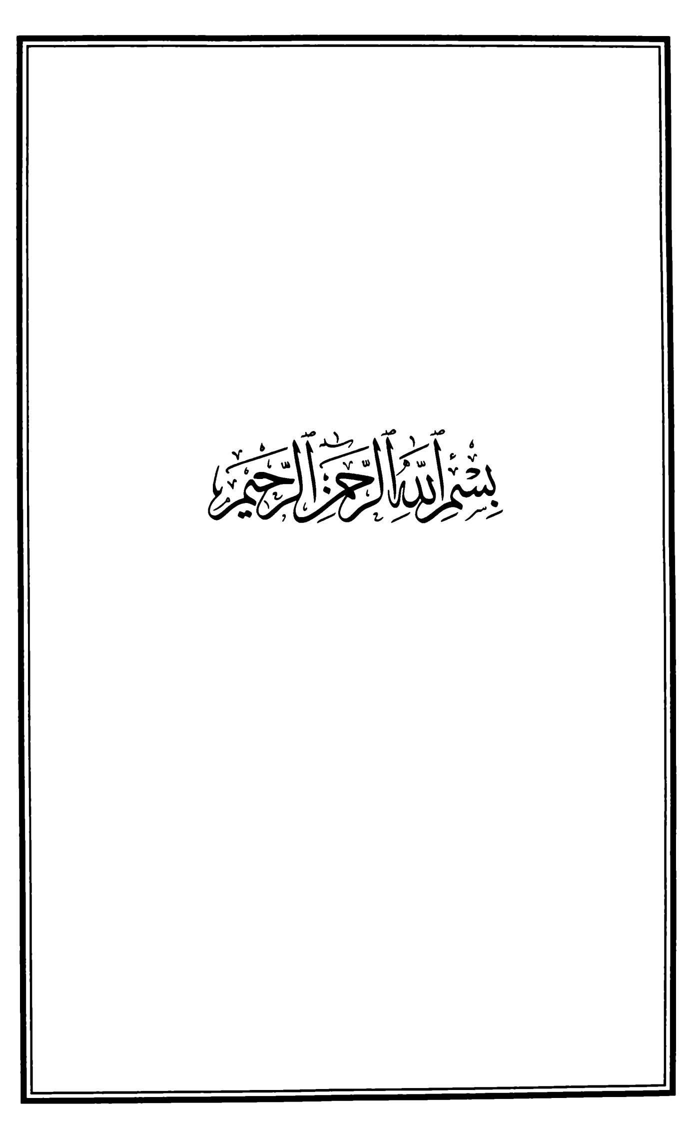

القصص القرآنية
دراسة ومعطيات وأهداف
يبحث عن قصص الأنبياء والقصص القرآنية حسب تسلسلها
التاريخي ويدرسها على ضوء محكمات الآيات والروايات المعتبرة
مع التأكيد على الدروس والعبر المستقاة منها
الجزء الأول
تأليف
العلامة المحقق
آية الله جعفر السبحاني
مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

القصص القرآنية

١


بسم الله الرحمن الرحيم

القصص القرآنيّة

دراسة ومعطيات وأهداف

يبحث عن قصص الأنبياء والقصص القرآنية حسب تسلسلها التاريخي ويدرسها على ضوء محكمات الآيات والروايات المعتبرة مع التأكيد على الدروس والعبر المستقاة منها.

الجزء الأوّل

تأليف

العلّامة المحقّق

آية الله جعفر السبحاني

نشر مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

فهرستنويسى پيش از انتشار توسط : موسسه تعليماتى وتحقيقاتى امام صادق عليه السلام

سبحاني تبريزي، جعفر، ۱۳۰۸ـ
القصص القرانية / تأليف جعفر السبحاني . ـقم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ۱٤۲۷ق. = ۱۳۸٥.
۲ج.
ISBN 964 - 357 - 258 - 7 (ج. ۱)
ISBN 964 - 357 - 259 - 5 (دوره)

فهرستنويسى براساس اطلاعات فيپا.
۱ـ قرآن ـ قصه ها. الف. مؤسسه امام صادق عليه السلام. ب. عنوان.
BP ۸۸ / ۲س ٦ق
۲۹۷/۱٥٦

إسم الكتاب: .... **القصص القرآنية**

الجزء: .... **الأوّل**

المؤلّـف: .... **العلّامة المحقّق جعفر السبحاني**

الطبعـة: .... **الأُولى**

تاريخ الطبع: .... **۱٤۲۷ هـ**

المطبعـة: .... **مؤسسة الإمام الصّادق عليه السلام**

الكمّيّـة: .... **۲۰۰۰ نسخة**

الناشـر: .... **مؤسسة الإمام الصّادق عليه السلام**

الصفّ والإخراج باللاينوترون: .... **مؤسسة الإمام الصّادق عليه السلام**

توزيع

مكتبة التوحيد

ايران ـ قم ؛ ساحة الشهداء

☎ ۷۷٤٥٤٥۷ ـ ۲۹۲٥۱٥۲ فاكس ۲۹۲۲۳۳۱

البريد الإلكتروني :imamsadeq@hotmail.com

العنوان فى شبكة المعلومات www.imamsadeq.org

الإهداء:

أهدي عملي هذا إلى صاحب الرسالة العظمى والولاية الكبرى سيد المرسلين وخاتم النبيين الرسول الأكرمﷺ.

وإلى أساتذة التفسير في المحافل العلمية والجامعات الإسلاميّة عسى أن يحظى بالرضا والقبول، آملاً أن يجعلوه منهجاً دراسياً جديداً في موضوعه.

المؤلف

مقدّمة المؤلّف

القصص القرآنيّة

موضوعها، أهدافها وخصائصها

إنّ حياة الأنبياء وسيرتهم في أقوامهم وحواراتهم مع مخالفيهم وكلّ ما يتعلّق برسالاتهم هي أحد المواضيع الّتي اهتمّ بها القرآن الكريم. وربّما تعدّ أحد ثلاثة محاور رئيسية تدور عليها آياته، وهذه المحاور هي:

أ. العقائد و المعارف والقيم الإيمانية.

ب. القوانين والأحكام.

ج. قصص الأنبياء وحواراتهم.

وربّما يحتضن القسم الثالث سابقيه، ففي قصص الأنبياء وحواراتهم آيات حول المعارف والأحكام والعقائد والقيم، وبذلك يحتلّ المحورُ الثالث المكانةَ العلياء في ضرورة فهم القرآن.

ولأجل هذه الأهمية القصوى انبرى عددٌ من المفسّرين العظام لتفسير ودراسة الآيات الّتي تستعرض حياة الأنبياء، تفسيراً ترتيبياً (حسب ترتيب السور) أو تفسيراً موضوعياً، حيث خصّوا القصص بالتأليف وأفردوها بالتصنيف. ولو تصدّى بعض الباحثين لجمع ما كتبه علماء الإسلام في هذا الحقل باللغات

المختلفة لشكّل مكتبة ضخمة من الكتب والموسوعات.

ويكفي في ذلك مراجعة «كشف الظنون» للكاتب الچلبي و«الذريعة» لشيخنا الطهراني، لمعرفة جانب ممّا أُلّف في هذا الموضوع.

وهذا هو زميلنا المغفور له الشيخ غلام رضا عرفانيان، الّذي حقق كتاب «قصص الأنبياء» لقطب الدين الراوندي (المتوفّى ٥٧٣هـ) وصدّره بمقدّمة أورد فيها أسماء ١٧٤ كتاباً في قصص القرآن، ومع الأسف أنّ أكثرها مخطوطة لم تر النور، والمطبوع منها قليل.

وهذا العدد هو ما توصّل إليه ذلك الكاتب، بجهده الفردي. ولو تشكّلت لجنة علمية ترصد الفهارس وتُنقّب عمّا في المكتبات من نسخ خطية لجاء العدد أكبر ممّا ذُكر بكثير، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على اهتمام العلماء بتفسير هذا القسم من الآيات تفسيراً موضوعياً لا ترتيبياً. وبذلك نستكشف أنّ للتفسير الموضوعي عند المفسّرين جذوراً تمتدّ إلى أمد بعيد، ذلك أنّهم اهتموا بهذا النمط في بعض الحقول، كآيات الأحكام وقصص القرآن، حيث جمع بعضهم الآيات الّتي تدور حول الطهارة أو الصلاة أو الصوم في مكان واحد ثم أخذ يفسرها مرة واحدة وبشكل مترابط، كما أنّهم جمعوا وفسروا الآيات الّتي تدور حول حياة الأنبياء وجهادهم.

والقَصَص، بالفتح: اسم بمعنى الأثر، وبالكسر: جمع قصة، وفي الذكر الحكيم: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾[1]: أي أحسن الأثر.[2]

قال الراغب: القصص: الأخبار المُتَتَبَّعة.[3]

---

١. يوسف:٣.

٢. مجمع البحرين:٤/ ١٨٠.

٣. المفردات:٤٠٤، مادة «قصص».

فنحن إذا قمنا بدراسة القصص القرآنية على نسق التفسير الموضوعي، فهي عِلْم له موضوع وله غاية كما وله خصائص، و إليك بيان هذه الأُمور الثلاثة على وجه الإيجاز:

١. موضوع القصص القرآنية

يتّخذ القرآن الكريم من حياة الأُمم السابقة وحركة أنبيائهم عليهم السلام، محوراً لدراساته، وهذا يفترق عن منهج جلّ المؤرّخين الذين يتناولون حياة الملوك وأصحاب السلطة موضوعاً للبحث والدراسة، وربّما يغالون في نشاطاتهم وعطاءاتهم، بل يغالون في إضفاء الطابَع الأخلاقي على تصرفاتهم على نحو لا يصدقه العقل ولا تؤيّده الشواهد.

ولذلك عاد التاريخ عند الشرقيين تاريخ الملوك و الحكّام، مع أنّه كان يُفترض بهم ـ بعد أن أشرقت الأرض بنور القرآن الكريم ـ التوفّر على دراسة حياة الأُمم والتاريخ الإنساني على ضوء حياة الأنبياء وحياة أقوامهم منذ أن نزلت الهداية الإلهية على الإنسان، وهذا ما نتمنّاه، ولعل الله يقيّض بعض الغيارى للقيام بهذا العبء الجليل.

إنّ القرآن الكريم لم يذكر إلاّ القليل من الأنبياء، إذ بلغ عدد من تعرّض لذكر حياتهم ودورهم في أُممهم الّتي بُعثوا لهدايتها نحو (٢٥) نبياً، و إلى هذه الحقيقة، أشار سبحانه بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾[١]، ومع ذلك فإنّ فيما ورد في قصصهم غنىً وكفاية لما فيها من عبر و عظات ودروس تُستجلىٰ من مواقفهم، وأهم محطّات

---

١. غافر:٧٨.

حياتهم، ومآل أقوامهم وما أصابها من بأساء وضراء، جزاءً لما اقترفوا من أعمال.

ولم يقتصر القرآن الكريم على بيان الأحداث الّتي جاد بها الزمان في بيئات محدودة، بل تعرّض للأحداث الّتي جرت في العواصم الكبيرة والمدن البعيدة، ولذلك عبّر عنها بـ«أنباء القرى» قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾.[١]

وممّا يحسن ذكره أنّ القرية في مصطلح القرآن الكريم هي النقطة المعمورة، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة حتّى أنّه عبّر عن مصر الفراعنة بالقرية، قال تعالى: ﴿**واسأَلِ الْقَرْيَةَ الّتي كُنَّا فِيهَا**﴾[٢]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على امتداد دائرة التبليغ السماوية للأنبياء وشموله لكافة أرجاء المعمورة. قال سبحانه: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾.[٣]

وكان الأنبياء يتّخذون من أُمّ القرى ـ الّتي هي العاصمة ـ مركزاً لتبليغهم حتّى تتم الحجّة على أهل القرى المحيطة بها من مختلف المدائن والأمصار، يقول سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً**﴾[٤]، لوجود الصلة بين أُمّ القرى، وفروعها.

٢. غايات القصص القرآنية

إنّ الاطّلاع على حياة الماضين والوقوف على آثارهم ومعرفة ما ألمّ بهم من الحوادث والكوارث، مثار العظات ومصدر العلم بالسنن الإلهية في تكوين الأُمم وإصعادها وإهباطها. ولذلك تجد كلّ إنسان يميل إلى التاريخ وكلّ يتحرّىٰ منه

١. هود: ١٠٠.
٢. يوسف: ٨٢.
٣. فاطر: ٢٤.
٤. القصص: ٥٩.

غاية تناسبه ومقصداً يخصّه.

والغاية الّتي تهـدف إليها القصص القرآنية تأتي في سياق الهدف القرآني العـام الّذي يتمثل في الـدعـوة إلى الله تعالى وإلى اتبـاع منهجـه الّذي اختطّـه للإنسان وسعادته ورقيّه والتحذير من العصيان وتنكّب طريق الإيمان. وتكريساً لهذا الهدف، جاءت القصص القرآنية من أجل إيقاف الإنسان على حياة الأُمم السالفـة وعوامل عزّتها ومنعتهـا، أو هبوطها وسقـوطها، وبالتالي الـوقوف على سنن الله سبحانـه في تاريخ الأُمم، والّتي تُفضي إمّا إلى تكريم وإعـزاز أو إبادة وإهلاك.

أمّا القصص الّتي ينسجهـا الخيال البشري و القصّـاصون المحترفـون فلها غايات تبايـن غاية القصص القرآنية، إمّا في نمط الغـاية أو في سعتها وشمولها، فـالكثير من القصص ينشـد تحريك المشـاعـر بـاتجاه أغـراض محدودة حتّى وإن كانت خيّرة أو مؤقتة كـاللذائذ المادية،وقد ترمي إلى تأجيج الغـرائز الحيوانية عند الإنسان إلى غير ذلك من الغايات المتدّنية.

فهذا أبـو القاسـم الفردوسي صاحـب الملحمة الفـارسية الكبيرة و المسمّاة بـ«الشاهنامه» قـد أمضى ثلاثين سنـة في نظمها واشتملت على ستين ألف بيت، وكانت الغاية التي يقصـدها هي المفاخرة بالآباء والأجداد، وذكـر ما خاضوا من معارك داميـة مع أعدائهم، وهذه الملحمـة وإن كانت تحمل جوانب أدبيـة ممتازة لكنها كانت مهتمة بجانب ضئيل من الحياة.

وأمّا الغـايات الّتي يـريدهـا القرآن الكـريم في قصصه، فهي علـى طرف النقيض من أهداف القصص الخيالية. ويمكن تبيين غاياتها كما يلي:

أ. الدروس والعبر

تحدّث القرآن الكريم عن حياة الأُمم بألوانها المختلفة وأشار إليها وهي في أوج رقيّها، وذروة قوّتها وعظمتها، ثم لفت الأنظار إليها وهي تأخذ بالانحدار إلى قعر الذل والهوان. ومن خلال هذا السرد التاريخي لحياة الأُمم، تتجلّى لنا الأسباب الكامنة وراء النصر والظفر أو الهزيمة والفشل، والعوامل الّتي أدّت بهم إلى هذا المصير، وبذلك يقتطف المتدبر النصائح والعبرَ النافعة.

ومن هنا صارت القصص القرآنية خير ذكرى للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.[١]

أو سبباً لتحريك التفكير الإنساني ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٢]، أي يتّخذون القصص عبرة في حياتهم حتّى يتحرّزوا عن المزالق والمهالك.

ب. وحدة هدف الأنبياء

تشهد الآيات القرآنية على أنّ الهدف الوحيد من بعث الأنبياء هو نشر التوحيد في العبادة بين الناس، لأنّه ليس في صحيفة الوجود من هو أهل للعبادة غير الله تعالى، فكان لزاماً على الإنسان أن يعبده، ويجتنب الطاغوت. قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾.[٣]

---

١. هود: ١٢٠.

٢. الأعراف: ١٧٦.

٣. النحل: ٣٦.

وأمّا سائر مراحل التوحيد من التوحيد الذاتي والتوحيد الربوبي، فإنّها وإن كانت ذات أهمية بالغة، بيْدَ أنّنا نرى الأنبياء قد ركّزوا على التوحيد في العبادة، وما ذاك إلاّ لأنّ الانحراف عنه، كان هو الأمر الغالب دون المراتب الأُخرى.

فإذا تمعّن الإنسان في قراءة الآيات الكريمة الواردة حول حوار الأنبياء ودعوتهم يجد أنّهم كانوا ذوي مشروع واحد ودعوة مشتركة حيث كانوا يركّزون على أمر واحد وهو التوحيد في العبادة كما قلنا، كما أنّ طواغيت أعصارهم كانوا يركّزون على الشرك فيها، وهذا يدلّ على أنّ الجميع ينطلقون من مصدر واحد إلى هدف فارد.

ومن أجل هذا أمر سبحانه المؤمنين بعدم التفريق بين الرسل بقوله: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.[1]

ج. تثبيت فؤاد النبي ﷺ

تعرّض الأنبياء والرسل لأنواع الشدائد، وصنوف الأذىٰ والتنكيل من أقوامهم، حتّى لقد سُفكت دماء فريق منهم على مذبح الهداية والدعوة إلى الحق والخير.

وقد اقتضت حكمته تعالى إيراد أنباء هؤلاء الرسل وذكرَ قصصهم لتثبيت قلب النبيﷺ وحثّه على المضيّ في درب الدعوة والتبليغ، وتقويةِ عزمه على ما يلقاه من إعراض وجحود واستهزاء وأذىً كبير من قومه، وتذكيره بسنّته تعالى في أنبيائه الذين لم يظفروا بثمرة النصر إلاّ بصبرهم على أشواك الطريق

١. البقرة:٢٨٥.

ومصاعبه.

وإلى هذه الغاية يشير قوله سبحانه: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.[1]

هذه غايات ثلاث تهدف إليها القصص القرآنية، وهناك غايات أُخرى نوكل بيانها إلى محل آخر.

فلنرجع إلى الأمر الثالث وهو بيان خصائص قصص القرآن وميزاتها.

٣. خصائص القصص القرآنية

القصص الرائجة بين الأُمم(من غير فرق بين شعب وآخر) لها خصائص وميزات يتفرّد كلّ بها، فبعضها يغلب عليه إثارة القوى الحيوانية الشهوية والغضبية وتهدف إلى المجون والخلاعة، وأُخرى تدعو إلى العنصرية والتعالي وتفضيل شعب على آخر، وثالثة إلى غرس فضيلة من الفضائل في النفوس، إلى غير ذلك من الميزات.

إنّما المهم أن نقف على ميزات القصص القرآنية وخصائصها ونذكر منها ما يلي:

أ. الموضوعية والواقعية

تمتاز القصص القرآنية بالموضوعية والواقعية، خلافاً لأكثر ما يكتب باسم القصة، فإنّها وليدة خيال الكاتب الّذي يحلّق في سماء الوهم فيأتي بحوادث يصوّرها من عنده بما ينسجم والجو الّذي يريد أن يخلقه في قصته.

---

١. هود: ١٢٠.

وعندما يحسّ القارئ أن لا واقعية للقصة يقلُّ تأثّره بها في مجال العبرة والاتّعاظ، وهذا بخلاف ما لو كانت القصة حاكية لظاهرة واقعية برزت على سطح الحياة وظهرت آثارها الإيجابية والسلبية، فعندئذٍ يتّخذ القارئ منها دروساً وعظات وافرة ويتأثّر بمعطياتها.

إنّ الذكر الحكيم يشير إلى هذه الميزة في غير واحدةٍ من آياته ويقول: **﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الحَقُّ﴾**.[١]

فهذه الآية ـ كما نرى ـ تشير إلى أنّ ما في هذه القصص، هو أُمور واقعية وليست خيالية.

ب. تصحيح التحريف

ما يقصّه القرآن الكريم من أنباء الرسل والأنبياء مع أُممهم، ممّا لم ينفرد به القرآن الكريم، بل سجّلته أيضاً الكتب السماوية السالفة، ولكن المائز بينهما أنّ القرآن الكريم حينما يذكر هذه القصص يسردها على ما هي عليه منزهةً عن الترّهات والأباطيل والخرافات، في حين ترى الكتب السماوية الأُخرى المتداولة مشحونة بها.

ومن هنا أصبح القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السماوية، أي ميزاناً لتمييز الحق عن الباطل الوارد في الكتب المعروفة بالسماوية. قال تعالى: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾**.[٢]

---

١. آل عمران:٦٢.

٢. المائدة:٤٨.

فالكتاب العزيز بما أنّه مصدّق لما ورد فيما سبقه من الكتب ومسيطر عليها، فهو يقص ما ورد فيها على نهج صحيح، ويبيّن مـا هو الحقّ من القصة عمّا ألصق بها من زيادات أو وقع فيها من تحريف.

فلو رغـب كتابيٌّ في الوقـوف على التوراة أو الإنجيـل الصحيحين فعليه أن يرجع إلى القرآن الكريم وبخاصة في المواضع المشتركة، فإنّه سوف يجد الحق الّذي لا مرية فيه.

ج. الإيجاز في سرد القصة

يحلم أغلب القصّـاص في كتابـاتهم وكلماتهم بالتسليـة والفكاهـة والإثارة وإبراز قدراتهم في الـوصف والبيان، وهذا ما يدعـوهم إلى الإطناب، والإشارة إلى كلّ جوانب القصة سواء أكان مهماً أو لا، مؤثراً كان أو غير مؤثر، لأنّ الهدف عنده هو التفكّـه والإلهاء والإثارة، ولكن القرآن الكـريم لا يستهدف سـوى الإشارة إلى الآثار الإيجابيـة في قصصه، ولـذا يوردُ شيئاً ويُعـرض عن شيء، وما هـذا إلاّ لأنّه يذكر المؤثر في كلامه وبيت القصيد في بيانه.

وقلّما يتّفق أن يذكر القصة من أوّلها إلى آخرهـا وفي عامّة خصوصياتها، إلاّ في مورد واحـد وهي قصة يوسف، لأنّ الإيفاء بـالغرض فيها رهن ذكرهـا جميعاً في موضع واحد، بخلاف سائر القصص فربّما يذكر شيئاً ويترك الباقي.

ولهذا نجد أنّ قصة أبينـا آدم وغيره قد توزّعت على أكثر مـن سورة واحدة، لأنّ الغرض الّذي يرمي إليه القرآن، هو تجلية الأبعاد التربوية والخلقية من القصة، وإبراز مواضع العبرة منها، فيذكر منها ما يكون مؤثراً في الغاية الّتي سبق لأجلها الكلام.

وكأنّ القـرآن الكريـم واعظ متحرّق، ومـرب شفيق يـريـد تربيـة المجتمع

الإسلامي على الخُلق العالي، والقيّم السامية، ولذلك يستشهد بما جرى في حياة الأنبياء من حوادث، ويعطف نظر القارئ إلى هذا الجانب ولا يهدف إلى الإلهاء والتطويل.

وأخيراً إنّ هذا الكتاب يقع في جزأين:

الجزء الأوّل يشتمل على حياة الأنبياء مبتدئاً بآدم عليه السلام ومنتهياً بحياة يوسف عليه السلام.

والجزء الثاني يشتمل على حياة بقية الأنبياء وينتهي بحياة سيدنا المسيح عليه السلام.

وبما أنّنا أفردنا لحياة نبينا محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين بحوثاً مستقلة في مفاهيم القرآن اكتفينا بها ولم نتناول حياته هنا.

كما أردفنا قصص الأنبياء بإيراد ما ذكره القرآن الكريم من القصص الأُخرى لغير الأنبياء والمرسلين.

شكر وتقدير

وفي الختام: لا يسعني ألا أن أشكر الأُستاذ الفاضل **السيد حيدر محمد علي البغدادي (أبو أسد)** ـ أحد المحقّقين البارزين في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ـ حيث آزرني بأنظاره وآرائه عند إنجاز فصول هذا الكتاب، كما قام مشكوراً بتلخيص مضامين القصص في آخر كل فصل. فشكر الله مساعيه الجميلة.

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

إيران ـ قم

١٨ شوال المعظم ١٤٢٦هـ

القصص القرآنية

١

آدم أبو البشر

إنّ أبانا آدم عليه الصلاة والسلام يُمثّل الحلقة الأُولى من الحلقات النبوية الممتدة إلى سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل ﷺ.

وقد جاء اسمه في ٢٥ آية في تسع سور، وقد اعتنى القرآن ببيان حياته ومصيره على وجه التفصيل في ست سور، هي: البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، وطه.

وتدور دراساتنا لحياته عليه السلام والحوادث المرتبطة بها على ضوء الذكر الحكيم في محاور ثمانية:

١. خلقته ونشأته.

٢. استخلاف آدم في الأرض.

٣. تعليم الأسماء له.

٤. سجود الملائكة له.

٥. إسكانه في الجنة والنهي عن الأكل من الشجرة.

٦. مخالفته للنهي.

٧. هبوطه إلى الأرض، وخلاصة القصة.

٨. ولدا آدم ومصيرهما.

وهذه العناوين الثمانية هي الأُمور المهمة الّتي اعتنى ببيانها القرآن الكريم ونحن نقتفيه على وجه الإيجاز.

١

نشأته وخلقته

مرّت خلقة آدم ونشأته إلى أن صار بشراً سوياً على مراحل ثلاث، هي:

أ. المرحلة الترابية وتوابعها.

ب. مرحلة التصوير.

ج. مرحلة نفخ الروح.

وإليك دراسة كلّ من هذه المراحل واحدة بعد الأُخرى.

الأُولى: المرحلة الترابية وتوابعها

يؤكّد القرآن الكريم انّ الله سبحانه قد خلق الإنسان من تراب متحول من مرحلة إلى مرحلة، وهي:

١. التراب

قال سبحانه: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**.[١]

---

١. آل عمران:٥٩.

٢. الطين

قال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾.[١]

٣. الطين اللازب

قال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ﴾[٢]، واللازب: هو الطين الملتصق باليد.

٤. حمأ مسنون

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.[٣]

والحمأ: هو الطين الأسود، والمسنون، المتغير، أي خلقه من طين أسود متغير.

٥. سلالة من طين

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾.[٤]

والسلالة: هو صفوة الطين من الكدر وخلاصته، من سللت الشيء من الشيء أي استخرجته منه.

٦. صلصال كالفخار

يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخّارِ﴾.[٥]

---

١. السجدة:٧.
٢. الصافات:١١.
٣. الحجر:٢٦.
٤. المؤمنون:١٢.
٥. الرحمن:١٤.

أي من طين يابس إذا نقر صلصل وصوّت كالخزف.

ففي المرحلة الّتي سمّيناها بالمرحلة الأُولى نرى تكامل خلقة آدم من طور إلى طور، ولكن الجميع يدور حول التراب والطين بأشكالهما المختلفة إلى أن صار جسم الإنسان أشبه بالطين اليابس الّذي إذا نقر، صوّت.

وهذه الأطوار الستة الّتي يذكرها القرآن في خلقة آدم، ربما ينسبها إلى خلقة الإنسان كلّه، فيقول: **﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾** أو قال: **﴿إنّا خَلَقْناهُمْ﴾**، وما هذا إلاّ لأنّ آدم أبوهم وأصلهم فصحّ أن يصف أولاده بما للأب من الأوصاف.

والإنسان المعاصر وإن كان وليد النطفة، ولكن يصحّ وصفه بهذه الأطوار أيضاً من باب وصف الشيء بحال متعلقه.

الثانية: مرحلة التصوير

لما انتهت خلقة الإنسان إلى أن صار جسمه طيناً يابساً له صوت إذا نُقر، جاءت مرحلةٌ ثانية هي مرحلة التصوير.

قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدينَ﴾**.[1]

فقد أشارت الآية إلى مرحلتين من مراحل نشأته، أعني: خلقه من تراب بأطواره وتسويته الأُولى بقوله سبحانه: **﴿خَلَقْناكُمْ﴾** وإلى الثانية بقوله تعالى: **﴿ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾**. والمراد من التصوير، هو التسوية الظاهرية لجسمه.

يقول سبحانه: **﴿وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ**

---

١. الأعراف:١١.

﴿حَمَأٍ مَسْنُونٍ* فَـإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـاجِدِينَ﴾[1]، فقد أشارت الآية إلى مرحلتين من نشأة آدم وهما: التسوية، ونفخ الروح.

فبـا لمقارنـة بين الآيتين يعلم أنّ المراد من التصوير هو التسـوية، غير أنّـه سبحانه ينسب التصـوير في سورة الأعراف إلى الإنسان كلّـه وفي سورة الحجر إلى آدمعليه السلام، وقد مـرّ أنّ القرآن يصف كلّ إنسان بصفـات أبيه آدم. فالتصويـر كان لآدم ولكن أثبته للإنسان كلّه من باب وصف الشيء بحال متعلّقه.

وعلى ضوء هذا فـالتسوية والتصوير وهـو التشكل بهيئة معينة تحقّقت قبل أن ينفخ فيه الروح، وهي الصورة الّتي خلق آدم وأولاده عليها.

وأمّا الفاصل الـزماني بين المرحلة الأُولى والمرحلة الثانيـة فيظهر من الآيات القـرآنية أنّها كـانت قليلـة حيث يعبر سبحانـه في سـورة الأعراف عن الفـاصل الزماني بلفظ ﴿ثُمَّ﴾فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ولكنّه في سورة الحجر بلفظ «فـ» ويقول: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُـونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، وهذا يكشف عن أنّ الفاصل الزمـاني لم يكن شيئاً كثيراً، بل كان على وجه يصحّ فيه استعمال كلتا الكلمتين بنظريتين مختلفتين، وأيضاً تفيد الآيات أنّ خلقة آدم لم تكن أمراً دفعياً بل كان تدريجياً تم خلال أيامٍ أو شهور قليلة.

الثالثة: مرحلة نفخ الروح

وهذه المرحلـة السامية المرحلة الفـاخرة الّتي بها تفوق الإنسـان على سائر المخلوقات، وهي مرحلة نفخ الروح الّذي يلازم كـونه إنساناً عاقلاً مفكراً حرّاً ذا إرادة وغرائز وميول، الّتي بها استحق أن يكون مسجوداً للملائكة ومعلّماً لهم ـ كما

---

١. الحجر:٢٨ـ ٢٩.

سيوافيك بيانهما ـ.

قال سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.[١]

وبمثل هذا التعبير عبّر مرة أُخرى في سورة (ص).[٢]

وقد أضاف سبحانه الروحَ الّتي نفخها في آدم إلى نفسه، وقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، ومن المعلوم أنّه سبحانه أجلّ من أن يكون له جسم وروح، لأنّه تعالى: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣]، فإذاً تكون الإضافة هنا، إضافة تشريفية نظير إضافة البيت إلى نفسه في قوله: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٤]. ومثله تسمية شهر رمضان، بشهر الله، كلّ ذلك لأجل التنويه بشرف الروح والبيت والشهر.

خلقة آدم ونظرية تكامل الأنواع

ما مرّ من الآيات ظاهر في أنّ آدم خُلق منذ خلق على هيئة خاصة وأنّه لم يتحول من نوع إلى نوع آخر، خلافاً لنظرية تطور أصل الأنواع الّتي طرحها لأوّل مرة العالم الفرنسي «لامارك»(١٧٤٤ـ ١٨٢٩م) وبعده «تشارلز داروين»(١٨٠٩ـ ١٨٨٢م) الذي صاغ نظرية تطور الأنواع فعرفت بالدارونية، وقد ظهرت النظرية لأوّل مرة عندما طبع كتابه «أصل الأنواع» في منتصف القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أنّ أُسس نظرية التطور الّتي طلع بها دارون كانت موجودة

---

١. الحجر:٢٩.

٢. ص:٧٢.

٣. الشورى:١١.

٤. البقرة:١٢٥.

في ثنايا ما عرضه «لامارك»، ولكنّها لقيت من الاستقبال ما لم تلقه نظرية «لامارك»، لأنّ الوقت الّذي عرض فيه دارون نظريته، كان مناسباً، إذ طرحها على المجتمع الغربي يوم كانت أُوربا في صراع شديد مع الكنيسة وفي حرب على مبادئها ومفاهيمها، فكانت هذه النظرية ـ الّتي استفاد منها البعض لمعارضتها مبادئ الكنيسة ـ خير سلاح شهره أعداء الكنيسة ضدّها.

وقد شيّد دارون نظريته على نواميس أربعة لخّصها بالعبارات التالية:

١. ناموس تنازع البقاء.

٢. ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح.

٣. ناموس الوراثة.

٤. ناموس الملائمة مع البيئة.

وعلى وفق هذه النظرية كان الإنسان وغيره من الأنواع كائنات حية بسيطة، ثمّ تطورت حسب الأُصول والنواميس المذكورة إلى أن بلغت هذه التطورات حدّاً جعلته نوعاً ممتازاً على سائر الأنواع.

وعلى هذا الأساس لم يكن الإنسان يوم وجد على أديم الأرض على هيئته الّتي نراها اليوم، بل كان كائناً عضوياً بسيطاً صيرته التطورات الكثيرة في القرون المديدة إنساناً في صورته الفعلية، والإنسان في النتيجة هو أرقى الكائنات العضوية الحية.

وعلى ضوء ما ذكره، فالتطور والتكامل حصلا تدريجياً عبر قرون وأزمنة كثيرة.

وحينما كانت نظرية «دارون» تدرّس في الجامعات والمحافل العلمية ـ وأخذها بعض البسطاء من الناس كأنّها حقيقة راهنة ـ برزت إلى الساحة العلمية

نظريـة أُخرى بـاسم نظرية «التطـور الفجائي»فقضت على أكثـر ما اعتمـد عليه دارون ومن قبله لامارك من أُسس، وصارت النظريـة الدارونية معرضاً لإشكالات واعتراضات وأخطاء كثيرة.

يقـول العلاّمـة الطباطبـائي حول فـرضية تكـامل الأنواع: وهـذه فرضيـة افترُضت لتـوجيه مـا يلحق بهذه الأنـواع من الخواص والآثار من غير قيـام دليل عليها بالخصـوص ونفي ما عداها مـع إمكان فرض هذه الأنواع متبـاينة من غير اتصال بينها بالتطور وقصر التطور على حالات هذه الأنواع دون ذواتها وهي الّتي جرى فيها التجـارب، فإنّ التجارب لم تتناول فرداً من أفـراد هذه الأنواع تحوّل إلى فـرد من نوع آخـر كقـردة إلى إنسـان، وإنّما تتناول بعض هـذه الأنـواع من حيث خواصها ولوازمها وأعراضها.

واستقصاء هذا البحث يُطلب من غير هذا الموضع، وإنّما المقصود الإشارة إلى أنّه فرض افترضـوه لتوجيه ما يرتبط به من المسـائل من غير أن يقوم عليه دليل قاطع، فالحقيقة الّتي يشير إليها القرآن الكريم من كون الإنسان نوعاً مفصولاً عن سائر الأنواع غير معارضة بشيء علمي.[١]

وعلى كلّ تقدير فهذه النظريات الّتي وضعها علماء الطبيعة لا تتعدى كونها فروضـاً متزلزلـة دون أن تكون من الحقائق العلميـة الثابتـة حتّى تلجئنا إلى تأويل كتاب الله العزيز وصرفه عن ظاهره. فـالمعتقد الإسلامي هو أنّ أبانا آدم خُلق على هذا الشكل ولم يتعـرض للتطور الجوهري، واستمرت الخلقـة على هذا الشكل إلى يومنا هذا.

١. الميزان في تفسير القرآن:٤/ ١٤٤.

تطبيق بعض الآيات على نظرية التطور

قد عرفت أنّ نظرية «دارون» قد أكل عليها الدهر وشرب ونسختها نظرية أُخرى باسم نظرية التطور الفجائي أو الطفرات الوراثية، ومع ذلك يوجد في الشرق الإسلامي من غرّته تلك النظرية فحاول أن يستدلّ عليها بآيات من الذكر الحكيم. فاستدلّ مثلاً بالآية التالية: على أن خلق آدم كان تدريجياً أشبه بما يدعيه «دارون» حيث قال سبحانه: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**.[1]

ووجه استدلاله أنّ الله سبحانه يذكر أنّه اصطفى نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وأنّه اختارهم من بين سائر الناس وأولاد آدم، ثمّ إنّه عطف هؤلاء على آدم بأنّه كان من المصطفين، فبالمقارنة يعلم أنّه تعالى اصطفى آدم وانتخبه من النسل الموجود على الأرض، وهذا يعني ـ في زعمه ـ أنّ آدم لم يكن أوّل من وطأ هذه الأرض، بل كان هناك نسلٌ من الإنسان النازل، وقد انتخب سبحانه الأفضل وجعله خليفة وأباً للنسل الحاضر.

ثمّ إنّه يستقرب انطباعه عن الآية بلفظة العالمين، وانّ المراد منه الإنسان الموجود في عصر آدم كالإنسان الموجود في سائر الأعصار.

يلاحظ على هذا الاستدلال: أنّه مبني على أنّ المراد من «على العالمين» الأشخاص المتواجدون في أعصارهم، وعند ذلك يكون انتخاب آدم انتخاباً طبيعياً من بينهم.

وهذا خلاف الظاهر، فالمراد من العالمين هو مجموع الإنسان، سواء أكان

---

١. آل عمران: ٣٣ـ ٣٤.

معاصراً لآدم أم لم يكن معاصراً له حتّى الإنسان المتواجد قريباً من يوم القيامة، ويدلّ على ذلك استعمال العالمين في الذكر الحكيم في عامّة الناس، قال سبحانه: ﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ**﴾.[1]

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**﴾.[2]

فالله سبحانه لا يريد ظلماً لأي إنسان وجد على وجه هذه البسيطة، كما أنّه جعل البيت الحرام مباركاً ومناراً للهداية لعامة الناس إلى يوم القيامة.

وعلى ضوء هذا فيكون معنى قوله سبحانه: ﴿**اصْطَفَى آدَمَ**﴾ ومن جاء بعده من الأنبياء على كلّ من يأتي بعده من البشر، وأين هذا من تخصيصه بمعاصريه؟! فيكون المراد اصطفاءه بالنبوة وتعليمه الأسماء وأمر الملائكة بالسجود له، إلى غير ذلك من الصفات الّتي بلغ بها آدم إلى الدرجة العليا من الكمال.

استمرار ذريته

ذكرنا مراحل خلقة أبينا آدم عليه السلام وأمّا نسله، فقد جعله الله سبحانه ﴿**مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾[3]، أي جعل ذريته من علقة مخلوقة من ماء مهين ضعيف في الغاية. نعم يتكامل ولد آدم في أرحام الأُمهات خلقاً بعد خلق وينتقلون من طور إلى طور، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ**

---

١. آل عمران:١٠٨.

٢. آل عمران:٩٦.

٣. السجدة:٨.

فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[1].

هذه هي شجرة الإنسان الّتي يعرضها القرآن الكريم، واضحةً في أصلها وفروعها، يذكرها الإنسان دون أن يغمره شعور بالنقص أو إحساس بعقدة نفسية، كالتي تشيعهما نظريات «لامارك» و«دارون» وأمثالهما، وهي تتحدث عن أصل آبائه وأجداده.

إن نظرية التطور أو ما تسمّىٰ بنظرية النشوء والارتقاء تزعم أنّ أشكال الحياة المختلفة بدأت من خلايا حية بسيطة ثم تطوّرت إلى كائنات كبيرة معقدة.

وكان «لامارك» قد ذهب إلى أن البيئة هي القوة المؤثرة في التطور الّذي يؤدي إلى ظهور صفات جديدة تورّث من جيل إلى جيل، وقد يبلغ التطور ذروته، فينتج عنه ظهور أنواع جديدة، إلّا أن هذه النظرية فشلت علمياً، إذ أثبت العلماء أنّ الصفات الوراثية تنتقل إلى الأجيال عن طريق الخلايا الوراثية (الّتي لا تخضع للظروف البيئة)، ولا تأثير للخلايا الجسمية فيها. ثم جاء «دارون» فبنىٰ نظريته على قانوني: التنازع على البقاء، والانتخاب الطبيعي. وكلا هذين القانونين تعرّضا لنقد شديد من قبل العلماء. والمجال هنا لا يتسع لذكر ذلك.

ومن الأدلة الّتي يستند إليها التطوريون في وجود العلاقة التطورية بين الحيوانات وبين الإنسان (الّذي هو مجال بحثنا) هو وجوه التشابه المتواجدة بينهما. وهذا الزعم غير مسلّم به، إذ أثبت علم التشريح المعاصر فروقاً هائلة بين الإنسان وبين القردة الّتي هي أقرب الحيوانات شكلاً إلى الإنسان، منها نمو الدماغ عند الإنسان، والتعبير بالنطق عن الأفكار، والقدرة على التصوّر وتكوين الأفكار. وهذه الفروق وغيرها جعلت بعض التطوّريين ينفون اندراج الإنسان

١. المؤمنون: ١٤.

تحت قانون الانتخاب الطبيعي مثل «والدس» و «فرخو».

ولولا إصرار التطوريّين علىٰ عدم الإيمان بقوة خالقة للكون مدبرة للحياة، لكان لهم موقف آخر من هذه النظرية، كشف عنه أحد أنصارها وهـو «السير آرثركيث» بقوله: إنّ نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلّا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا ما لا يمكن حتّى التفكير فيه [١]!!!

يقول العلّامة الطباطبائي رحمه الله: وأما القرآن فظاهره القريب من النص أنّ هذا النسل الحاضر المشهود من الإنسان ينتهي بالارتقاء إلى ذكر وأنثى هـما الأب والأُم لجميع الأفراد، أما الأب فقد سمّاه الله تعالى في كتابه بآدم، وأما زوجته فلم يُسمّها في كتابه ولكن الروايات تسمّيها حواء كما في التوراة الموجودة.

قال تعالى: **﴿وَ بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[٣].

وقال تعالى: **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**[٤].

وقال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا**

---

١. انظر الموسوعة العربية العالمية: ٢٥ / ٣٥٣ ـ ٣٥٩ (الطبعة الثانية).

٢. السجدة: ٧ ـ ٨.

٣. آل عمران: ٥٩.

٤. البقرة: ٣٠ ـ ٣١.

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾.[١]

فإنّ الآيات ــ كما ترى ـ تشهد بأنّ سنّة الله في بقاء هذا النسل أن يتسبب إليه بالنطفة لكنّه أظهره حينما أظهره بخلقه من تراب، وأنّ آدم خلق من تراب وأنّ الناس بنوه، فظهور الآيات في انتهاء هذا النسل إلى آدم وزوجته ممّا لا ريب فيه وإن لم تمتنع من التأويل.[٢]

ثمّ إنّ الغاية من ذكره سبحانه النشأة الأُولى للإنسان والمراحل الّتي يمرّ بها خَلْقه، هي إلفات نظرنا إلى عظمة الخالق وقدرته اللامتناهية، ومن ثم التوجه إليه بالعبادة والشكر، حيث جعل التراب والطين وسلالتهما إنساناً عالماً سميعاً بصيراً يسخّر الأرض والسماء ويحلّق بينهما.

٢

استخلاف آدم في الأرض

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[٣]

إنّ الله سبحانه لمّا خلق آدم جعله بشراً سوياً إذ نفخ فيه من روحه، فصيّره سميعاً بصيراً عاقلاً مفكّراً إلى غير ذلك من الخصائص الّتي صلح بها أن يكون خليفة الله في أرضه، يحكي بكماله وجماله ما لخالقه من الكمال والجمال والأسماء

---

١ .ص:٧١ـ ٧٢.
٢ . الميزان في تفسير القرآن:٤/ ١٤٢.
٣. البقرة:٣٠.

والصفات.

وقد عرض سبحانه على الملائكة استخلافه في الأرض وأخبرهم بذلك وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فلو كان ظرف هذا الإخبار قبل خلق آدم فالجعل بمعنى الخلق، ولو كان بعد خلقه فيكون معنى الجعل هنا انتخابه لهذا المنصب.

ولما كانت الملائكة غير عارفين بما يتمتع به آدم من كمالات استعظموا الأمر وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وحاصل كلامهم: أنّه لا يليق بمن يفسد ويسفك الدماء أن يكون خليفة الله في الأرض، وانّما اللائق بهذا المنصب هم الملائكة الذين يسبحون بحمده ليلاً ونهاراً وينزّهونه عن كلّ عيب وشين، وسيوافيك توضيح خلافته في الأرض.

فأُجيبوا بقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

لقد ذكر سبحانه قصة آدم في غير واحدة من السور لدواعٍ مختلفة، ولكنّه لم يذكر استخلافه في الأرض وتعليمه الأسماء إلاّ مرّة واحدة، ولذلك صار الأمران المذكوران من المعارف القرآنية الّتي قلّما يتّفق لإنسان الإحاطة بمغزاهما، ولأجل ذلك نفصل الكلام فيهما كما يلي:

خلافته في الأرض

لا شكّ أنّ أنبياء الله ورسله ومن يخلفهم من الأوصياء والأئمة خلفاء الله في أرضه حيث إنّهم وسائط بين الله وبين عباده يبلغون رسالات الله إلى الناس، وهذا النوع من الاستخلاف يختص بهذه الطبقة.

وبما انّه سبحانه يذكر خلافة آدم بصورة خاصة ويعدّها من خصائصه،

فلخلافته إذاً معنى آخر، غير المعنى الّذي عمّ الأنبياء والأوصياء قاطبة.

ويُتصور في بادئ الأمر لخلافته معنيان أوّلها باطل و الآخر صحيح.

المعنى الأوّل: خلافته عن الله في الأرض بمعنى تفويض أمر الإلوهية والربوبية إليه فيها. وهذا الاحتمال مرفوض جدّاً بل لا يليق أن يذكر ويسطر، لقوله سبحانه: ﴿**وَهُوَ الّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَـهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَـهٌ**﴾ فهو الشرك الأكبر الّذي لا يتفوّه به من له أدنى إلمام بالشرائع السماوية، فلا ربّ ولا مدبر ولا معبود سواه سبحانه، قال جلّ شأنه: ﴿**لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[1].

المعنى الثاني: ـ وهو المهم ـ خلافته عن الله سبحانه بشكل لا ينافي الأُصول الصحيحة الّتي نزل بها الذكر الحكيم ودعا إليها الأنبياء والرسل. وهذا يتصور على وجهين:

الأوّل: محاكاة المستخلِف في صفاته

لما ارتقى آدم درجة عالية من الكمال والجمال ولم يكن في صحيفة الوجود أفضل منه، صار يحاكي ــ بجماله وكماله ـ جاعلَه وخالقَه في هذه الصفات، فكأنّه مرآة للرب تكشف عمّا في ذلك المقام من العظمة والقدرة على الإبداع.

نعم كلّ موجود إمكاني في صحيفة الوجود من غير فرق بين الإنسان وغيره يحكي بمقدار كماله وجماله، كمالَ ربّه وعلمه وقدرته، ولكن لا يوجد في تلك الصحيفة موجود أفضل وأرقى من آدم وأولاده، ولأجل ذلك صار خليفة الله في أرضه، وموضعَ تجلّي حكمته وعلمه وجلاله، وهو المقام الذي لم ترتقِ إليه حتّى

١. النحل:٣٦.

الملائكة مع ما لهم من المكانة السامية إلاّ أنّهم لم يرتقوا إلى ذلك المقام الّذي كان لآدم.

يقول محمد عبده: إنّ الإنسان يتصرف بشعوره وإحساسه بالكائنات فيسخّرها ويذلّلها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة الّتي يسمّونها العقل ولا يعقلون سرّها، ولا يدركون حقيقتها وكنهها، حتّى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان.

أعطى الله الإنسان أحكاماً وشرائع تساعده على بلوغ كماله، لأنّها مرشد ومرب للعقل الّذي كان له كلّ تلك المزايا، فلهذا كلّه جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة.

وقد ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فهو يتفنّن ويبتدع ويكشف ويخترع ويجدّ ويعمل.

إلى أن قال: أليس من حكمة الله الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض. يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الّذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه؟[1]

الثاني: خلافته عنه سبحانه في التصرف بالعالم

وهناك تفسير آخر لخلافة آدم عن الله سبحانه، وكأنّه والتفسير الآنف الذكر وجهان لعملة واحدة وحاصله: أنّه سبحانه خلق العالم مليئاً بالقوى

١. تفسير المنار: ١/ ٢٦٠.

الطبيعية والنعم الوافرة، وليس لأحد حقّ التصرف فيها إلاّ بتخويل من الله تعالى، فخلق آدم وأذن له أن يعمر الأرض ويخرج مواهبها ويستثمر طاقاتها وخيراتها، وبهذا صار خليفة الله سبحانه في الإعمار والعمران، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.(١)

فالوارد في هذه الآية تعبير آخر عمّا جاء في الآية الأُخرى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فقوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ تعبير عن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ يعادل قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾.

فالتفسيران يهدفان إلى أنّه تبارك وتعالى استخلف آدم في الأرض لغايتين:

الأُولى: محاكاته بما أُوتي من المواهب والقدرات في علمه وقدرته سبحانه.

الثانية: قيامه بإعمار الأرض وإخراج طاقاتها وقدراتها بإذن منه سبحانه، فالمنوب عنه هو الله سبحانه وآدم هو الخليفة ووجه الخلافة أحد الأمرين الماضيين.

هذا هو المعنى الّذي يتبادر من الآية مع ملاحظة بعض الآيات الأُخرى.

ثمّ إنّ هناك معنى آخر للخلافة يخالف المعنى السابق تماماً وهو:

الخلافة عن الأُمم البائدة

ثمة قول آخر يذهب إليه بعض المفسّرين، وهو أنّ الأرض كانت مسكونة

---

١. هود:٦١.

قبل أن تطأها قدما آدم عليه السلام، ثمّ انقرض سكانها، فأراد الله أن يخلفهم بآدم وذريته، وليست الخلافة إلاّ مجيء شيء بعد آخر؛ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.[١]

فالليل يخلف النهار، والنهار يخلف الليل بالتبادل و التعاقب.

وعلى ضوء ذلك، يكون المعنى أنّ الله سبحانه أخبر الملائكة بأنّه سيجعل في الأرض من يخلف الأُمم السابقة، وهذا شبيه بقول الله سبحانه، في الناجين من قوم نوح (إذ جعلهم خلفاء للغارقين والهالكين): ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.[٢]

وليس هذا ببعيد بالنظر إلى بعض الآيات في القرآن، كالتي تتحدث عن هود أنّه خاطب قومه بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.[٣]

أو الّتي تتحدث عن صالح، إذ خاطب قومه بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾.[٤]

كلّ ذلك يُقرّب حقيقة أن خلق قوم بعد قوم يعد استخلافاً، فهذا هو موسى الكليم عليه السلام يعد قومه بأنّ الله سبحانه يستخلفهم في الأرض قال: ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾.[٥]

حتّى أنّه سبحانه وعد المؤمنين بأنّه سيستخلفهم في الأرض وقال: ﴿وَعَدَ

---

١. الفرقان:٦٢.

٢. يونس:٧٣.

٣. الأعراف:٦٩.

٤. الأعراف:٧٤.

٥. الأعراف:١٢٩.

الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.[١]

فعلى ضوء هذه الآيات يمكن أن نقول:إنّ خلافة آدم نظير خلافة هذه الأقوام بعضها لبعض.

ولو صحّ هذا المعنى لكان مغايراً للمعنى الأوّل مغايرة تامّة.

وإلى هذا الرأي يشير صاحب المنار ويقول: ذهب بعضهم إلى أنّ هذا اللفظ يُشعر بأنّه كان في الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق وأنّه انقرض، وان هذا الصنف الّذي أخبر الله الملائكة بأنّه سيجعله خليفة في الأرض يحل محلّه ويخلفه.

وبما أنّ هذا الصنف البائد قد أفسد في الأرض وسفك الدماء، فاستنبطت الملائكة سؤالهم بالقياس عليه فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.[٢]

وقد ورد في بعض الروايات ما يشير إلى هذا المعنى، حيث جاء فيها «ما عَلَم الملائكة... لولا أنّهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء».

ولكن هذا التفسير غير واضح وغير موافق لظاهر الآية وذلك:

أوّلاً: لو كان المراد هو الخلافة عن الصنف البائد لماذا ذكر سبحانه ــ بعد استعظام الملائكة لذلك ــ تعليم الأسماء وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...﴾، وهذا يدلّ على أنّ خلافة آدم لم تكن خلافة عن الأقوام البائدة بل هي خلافة عن الله سبحانه، ولهذه الكرامة علّمه سبحانه الأسماء وعرضها على الملائكة فاعترفوا بجهلهم بها.

---

١. النور:٥٥.

٢. تفسير المنار:١/ ٢٥٨.

وثانياً: أنّ الأمر بسجود الملائكة لآدم الّـذي هو تكريم في أعلى صورة لهذا المخلوق لا يناسب كونه خليفة عن الأُمم البائدة الفاسدة السفّاكة للدماء، حيث وهبه الله من الأسرار ما رفعه على الملائكة، والله سبحانـه يذكر في الآيات المتقدمة خلافة قوم لقوم دون أن يذكر فيها شيئاً ممّا ذكره في خلافة آدم.

الخلافة لآدم بنوعه

هل الخلافـة التي تحدّث عنها القـرآن مختصة بأبينـا آدم عليه السلام ، أو أنّها لآدم وأبنائه قاطبة؟

يمكن استظهار الوجه الثاني بالأُمور التالية:

١. لـو كانت الخلافـة مختصة لآدم بشخصـه لم يكن للسؤال الاستنكـاري للملائكة وجه، لأنّ آدم عليه السلام لم يفسد ولم يسفك الدماء وانّما خاض في الدماء ونشر الفساد بعض أبنائه وأولاده. وهذا يدلّ على أنّ الملائكـة فهموا من الخلافة خلافة آدم بنوعه لا بشخصه.

٢. سيوافيك في المحور الرابع أنّ المسجود له بظاهره هو أبونا آدم عليه السلام ولكن السجود له كان سجوداً لأولاده عامة، فالإنســان بنوعه لأجل مواهبه وقدراته بلغ مرتبة استحق بها أن تسجد الملائكة له.

وهذا يثبت أنّ الخلافة لم تكن لشخص آدم، بل كانت رمزاً لخلافة الإنسان عن الله سبحانه بأحد الوجهين الماضيين: إمّا حكـايته لجلاله وجماله سبحانه، أو بنيابته عن الله في الأرض لإعمارها.

٣

تعليم الأسماء لآدم عليه السلام

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هٰؤلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيبَ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .[١]

من المحطات الموجودة في أوّل خلقة آدم عليه السلام والّتي يجب على الباحث التوقّف والتدبّر فيها هو تعليمه سبحانه الأسماء له، وقد ورد تعليم الأسماء لآدم مرّة واحدة في الذكر الحكيم، ولذلك أُحيط الموضوع بهالة من الإبهام، ولذا فإنّ إيضاح الموضوع رهن تبيين معاني مفردات ومقاطع من الآيات المذكورة.

١ . الأسماء

وهو جمع اسم فقد يطلق ويراد به ما يقابل الفعل والحرف ولكنه غير مقصود، وربما يعبّر به عن الموجودات، وهذا هو المراد به في المقام.

قال الراغب: والاسم ما يعرف به ذات الشيء. وأصله «سمو» بدلالة قولهم أسماء وسمي، وأصله من السموّ وهو الّذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به، قال

---

١. البقرة:٣١ـ ٣٣.

سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾ أي الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها.[1]

ثمّ إنّ الألف و اللام في الأسماء مفيدة للاستغراق أو هي نائبة عن المضاف إليه، فقوله الأسماء أي أسماء المسمّيات وأسماء الأشياء.

٢. العرض على الملائكة

ثمّ إنّه سبحانه بعد ما علّم آدم الأسماء ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾، وضمير الجمع هنا دليل على أنّه سبحانه عرض واقع الأسماء والمسمّيات على الملائكة، ويشهد على أنّ المراد هو عرض المسمّيات لا الأسماء فقط، أنّه سبحانه خاطب الملائكة بقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلاءِ﴾، فلو كان المعروض هو الأسماء لما صحّ أن يقول: «بأسماء هؤلاء»، الّذي يدلّ على أنّه سبحانه عرض المسمّيات عليهم، ثمّ استنبأهم عن أسمائهم.

٣. إن كنتم صادقين

جملة إن الشرطية متعلّقة بمحذوف وهو: لو كنتم صادقين بأنّكم أهل للخلافة دون آدم وولده فأنبئوني بأسماء هؤلاء.

٤. إنباء آدم بالأسماء

أمر الله سبحانه آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء المسمَّيات. وقوله: ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يدلّ على أنّ المسمّيات كانت حاضرة مشهودة للملائكة وآدم، ولذلك قال: بأسمائهم.

---

١. المفردات: ٢٤٤، مادة «سمو».

٥. علمه سبحانه بغيب السماوات والأرض

إنّ هذا المقطع من الآية يحكي أنّ هذا المخلوق قد وُهب سراً، كان خافياً عن الملائكة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

كما أنّ قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يُشعر بأنّ الملائكة قد أعربوا عن بعض ما كان في ضميرهم وكتموا البعض الآخر، فأخبرهم الله سبحانه بأنّه يعلم ما يبدون وما يكتمون.

إلى هنا تمّ ما أردنا تبيينه من مفردات الآيات ومقاطعها فلندخل في صلب الموضوع، وهو:

٤

سجود الملائكة لآدم عليه السلام

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.[١]

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.[٢]

يظهر من سياق الآيات الواردة في سورة البقرة أنّه سبحانه لما علّم آدم الأسماء كلّها وأمره أن يُنبئ الملائكة بها، وجّه أمره سبحانه إلى الملائكة بالسجود

---

١. البقرة:٣٤.

٢. الأعراف:١٢.

لآدم إجلالاً له وتكريماً، فسجد الملائكة كلهم إلاّ إبليس، فصار آدم مسجوداً حقيقيّاً لهم لا قبلة لهم، نظير الكعبة للمصلين، ومع ذلك لم تكن الملائكة عابدين لآدم، ولا مشركين في عبادتهم لله سبحانه، ولم يكن أمره سبحانه بالسجود لآدم أمر بعبادته. كيف والشرك ظلم عظيم[١]، وهو قبيح في منطق العقل والشرع، والله سبحانه لا يأمر به.[٢]

وعلى ضوء ذلك يجب أن نقف على الفارق الموجود بين سجود الملائكة لآدم، الّذي يُعتبر تكريماً له لا عبادة، وبين سجود عبدة الأصنام، الّذي يُعتبر عبادة لها.

والملائكة ما زالوا في صفوف الموحّدين والمسبّحين والمنزّهين لله بخلاف عبدة الأصنام وهم مشركون غارقون في الشرك.

وفي بيان الفارق بين العملين وجوه، نأتي بها تباعاً:

الأوّل: جعل آدم قبلة فقط

يعتمد هذا القول على أنّ السجود عبادة فلا يمكن تشريعه لغير الله سبحانه. ولمّا كان سجود الملائكة سجوداً جَماعيّاً متجهاً إلى نقطة واحدة جُعِل آدم قبلة[٣] لتوحيد اتجاههم إلى نقطة واحدة، وكان في ذلك إجلالاً لآدم وتكريماً له.

يلاحظ على هذا الوجه أوّلاً: بأنّه مخالف للآيات الواردة في هذا الشأن،

---

١. ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. لقمان:١٣.

٢. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾. الأنعام:١٤٨.

٣. نقله الشيخ الطوسي في «التبيان في تفسير القرآن» عن الجبائي والبلخي وجماعة.

والّتي صرّحت بأنّه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأمّا القبلة فلا يسجد لها الإنسان و إنّما يتّجه إليها في السجود لله.

وبعبارة أُخرى: قوله سبحانه: ﴿**اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ نفس قوله: «اسْجُدُوا للهِ» فالتفكيك بين التعبيرين غير صحيح.

وثانياً: لو كان السجود لآدم بمنزلة التوجه إلى الكعبة دون أن يكون تواضعاً وتذلّلاً له، فلماذا استكبر إبليس و امتنع من السجود له وقال:﴿**لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾[١]؟ فامتناعه واستكباره آية أنّ آدم مسجوداً له لا كونه قبلة فقط.

الثاني: السجود بأمر الله سبحانه

ثمّ من يتحدث عن العبادة، دون أن يضع لها حداً منطقياً يميّزها عن التبجيل و التكريم، زاعماً أنّ كلّ تذلّل أمام شخص عبادة له، وأنّ سجود الملائكة لآدم إنّما خرج عن كونه عبادة له، لأنّه بأمر الله تعالى، ولولا أمره سبحانه، لكان سجودهم له عبادة. وبهذا أيضاً يُفسَّر سجود أبوي يوسف وإخوته له في قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾.[٢]

وهذا القول كثيراً ما يردّده ويؤكّد عليه مشايخ الحرمين الشريفين.

ويلاحظ عليه: بأنّه لو كان سجود الملائكة لبشر مثل آدم داخلاً في الشرك موضوعاً وماهيةً، تكون حقيقته كحقيقة سجود المشركين لأصنامهم وأوثانهم، وعندئذٍ لا يُخرِجُ أمر الله سبحانه بالسجود لآدم عن كون السجود عبادة لآدم، فإنّ

---

١. الحجر:٣٣.

٢. يوسف:١٠٠.

الأمر لا يغيّر الموضوع، غاية الأمر أنّ الشيء إذا كان حراماً فأمر الله سبحانه في مجال خاص يجعله مباحاً دون أن يمسَّ ماهية الموضوع قيد شعرة. ولنمثّل لذلك بمثال:

إنّ السبّ محكوم بالحرمة في الإسلام، فإذا أمر الله سبحانه بسبّ المنافقين أو المشركين فأمره هذا لا يخرج السبّ عن واقعه، فالسبّ في عامة الحالات سبّ، غاية الأمر أنّ أمرَ الله سبحانه يعطي ترخيصاً في العمل، فيخرجه من الحرمة إلى الجواز.

ولذلك اشتهر بين الأُصوليين أنّ التخصيص غير التخصّص، فالثاني خروج موضوعي والأوّل خروج حكمي، فلو قال: أكرم العلماء إلاّ زيداً وكان زيد عالماً، فاستثناؤه زيد يعد إخراجاً من الحكم لا إخراجاً من الموضوع، فهو عالم من العلماء غاية الأمر لا يجب إكرامه، بخلاف ما إذا قال: لا تكرم زيداً الجاهل، فخروجه خروج تخصّصي من الموضوع.

الثالث: العبادة هي الخضوع عن اعتقاد خاص

الإشكال مبني على تعريف العبادة بكونها مطلق الخضوع والتذلّل، وعلى هذا يُصبح سجود الملائكة لآدم من أقسام العبادة. ولكن هذا التفسير مردود جدّاً، إذ ليست العبادة هي مطلق الخضوع والتذلّل وإلاّ لا تجد على أديم الأرض موحِّداً منزَّهاً عن الشرك. وهذا القرآن ينطق بأنّ يعقوب وزوجته وأولاده قد خرّوا أمام يوسف ساجدين، وعند ذاك تذكّر يوسف ما رآه في سالف الأيّام: ﴿**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّاً**﴾.[1]

---

١. يوسف: ١٠٠.

وكان يوسف قد قـص رؤياه على أبيه قائلاً: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾**.[١]

كيف يكون مطلق التذلل عبادة للمتذلَّل له، والله سبحانه في كتابه الحكيم يأمر الولد بالخضوع لـوالديه، قائلاً عزّ من قائل: **﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾**[٢]؟!

وإذا كان مطلق الخضوع والتذلّل من مصاديق العبادة، كان خضوع الجنود لقادتهم عبادة لهم أيضاً.

كلّ ذلك يكشف عن تغـايـر العبـادة مع التـذلّـل والخضـوع، وإن كـان اللغويون فسروها بالتذلّل والخضوع.

قال ابن منظور: أصل العبودية: الخضوع والتذلّل ويقول الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنّها نهاية التذلّل.

وقال الفيروزآبادي: العبادة: الطاعة.[٣]

وأنت جـد عليم، بأنّ الجميع تفسير بـالأعم وانّ العبادة أخصّ من هـذه التعاريف ضرورة انّ كلّ تذلُّل، أو كلّ طاعة ليسا عبادة للمتذلَّل له أو المطاع، وإلاّ صحّ أن نعـدّ إطاعـة الـرسول وأُولي الأمـر الّتي أوجبهـا الله تعـالى بقولـه: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الـرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾**[٤]ـ صحّ أن نعـدّها ــ عبادة لهم!!!

---

١. يوسف:٤.

٢. الإسراء:٢٤.

٣. راجع لسان العرب، والمفردات، والقاموس، مادة «عبد».

٤. النساء:٥٩.

تحديد العبادة تحديداً منطقيّاً

إنّ حلّ الإشكال رهن تحديد العبادة وتعريفها، تعريفاً منطقياً، يكون جامعاً لعامة افراده ومانعاً عن الانحياز، فهناك تعاريف ثلاثة يهدف الجميع إلى أمر واحد، واليك بيانها:

١. العبادة عبارة عن: الخضوع عن اعتقاد بإلوهية المعبود، فما لم يكن القول والعمل ناشئين من الاعتقاد بالإلوهية لا يكون الخضوع والتعظيم عبادة.

والمراد من الإلوهية هو الاعتقاد بكونه إله العالم وخالقه ومدبّره، وأن أزمّة الأُمور كلها أو بعضها بيده، فهذا هو المراد من الإله في عامة الآيات، وأمّا تفسيرها بالمعبود فهو تفسير باللازم. فالإله ولفظ الجلالة «الله» بمعنى واحد إلّا أنّ الثاني عَلَم دون الأوّل.

والّذي يدلّ على ذلك (العبادة: هي الخضوع النابع عن الاعتقاد بالإلوهية) فهو يأمر بعبادة الله وينهى عن عبادة غيره، محجّاً بأنّه لا إله غيره. أنّ كلّ نبيّ يهتف في قومه: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[١].

فالعبودية من شؤون إله الكون ومدبره كلاً أو بعضاً. ومن هذه الناحية اعتقد المشركون بإلوهية الأوثان والأصنام حيث كانوا يثبتون لها بعض شؤون الإله كحق الشفاعة والمغفرة، أو العزة[٢] والنصر في الحرب.[٣] وبكلمة واحدة: كانوا يسوّونهم برب العزة في بعض شؤون الإله كما يحكي عنهم قوله سبحانه:﴿**تَاللهِ إِنْ**

١. الاعراف: ٥٩.

٢. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ مريم: ٨١.

٣. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يس: ٧٤.

﴿كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾[1]. وأين عقيدتهم وأعمالهم هذه من عقيدة الملائكة بأنّ آدم خليفة الله في أرضه، كرّمه الله تعالى بتعليم الأسماء أو من عقيدة المسلم الموحِّد، الّذي لا يرى للنبي وأُولي الأمر شيئاً من هذه المقامات ولا يسوّيهم برب العالمين. بل يرى أنّهم عباد صالحون مطيعون لله أوّابون، آتاهم الله فضلاً عظيماً، ولهم عند الله زلفىٰ وحسنُ مآب.

٢. العبادة هي الخضوع أمام من يعتقد انّه ربّ يملك شأناً من شؤون وجوده وحياته في آجله وعاجله، سواء كان أمراً مادّياً كالعزّة والنصر، أم معنويّاً كمغفرة الذنوب.

والمقصود من الربّ، هو المالك لشؤون الشيء، المتكفّل لتدبيره وتربيته، ولذلك تكون العبودية في مقابل الربوبية.

ويدلّ على ذلك طائفة من الآيات التي تعلّل الأمر بحصر العبادة في الله وحده بأنّه الربّ لا غيرُ، وإليك بعض هذه الآيات:

﴿وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.[2]

﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونَ﴾.[3]

﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.[4]

وقد ورد مضمون هذه الآيات في آيات أُخرى هي: يونس:٣؛ الحجر:٩٩؛ مريم:٣٦، ٦٥؛ الزخرف:٦٤.

---

١. الشعراء:٩٧ـ٩٨.

٢. المائدة:٧٢.

٣. الأنبياء:٩٢.

٤. آل عمران:٥١.

٣. العبادة هي الخضوع أمام من نعتقد أنّه إله العالم، أو من فُوِّضَ إليه أعماله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة التي تعد من الأفعال الكونية، أو التقنين والتشريع وحقّ الشفاعة والمغفرة التي تعد من الأفعال التشريعية.

إنّ الموحِّد يعبد الله سبحانه بما أنّه قائم بهذه الأفعال، من دون أن يفوِّض شيئاً منها إلىٰ مخلوقاته، ولكنّ المشركين مع اعتقادهم بأنّ آلهتهم وأربابهم، مخلوقون لله تبارك وتعالى، فإنّهم يعتقدون أيضاً انّه فُوِّض إلى آلهتهم أُمور التكوين والتشريع كلّها أو بعضها، ومن أجل هذا كانوا يستمطرون بالأنواء والأصنام [1]، ويطلبون الشفاعة منهم بتصور انّهم مالكون لحقّ الشفاعة، ويطلبون منهم النصرة والعزة في الحرب بزعم انّ الأمر بيدهم وانّه فُوِّض إليهم.

وعلىٰ ضوء هذه التعاريف الثلاثة يظهر الفرق الجوهري بين التوحيد في العبادة والشرك فيها، فكلّ خضوع نابع عن اعتقاد خاص بإلهية المخضوع له وربوبيته أو تفويض الأمر إليه فهو عبادة للمخضوع له سواء كان ذلك الاعتقاد الخاص في حقّ المعبود حقاً ـ كما في اللّه سبحانه ـ أو باطلاً كما في حقّ الأصنام وكلّ معبود غيرها.

فظهر أنّ كلّ خضوع ناجم عن هذا النوع من الاعتقاد، عبادة للمخضوع له.

وأمّا لو كان الخضوع مجرداً عن هذه العقيدة فهو تعظيم وتكريم، وليس بعبادة، ولا يكون الخاضع مشركاً، ولا عمله موصوفاً بالشرك، غاية الأمر انّه قد

---

١. جاء في السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٧٩ أن أوّل من أدخل الوثنية إلى مكة هو عمرو بن لحيّ، حيث استصحب معه من أرض الشام صنماً يقال له (هُبَل)، فنصبه في مكة، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

يكون حلالاً كما في الخضوع للأنبياء والأولياء ومن وجب له حقّ بالتعليم والتربية، وقد يكون حراماً كالسجود للنبي ﷺ والولي عليه السلام وغيرهما لا لأنه عبادة للمسجود له، بل لأنّه لا يجوز السجود لغيره سبحانه في الشريعة الإسلاميّة.

وبمثل هذا التبيان تتميز العبادة عن التعظيم، فتقبيل المصحف وضرائح الأنبياء وما يمتّ إليهم بصلة إذا كان فارغاً عن اعتقاد الأُلوهية والربوبية والتفويض فهو ليس عبادة للمخضوع له.

كلّ ذلك يعرب عن أنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن من سنخ العبادة، بل كان تكريماً وتعظيماً.

نعم يحرم السجود في الشريعة الإسلامية لكلّ بشر، لا بما أنّه عبادة، بل بما أنّه حاك عن أفضل صور العبادة في مواردها، فهو حرام مطلقاً إلاّ لله سبحانه، سواء أكان عبادة أم غير عبادة.

هل كان السجود لشخص آدم؟

ظاهر بعض الآيات أنّ السجود كان لشخص آدم حيث قال تعالى: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾. فكأنّ آدم بشخصه وعينه هو المسجود له دون غيره، وهناك نظر آخر غير بعيد عن ظاهر بعض الآيات الأُخر وهو أنّ السجود له كان رمزاً للسجود له ولذريته، وذلك لوجهين:

١. انّه يوجد في ذرية آدم أنبياء ورسل وأولياء وأوصياء، سيرتقون مراتب عالية فلا بدعة أن يكون السجود له سجوداً رمزياً له ولغيره. كلّ ذلك تكريماً لهم في بدء الخليقة.

٢. أنّه تبارك وتعالى ينسب خلقة آدم وتصويره إلى أولاده حتّى ينسب

هبوطه إلى الأرض إليهم، ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾.[١]

ويقول تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حينٍ﴾.[٢]

كلّ ذلك يشعر بأنّ ما وصف به أبونا آدم عليه السلام صحّ أن توصف به ذرّيته، والله العالم.

هل كان إبليس من الملائكة؟

ظاهر بعض الآيات أنّ إبليس كان من الملائكة وذلك بحكم الاستثناء المحمول على الاستثناء المتصل، في قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.[٣]

ومع ذلك فصريح بعض الآيات أنّه كان من الجنّ، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.[٤]

فقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة أمر ربه، ومعنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي كان من ذلك الخلق.

ويدلّ على عدم كونه ملكاً أمران:

---

١. الأعراف:١١.

٢. الأعراف:٢٤.

٣. الحجر:٢٩ـ ٣٠.

٤. الكهف:٥٠.

أ. انّه سبحانه يصف الملائكة بأوصاف تلازم العصمة، كقوله: ﴿**بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ* لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾.[١]

وقوله في حقهم: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[٢]، وقوله في وصف دأبهم على تسبيح الرب: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾.[٣]

فأين هذه الصفات الّتي وصفت بها الملائكة ممّا تفوه به إبليس: ﴿**لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ**﴾.[٤]

ب. إنّ ظاهر بعض الآيات أنّ لإبليس أولاداً وذرية قَبيلاً، قال سبحانه وهو يتحدث عن إبليس: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي**﴾[٥]. وقال: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**﴾.[٦] ويظهر أيضاً أنّ الجنّ (الذين ينتمي إليهم إبليس، كما مرّ بنا قريباً) يتكاثرون، وأنّ فيهم رجالاً ونساءً، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ**﴾.[٧]

أمّا الملائكة فليس فيهم ذكور و إناث، ومن هنا فنّد سبحانه قول المشركين المعتقدين بأنّ الملائكة إناث، وقال: ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ**﴾.[٨]

وهنا يطرح السؤال التالي: إذا لم يكن إبليس من صنف الملائكة فما هو الوجه في استثناء إبليس منهم؟

والجواب: أنّه سبحانه خاطب الملائكة بالسجود لآدم و إبليس حينئذٍ كان

---

١. الأنبياء:٢٦ـ ٢٧.
٢. النحل:٥٠.
٣. الأنبياء:٢٠.
٤. الحجر:٣٣.
٥. الكهف:٥٠.
٦. الأعراف:٢٧.
٧. الجن:٦.
٨. الزخرف:١٩.

معهم، وفي الوقت نفسه خص إبليس بخطاب آخر، والّذي يعرب عن تخصصه بالخطاب، وراء خطاب الملائكة، قوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾.[١]

وعندئذ صارت الوحدة المكانية والاشتراك في التكليف مبرراً لاستثناء إبليس عند ذكر سجود الملائكة.

وإلى ذلك يشير الطبرسي بقوله: إنّ استثناء الله تعالى إياه منهم لا يدلّ على كونه من جملتهم، وإنّما استثناه منهم لأنّه كان مأموراً بالسجود معهم فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم.[٢]

وفي الحديث عن جميل بن دراج عن الإمام الصادقعليه السلام قال: سألته عن إبليس أكان من الملائكة أو كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ قال: «لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء وكان من الجن وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة ترى أنّه منهم وكان الله سبحانه يعلم أنّه ليس منها، فلمّا أمر بالسجود لآدم كان منه الّذي كان».[٣]

وثمّة من يذهب إلى أنّ الجنّ صنف من الملائكة، ولأجل ذلك صحّ استثناء إبليس منهم، نقل هذا الرأي الشيخ الطوسي[٤] وغيره، وتبنّاه صاحب المنار قائلاً: وليس عندنا دليل على أنّ بين الملائكة والجنّ فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر وإنّما هو اختلاف أصناف، عندما تختلف أوصاف، كما تشير إليه الآيات.

---

١. الأعراف:١٢.
٢. مجمع البيان:١/ ٨٢.
٣. مجمع البيان:١/ ٨٢.
٤. التبيان في تفسير القرآن:١/ ١٥٢.

فالظاهر أنّ الجنّ صنف من الملائكة، وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾[١].[٢]

ولكن هذا الرأي ممّا ينبغي التأمّل فيه، لأنّ القرآن حيثما يذكر الملائكة يقرن ذكرهم بالمدح والثناء المطلق، على خلاف الجن والإنس (أعني الكثير منهم) الذي يقترن ذكرهم فيه بالذم، كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأين هذا من الملائكة الرافلين في رياض القدس...؟! والله العالم.

حقيقة استكبار إبليس

ورد في الآيات القرآنية أنّ إبليس عصى أمر ربّه مستكبراً، وأنّه ـ حسب زعمه ـ خير من آدم، إذ خُلِق من نار وآدم من طين. وظاهر هذه الآيات الّتي مضى ذكر قسم منها أنّه استكبر على آدم، ولم يستكبر على الله تعالى. ويؤيد ذلك كلام إبليس عندما أُمر بالسجود لآدم على ما رواه هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام قال: «أُمر إبليس بالسجود لآدم وقال: يا ربي وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها».[٥]

ولكن الغور في أعماق القصة وما جاء في ذيل الحديث عن الإمام

---

١. الصافات:١٥٨.

٢. تفسير المنار:١/ ٢٦٥.

٣. الأنعام:١١٢.

٤. الأعراف:١٧٩.

٥. بحارالأنوار:١١/ ١٤٥.

الصادق عليه السلام يكشف لنا أنّه تكبّر في الباطن على الله تبارك وتعالى.

وذلك لوجوه:

١. لو كـان إبليس مسلّماً ومطيعاً لله تعـالى من صميم وجـوده لما أقدم على عصيانه ومخالفة أمره، ولذا أبى الله تعالى أن يستجيب لطلبه بإعفائه من السجود، قائلاً عزّ من قـائل ـ كما في الرواية المذكورة آنفـاً ـ : «إنّي أُحبُّ أن أُطاع من حيثُ أُريد».[١] ومعنى ذلك أنّ آيـة التسليم هي النزول على أوامـر الله سبحانـه من غير تفريق بين أمر وآخر.

٢. تمثّل مخالفة إبليس لأمر الله بالسجود لآدم ــ اغتراراً بأصله ـ استخفافاً بمالك الملك والملكوت، تماماً كتكذيب الأنبياء الّذي عدّه سبحانه تكذيباً لآياته، حيث قال جـلّ شأنه: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّـهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُـولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَـذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِـآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾[٢]. فكأنّ تكذيب النبي لـه وجهان: ظـاهره تكذيب النبي، وبـاطنه إنكار لآيـات الله سبحانه وتكـذيب لها. وعلى ضوء ذلك فـاستكبـاره على آدم هـو ظـاهـر القصـة، واستكبـاره على الله بـاطنهـا وكـلاهما صحيحان.

٣. لما استكبر إبليس واعتصم بأنـانتيـه في مكان قـدسي لا يعصي الله فيـه أحدٌ، خاطبه سبحانه بقوله: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾.[٣]

ومعنى ذلك أنّ اللائق بكل من حلّ بهذا المكـان أن يخلع عنه رداء التكبّر،

---

١. بحارالأنوار:١١/ ١٤٥.

٢. الأنعام:٣٣.

٣. الأعراف:١٣.

ولذلك أُمر بالهبوط من هذا المكان.

٤. من مظاهر التكريم لآدم وإعلاء شأنه أنّه سبحانه أضاف الروح الّتي أجراها فيه إلى نفسه، ثمّ أمر الملائكة وإبليس بالسجود له، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.[١]

كما أنّه سبحانه ندد بإبليس لاستكباره وامتناعه من السجود لما خلقه بيديه، وهو كناية عن اهتمامه بخلقه وقدرته على الخلق والإيجاد، قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ﴾[٢]. وفي الآيتين إشعار بأنّه استكبر على خالقه، حيث لم يسجد لمخلوق كان لله فيه عناية خاصة، نفخ فيه من روحه، وخلقه بيديه.

استمهال إبليس

إنّه سبحانه بعدما طرد إبليس من رحمته، استمهله هذا بقوله:﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣]، فأجابه سبحانه تارة بقوله:﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾[٤] دون أن يحدد بوقت، وأُخرى بالتحديد إلى يوم الوقت المعلوم: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.[٥]

ومع أنّ إبليس طلب الإمهال إلى يوم يبعثون، لكنّه سبحانه أمهله إلى يوم الوقت المعلوم كما عرفت، لأنّ الموجودات الإمكانية عامة تذوق الموت في النفخة

١. الحجر:٢٩.
٢. ص:٧٥.
٣. الأعراف:١٤.
٤. الأعراف:١٥.
٥. الحجر:٣٧ـ٣٨.

الأُولى ومنهم إبليس ثمّ إنّهم يبعثون في النفخة الثانية الّتي تقوم القيامة بعدها، قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.[١]

وهنا يردُ هذا التساؤل: لماذا أمهل الله سبحانه إبليس بعد أن طرده عن حظيرة القدس؟

ويجاب بوجهين:

١. انّ إبليس ممّن عبد الله سبحانه ستة آلاف سنة، وإن كان قد أحبط عملَه بالكبر ساعة واحدة، لكنّه سبحانه كرامة منه أمهله مكافأة لما عبد.

قال الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرىٰ أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة».[٢]

٢. لقد أمهل الله الشيطان ليتميز من يفتتن بإغوائه عمّن يدبر عنه ولا يطيعه.

ولمّا أيقن إبليس بتلبية طلبه في الإمهال، أظهر ما في نفسه من العداء لآدم وذرّيته والرغبة في الانتقام منهم، قائلاً: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.[٣]

---

١. الزمر:٦٨.

٢. نهج البلاغة، الخطبة القاصعة رقم ٩٢.

٣. الأعراف:١٦ـ١٧.

وقد حلف في موضع آخر بعزته سبحانه، قائلاً: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.(١)

إنّ العداوة الّتي تمكّنت من نفس إبليس منذ أن استحق اللعنة الأبدية لاستكباره وامتناعه من السجود لآدم، والتي قادته إلى الثأر منه ومن ذرّيّته، إن هذه العداوة، لتدعو الإنسان إلى الحذر من وساوسه ونفثاته، والتحفّظ من الوقاع في شباكه وحبائله، وهو لا ينفكّ عن خداع الناس والكيد لهم لإفسادهم وإضلالهم.

أمّا الجاحدون العاصون فيُصغون إليه ويغترّون به، فيستحوذ على قلوبهم، وأمّا المؤمنون المعتصمون بالله اللاهجون بذكره، فهم منه بمنجاة: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.(٢)

والشيطان نفسه قد اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين، واضطرّ إلى أن يقول: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.(٣)

ثمّ إنّ سلطانه على الذين يتّبعونه ليس من باب الجبر والقهر، بأن يأخذ بزمام حياتهم بيده، ويُلقيهم في المهاوي والمهالك، وإنّما يتجلّى سلطانه بالإغراء والخداع، وتزويق الباطل وزخرفته، أو ما يعبّر عنه القرآن بالتزيين والهمز والوسوسة في الصدور: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾(٤)، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾(٥)، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.(٦)

---

١. ص:٨٢.
٢. النحل:٩٩ـ١٠٠.
٣. الحجر:٣٩ـ٤٠.
٤. الحجر:٣٩.
٥. المؤمنون:٩٧.
٦. الأعراف:٢٠.

وقائع لا مثاليات

إنّ المتقين ـ هم ـ الذين يـؤمنون بـالغيب ويتلقّون ما يـذكره القـرآن حول خلقة آدم وتعليمـه الأسماء وسجود الملائكـة وتمرد إبليس عن السجود وإخـراجه عن حظيرة القدس، يتلقّـون ذلك كحقائق وواقعيـات دون أن يتسرّب الريب إلى قلوبهم في جانب من هذه القصص.

وأمّا الذين انبهروا بالعلوم المادية واغتروا بأدواتها فحاولوا أن يصبوا المسائل الغيبية الخارجـة عن إطار التجربـة والمشاهدة في قـوالب ماديـة، وحاولوا عنـدما وقفوا أمام هذه الآيات الّتي تذكر حقائق غيبية لا مجال لمعرفتها بالحسّ والتجربة، ـ حاولـوا ـ أن يأوّلوا بأُمور خياليـة ومثالية، مدّعين أنّ ما يذكـره القرآن الكريم في هذا الصدد قد وقع في عالم الخيال الّذي هـو أشبه بالمنامات. أو أنّها كنايات عن النـزاع بين جنود العقل وجنـود الجهل، أو قوى الخير وقـوى الشرّ، وهم بصُنعهم هذا يحسبون ــ واهمين ـ أنّهم قد نجحوا في التوفيق بين التصديق بما يـذكره القرآن الكريم وبين ما تفرضه التجربة والعلوم المادية.

وممّا لا شك فيـه أنّ هؤلاء وإن كانـوا من المسلمين لكن انبهارهم بـالعلوم التجــريبيــة وبما حقّقتــه من تقــدّم في حقل المادة، قــد هيمن على أفكــارهم ومشاعرهم، فجعلتهم لا يطمئنون إلاّ إلى ما أثبتـه العلم، وصدّقته التجربة، وكأنّ الخط وآخره هو ما تسطّره هذه العلوم، فليس وراءها حقيقة، كما ليس وراء عبادان قرية.

ولكن الإنسان القوي الإيمان بالغيب والوحي، والّـذي ملأ نور القرآن قلبه وفكره يؤمن بالغيب كلّـه دون أن يُخضعه لآراء الآخرين وتجاربهم، ومن هنا يصف

الله سبحانه في كتابه المجيد بأنّه هدى للمتقين ويصف هؤلاء المتقين بأنّهم يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.[١]

٥

سُكنى آدم وزوجته الجنة

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِمينَ﴾.[٢]

تدلّ الآية الشريفة على أنّه سبحانه أمر آدم بسكنى الجنة، والأكل من ثمرات أشجارها حيثما شاءا، ولكن نهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة، لئلا يكونا من الظالمين.

وفي الوقت نفسه حذّره من الشيطان ومن الانصياع إلى تغريره، قال تعالى:﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.[٣]

لكن الشيطان تقرب منهما بهيئة الناصح الراجي لهما الخير، زاعماً انّ الإنسان غبّ الأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً ويكتب له الخلد في الجنة، وانّهما نُهيا عن تلك الشجرة لئلاّ يبلغا هذا المقام الكريم، يقول سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُما

---

١. لاحظ البقرة:٣.

٢. البقرة:٣٥.

٣. طه:١١٧.

الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.[1]

ولم يكتف اللعين بهذا المقدار من التغرير والفرية على الله سبحانه بل حلف أنّه لهما ناصح، كما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.[2]

هذا ما يقف عليه القارئ من التدبر في هذه الآيات.

وهنا نكات يجب التنبيه عليها:

١. مكان آدم قبل سكناه الجنة

لا شكّ أنّه سبحانه أمر آدم بسكنى الجنة، عقب سجود الملائكة له، و إباء إبليس عن ذلك وعندئذٍ يطرح السؤال التالي نفسه: أين كان مثوى آدم قبل أن يؤمر بالسكن في الجنة؟

والجواب: أنّه سبحانه خلقه في الجنة وأمر الملائكة بالسجود له غير أنّ بقاءه فيها لم يكن قطعياً، فعندما تمت حادثة السجود، أمره سبحانه بسكنى الجنة، و التنعّم بكل ما فيها، إلاّ شجرة واحدة نهاه سبحانه عنها. ويؤيد هذه النظرية أنّه سبحانه يقول: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ دون أن يقول: ادخل.

وهناك نظرية أُخرى ترى أنّه خلق في غير الجنة وجرى عليه ما جرى، إذ لو كان أصله وخلقته في الجنة لعاد الأمر بالسكن فيها أمراً زائداً.[3]

---

١. الأعراف: ٢٠.

٢. الأعراف: ٢١.

٣. تفسير الفرقان: ١/ ٣١٣.

يلاحظ عليه: بأنّ آدم وإن خُلق في الجنة، ولكن استقراره فيها لم يكن أمراً حتمياً، فلما انقضى تكريمه وإجلاله بسجود الملائكة له وتقريع عدوه، أمّنه سبحانه وفضّله باتخاذ الجنة سكناً.

٢. ما هي الجنة الّتي سكن فيها آدم؟

هل الجنة الّتي سكن فيها آدم وزوجته هي جنة المأوى أو جنة من جنان الدنيا؟ وهل كانت من جنات الأرض أو من جنات السماء؟ فيه قولان:

المنقول عن الجمهور أنّها جنة المأوى أخذاً بظواهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾[١] . واستقربه ابن كثير في «البداية والنهاية» وقال مستدلاً بحديث مسلم عن أبي هريرة: يجمع الله الناس ويقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلاّ خطيئة أبيكم آدم؟ فقال ابن كثير بعد نقل هذا الحديث: وفي هذا قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنّها جنة المأوى.[٢]

ولكن هذا القول بعيد، لأنّ أوصاف جنة المأوى المذكورة في القرآن الكريم لا تنطبق على الجنّة الّتي سكن فيها آدم، فمن صفاتها الخلود لمن دخلها يقول سبحانه: ﴿**لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾.[٣]

وقال: ﴿**لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ**﴾.[٤]

---

١. البقرة:٣٥.

٢. البداية والنهاية:١/ ٦٩.

٣. الحجر:٤٨.

٤. التوبة:٢١.

فلو كان آدم من سكّانها، لما أُخرج منها أبداً.

وأمّا الرواية الّتي ذكرها مسلم عن أبي هريرة فإنّها أشبه بالاسرائيليات، لأنّ ظاهر الآيات هو أنّ المؤمنين إذا اقتربوا من الجنة وجدوها مفتوحة أبوابها، لا مقفلة حتّى يتوسّلوا بآدم لفتحها؛ يقول سبحانه: **﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوابُ﴾**[1]، **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾**.[2]

فالواو في قوله: **﴿وَفُتِحَتْ﴾** للحال،[3] ومعنى الآية أنّهم يصلون إلى الجنة في حال كونها مفتوحة. فالاعتماد على الرواية في تعيين الجنة الّتي سكنها آدم، غير صحيح.

ويؤيده ما روي عن الإمام الصادقعليه السلام حيث سئل عن جنة آدم؟ فقال: «من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الآخرة ما خرج منها أبداً».[4]

وأمّا أنّها هل كانت في الأرض أو في مكان آخر؟

الظاهر هو الثاني، لأنّ الصفات الّتي يذكرها القرآن للجنة التي سكن فيها آدم لا تنطبق على جنات الأرض حيث يصفها سبحانه عند خطابه لآدم بقوله: **﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾**.[5]

وفي آية أُخرى يصف الجنة الّتي سكن فيها آدم بخلوّها من الشقاء والعناء

---

١. ص:٥٠.

٢. الزمر:٧٣.

٣. تفسير الجلالين:٤٦٦.

٤. البرهان:١/ ٨٠.

٥. طه:١١٨ـ١١٩.

فيها، يقول سبحانه: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوجِكَ فَلاَ يُخرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقىٰ**﴾ .[١]

وكلّ ذلك لا ينطبق على جنات الأرض.

ويـؤيد أنّها لم تكن في الأرض، أنّـه سبحـانه خـاطب آدم و زوجتـه ـ بعـد مخالفتهما أمره ـ بقـوله: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلىٰ حِينٍ**﴾[٢]. بناء على أنّ الإهباط كان مكانيّاً لا معنويّاً.

وحصيلة الكلام: أنّـه سبحانه أسكن آدم وزوجه في جنة من جنـان الدنيا، في مكان غير الأرض، كـانت دار سعادة وهنـاء ونعيم، لا جوع فيهـا ولا عُريَ ولا ظمأ، فمكثا فيهـا إلى أن أغراهما الشيطـان بالعصيـان، فأُخـرجا منهـا وأُهبطا إلى الأرض. هذا ما يظهر من الآيات، وبذلك يعلم سر قوله سبحانه ﴿**إِنّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خَليفَةً**﴾ ،فـالغايـة من خلق آدم هي جعلـه خليفة في الأرض لا في جنـة المأوى ولا في جنة أُخـرى من جنان الدنيـا، ولكن اقتضت حكمته تعـالى أن يمرّ بحوادث ويتعرّض لابتلاء قبل أن يهبط إلى مقرّ خلافته.

وهنا يُثار هذا التساؤل لماذا لم يخلقه الله تعـالى في الأرض منذ بداية الأمر إذا كـان مآلـه إليهـا؟ ولعل الجواب يكمن في السر الّـذي اكتنف خلقته في الجنـة إذ ثبتت خـلافته، وتجلّت مكـانتـه العظيمة بسجـود الملائكـة له، كما انتفع خـلال مسيرته بتجربة هامة أتاحت له معـرفة عدوّه الّذي لم يفتأ يغريه ويغري ذريته من بعده بركوب الشرّ ونبذ الخير، وذاق مرارة المحنة، وعرف سبيل تجاوزها بالرجوع إلى ربّه تـائباً مستغفـراً، إلى غير ذلك من الأسرار الّتي تعلمها أبـونا آدمعليه السلام في تلك المسيرة الطويلة.

---

١. طه:١١٧.

٢. البقرة:٣٦.

٣. ماهية الشجرة المحرّمة

اختلفت كلمات المفسرين في ماهية الشجرة الّتي نهي آدم وزوجته عن أكل ثمرتها إلى أقوال ربما تناهز ١٦ قولاً. غير أنّ تعيين واحد منها يحتاج إلى دليل قاطع. ولكن القدر المتيقن أنّ الشجرة المنهي عنها لم تكن شجرة المعرفة... كما عليه التوراة إذ جاء فيها: «وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً من جميع أشجار الجنة تأكل وأمّا شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فإنّك يوم تأكل منها تموت موتاً».[1] وذلك أنّه تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلّها، وقد مرّ أنّ المراد ليس تعليم ألفاظها بل الأسرار المكنونة في الأشياء والمسمّيات بما فيها هذه المعرفة الّتي ذكرت في التوراة.

نعم ورد في بعض الروايات أنّها كانت «شجرة العنب» أو «التمر» أو «الليمون» أو «سنابل القمح». ولكن ما ذكر هو أشجار مباركة، فكيف يكون أكل ثمرتها مورثاً للشقاء الّذي أصاب آدم وزوجته؟! واللازم أن نقول: «الله العالم».

٤. كيف غرّ إبليس آدم؟

قد مرّ في الآيات السابقة أنّ الشيطان بعد أن طُرد من الجنة أخذ يكنُّ العداء لآدم وحواء ويسعى لإخراجهما من الجنة. وقد حذّرهما سبحانه وتعالى منه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.[2]

وقد اكتشف الشيطان الثغرة الّتي تيسّر له الدخول منها إلى نفس آدم وهي

١. التوراة، سفر التكوين ـ الإصحاح الثاني، الآية ١٦ـ١٧.

٢. طه:١١٧.

حبُّه الخلود بالجنة، فجعل ذلك ذريعة لإغوائهما.

فدخل من تلك الثغرة وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[1]، فصار هذا سبباً لإصغاء آدم لكلام الشيطان، ولم يكتف بذلك بل عزز ذلك بكلام آخر وقال:﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.[2]

وبما أنّ هذا الكلام كان يهز مشاعر آدم وزوجته وأنّه كيف نهاهما ربهما عن أكل هذه الشجرة لتلك الغايتين الكريمتين، عاد الشيطان لرفع حيرته بالحلف على أنّه من الناصحين، كما حكى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.[3]

وعلى ضوء ذلك فقد غرّ الشيطان آدم بأمرين:

١. تذكيره بأن الأكل من الشجرة يورث الملك الخالد والسكنى في الجنة.

٢. حلفه و إظهار كلامه بلهجة الناصح الأمين.

وربما يشير الله سبحانه إلى هذه الكيفية بقوله: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾[4] ففي تلك الأجواء اغترا بكلامه ونصحه وحلفه، ونسي آدم ما عهد الله سبحانه إليه حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.[5]

وأمّا العهد الوارد في هذه الآية فهو عهد يختص بهما كما أشار إليه بقوله سبحانه:﴿إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.[6]

وأمّا العهد العام لعامة أبنائه، الوارد في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ

---

١. طه:١٢٠.
٢. الأعراف:٢٠.
٣. الأعراف:٢١.
٤. الأعراف:٢٢.
٥. طه:١١٥.
٦. طه:١١٧.

لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[١] فهو راجع إلى أولاده لا إلى نفسه.

ويُستفاد ممّا تقدّم: أنّ العدو ربما يظهر بلباس الصداقة فيغرّ الإنسان من الطرق الّتي تهوى إليها النفس وتميل، وعندئذٍ يبدو المُخادع وكأنّه ناصح مشفق خصوصاً إذا كان حلو الكلام مازجاً كلامه بالحلف والقسم وهنا مكمن الخطر، وهنا «مزلقة أقدام الإنسان» الّتي لا نجاة منها إلاّ بالتوكل على الله في أن يحفظه من ريب الزمان وأهله، ورحم الله الشاعر الفحل أبو فراس الحمداني الّذي يقول:

بمن يثقُ الإنسان فيما ينوبُهُ ... ومن أين للحر الكريم صَحابُ؟

وقد صار هذا الناس إلاّ أقلّهم ... ذئاباً على أجسادهنّ ثيابُ

هذا هو ما يقصه علينا القرآن الكريم من إغراء الشيطان لآدم بعيداً عن كلّ اسطورة، وأمّا ما ورد في التوراة فشيء عجيب لا تطمئن إليه النفس، إذ جاء فيها: وكانت الحية أحيل جميع حيوانات الحقول الّتي صنعها الربّ الإله. فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله: لا تأكلا من جميع أشجار الجنة».

فقالت المرأة للحية: من ثمر أشجار الجنة نأكل، وأمّا ثمر الشجرة الّتي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منها ولا تمساه كيلا تموتا».

فقالت الحية للمرأة: «موتاً لا تموتان، فالله عالم أنّكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة تعرفان الخير والشر».[٢]

فأنت إذا قارنت بين نصوص القرآن الكريم وبين ما جاء في التوراة حول هذا الموضوع، لوقفت على سرّ قوله سبحانه: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً**

---

١. يس: ٦٠.

٢. التوراة سفر التكوين: ٣/ ١ـ١٦.

لِمَا بَيْنَ يَـدَيْهِ مِنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْـهِ﴾.[١] أي رقيباً على سائر الكتب يشهد بصحتها ويصونها من التبديل.

٦

مخالفة آدم نصيحة ربه

﴿فَقُلْنَـا يَـا آدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَـكَ وَلِزَوْجِكَ فَـلاَ يُخْـرِجَنَّكُمَـا مِنَ الْجَنَّـةِ فَتَشْقَىٰ* إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُـوعَ فِيهَـا وَلاَ تَعْـرىٰ* وَأَنَّكَ لاٰ تَظْمَـؤُا فِيهَـا وَلاَ تَضْحَىٰ* فَوَسْـوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قَـالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَـرةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاٰ يَبْلَىٰ* فَأَكَلا مِنْهـا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُما وَطَفِقَا يَخْصِفـانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.[٢]

***

يدل قوله:﴿فَأَكَلاَ مِنْها﴾ وقوله: ﴿وَعَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ على أنّهما خالفا أمر ربّهما وعصياه وتسأل: كيف عصى آدم ربّه وهو نبي معصوم؟ هذا التساؤل شغل بال المفسرين عبر قرون، وقد ذكروا في جوابه وجوهاً عديدة أودعوها في تفاسيرهم.

وقبل الشروع في الإجابة، ودراسة الآيات الواردة في الموضوع وتفسير بعضها ببعض نشير إلى تقسيم الأُصوليين الأوامرَ والنواهيَ على قسمين:

أ. أمر أو نهي مولوي.

---

١. المائدة:٤٨.

٢. طه:١١٧ـ١٢١.

ب. أمر أو نهي إرشادي.

أمّا الأوّل: فإنّ للمولى حقّ الأمر والنهي والبعث والزجر، فإذا أمر عبده بشيء أو زجره عن شيء، فبما انّ له الولاية وله حق البعث والزجر وحق الطاعة ولم تكن هناك قرينة على كونهما على وجه الندب أو الكراهة، تعدّ مخالفته عصياناً يستوجب العقوبة، لأنّ العقل يحكم بوجوب إطاعة العبد لمولاه في هذه الحالة ويسوّغ عقوبته إذا خالف، وهذا ما يسمّى بالأمر أو النهي المولويين.

وأمّا الثاني: فهو ما إذا أمر ونهى وهو في مقام الإرشاد والعظة، وبصدد هداية العبد إلى ما فيه سعادته وإبعاده عمّا فيه شقاؤه، فلو خالف أمره أو نهيه، لا يترتب على مخالفتهما أيّ عقاب، سوى فوت المصلحة أو الوقوع في المفسدة، فأمر المولى أو نهيه في هذا المقام أشبه بأوامر الطبيب والمعلّم والمصلح الاجتماعي، فالطبيب حينما يأمر المريض بشيء أو ينهاه عن شيء، إنّما يتوخّىٰ بذلك تأمين سلامته وحفظ صحته، فإذا نهاه مثلاً عن التدخين، ولم ينته المريض، فإنّه لا يترتّب على مخالفته هذه سوى ما يترتّب على التدخين نفسه من أضرار.

إذا عرفت ذلك: فلنرجع إلى الآيات الواردة في نهي آدم عن الشجرة هل كان النهي عنها نهياً مولوياً أو كان إرشادياً؟ وبعبارة أوضح: هل صدر النهي عنه بما أنّه سلطان مقتدر، أو صدر عنه على سبيل النصيحة والهداية الموصلة إلى السعادة الّتي لا شقاء بعدها ولا عناء؟

وبديهي أن مخالفة الأوّل تستوجب العقاب، لأنّ المولى هنا في مقام الآمر الّذي تجب طاعته.

أمّا مخالفة الثاني، فلا ترتب عليها (أي ذات المخالفة) أية آثار، وإنّما تترتب عليها آثار العمل (المنهيّ عنه) نفسه، لأنّ المولى هنا في مقام الهادي المرشد.

والقرائن في الآيات تشهد على أنّ النهي كان من القسم الثاني، وإليك البيان:

إنّه تبارك وتعالى يعرّف عدوهما ويهيب بهما بقوله: ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرىٰ * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ﴾.[١]

فالآيات تشير إلى أنّ نتيجة الانتهاء عن الشجرة، هي عدم الشقاء، ثمّ يفسر عدم شقائهما بعدم الجوع والعري والظمأ والإضحاء.

فإذا كانت هذه ثمرة الانتهاء، فإن ثمرة المخالفة (أي الأكل من الشجرة هذه) ستكون هو الشقاء ويفسر ذلك بضد ما فسر به عدم الشقاء، أي بالجوع والعري والظمأ والإضحاء.

فهذه الآيات تعبّر عن أنّ المتكلّم لم يكن يأمر وينهى بما أنّ له سلطان الأمر والنهي وأنّه مولى والمخاطب عبد، وإنّما كان يخاطب الطرف الآخر المُرشَد، ويذكّره بآثار كلّ من الحالين: الاجتناب عن الشجرة والاقتراب منها. ومن هنا لا تُعدّ مخالفة هذا النهي عصياناً وتمرّداً على المولى وجرأة عليه حتّى يستحق العقوبة، وانّما هي بمثابة من خالف نصح الناصح المشفق، فيرى جزاء عمله وثمرة فعله، فلا يلوم إلاّ نفسه.

وعلى ضوء ذلك فلا تعد النواهي الواردة في كلامه سبحانه في قصة آدم إلاّ إرشادات إلى ما في نفس الأكل من آثار مرّة، وإليك تلك النواهي:

١. ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.[٢]

---

١. طه:١١٧ـ١١٩.

٢. البقرة:٣٥.

٢. ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.[١]

٣. ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.[٢]

والّذي يؤيد أيضاً كون النهي إرشادياً قول إبليس عند إغراء آدم: ﴿إِنّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحينَ﴾.[٣]

فبالتقابل يفهم أنّ الشيطان لما سمع خطاب الربّ لآدم، الدالّ على النصح والهداية والإرشاد، صاغ كلامه على غرار كلامه تعالى من أجل إغراء آدم بالأكل من الشجرة، فأظهر له أنّه ناصح مشفق.

ألفاظ ستة يجب إيضاحها

قد تبيّن ممّا قدمنا أنّ حقيقة النهي بصوره المختلفة كانت إرشادية لا مولوية، ولكن وردت في القصة ألفاظ ربما توهم أنّ آدم خالف وتمرّد على ربه، وإليك هذه الكلمات:

أ. **الظلم** في قوله: ﴿وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا﴾.[٥]

ب. **عَصَى وغَوَى** في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.[٦]

ج. **الزلل** في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.[٧]

---

١. الأعراف:٢٢.
٢. طه:١١٧.
٣. الأعراف:٢١.
٤. البقرة:٣٥.
٥. الأعراف:٢٣.
٦. طه:١٢١.
٧. البقرة:٣٦.

د. **الغفران في قوله:** ﴿**وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.[١]

هـ. **التوبة في قوله:** ﴿**فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾.[٢]

فيلزم دراسة هذه الألفاظ والجمل ليعلم أنّ أبانا آدم لم يتجرّأ على الله ولم يخالف ربّه خلافاً لا يناسب مقام النبوة. وإليك دراستها.

١. الظلم

الظلم في اللغة تجاوز الحد، كما في اللسان.

قال الراغب: الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إمّا بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته ومكانه.[٣]

ومن المعلوم أنّ تجاوز الحدّ أو وضع الشيء في غير موضعه كما يصدق في مورد النواهي المولوية يصدق في مورد النواهي الإرشادية، فإنّ من خالف نصح الناصح وترك أمره فقد وضع الشيء في غير موضعه أو تجاوز الحدّ.

٢. العصيان

العصيان في مصطلح المتشرّعة هو ارتكاب الذنب والمخالفة للإرادة القطعية الملزِمة، وفي اللغة هو مجرد المخالفة، قال ابن منظور: العصيان خلاف الطاعة، والعاصي: الفصيل إذا لم يتبع أُمه.

ولا شكّ أنّ آدم لم ينته عمّا نهاه عنه ربُّه، ولكن مخالفته كانت لنهي إرشادي،

---

١. الأعراف:٢٣.

٢. طه:١٢٢.

٣. مفردات الراغب:٣١٥، مادة «ظلم».

ولـذا لا تعدّ عصيـاناً بـا لمعنى الاصطلاحي، بل عصيـاناً بـا لمعنى اللغوي الّـذي ينطبق على المخالفة للأوامر المولوية، وللخطابات الإرشادية أيضاً.

٣. الغواية

الغيّ: الضلال، والغيّ : الخيبـة، يقال: غوى الرجل خـاب، وأغواه غيرُه، والغيّ: الفساد، وبه فُسّر قوله سبحانه: ﴿**وَعَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ**﴾ أي فسد عليه عيشه.[١]

وكلّ من المعنييْن المذكـورين (الخيبة ، والفساد) يصلحان لتفسيـر الآية به ، فأمّـا فساد عيش آدم فواضـح ، إذ أهبطه الله إلى دار «لا تدوم خيـرتُها ، ولا تُؤمَن فَجْعَتُها ... عَيْشُها رَنِق ، وعذبُها أُجاج ، وحلوُها صَبِر» .[٢]

وأمّا الخيبـة، فبحرمـانه من بلوغ أُمنيّتـه في أن يحيا خالـداً في ظلال الـراحة وغضارة النعيم.

وإذا افترض أنّ المراد بـالغيّ هنا: الضـلال الذي هـو في مقـابل الرُّشـد، فليُعلم أنّـه لا مـلازمة بين الضـلال والمعصيـة (الّتي هي بمعنى اقتراف الـذنب والجرم)، فقد يضلّ الإنسان عن مقاصده الـدنيوية ومصالحه الشخصية، وحينئذٍ يصدق إطـلاق لفظ (غوىٰ) عليه مقـابل (رَشَد)، ولكن ذلك لا يـلازم المعصية المصطلحة.

وثمة وجه آخر للإجابة، وهو أنّ المخلصين (وفي طليعتهم الأنبياء) منزّهون عن إغـواء الشيطـان الّذي صرّح بقـولـه: ﴿**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْـوِيَنَّهُمْ**

١. انظر لسان العرب:١٥/ ١٤٠.

٢. نهج البلاغة:١٦٤، الخطبة ١١١.

أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا يعني أنّ الشيطان أغوىٰ آدم قبل النبوة الّتي اجتباه الله لها بعد توبته، ويدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[١] .والظاهر أنّ ملاك الاجتباء هو جعله نبياً ومن المخلصين.

وهنا وجه ثالث: انّ مصطلح الطاعة والعصيان انّما يتصوّران في دار التكليف، ولم تكن الجنة الّتي سكنها أبونا آدم دار التكليف حتّى يكون عمله موجباً للعصيان حتى يصبح مخالفاً للعصمة.

٤. الزلل

الزلة في الأصل استرسال الرِّجلِ من غير قصد، يقال: زلّت رجله تزل، والزلة المكان الزلق، وقيل للذنب من غير قصد زلة تشبيهاً بزلة الرجل.[٢]

فالمادة تدلّ على أنّ مخالفته كانت من غير قصد وإنّما جرّه الشيطان إليها حتّى زلّ.

٥. الغفران

الغفران في اللغة بمعنى الستر والتغطية، فيقال لبيضة الحديد: المِغْفَر والمِغْفَرة.

وطلب المغفرة إنّما صدر من آدم باعتبار أنّه أفضل الخليقة وكان المرجو منه الانصياع لأمر الله وإرشاده، ولكنّه ارتكب ما لا يليق به، فاستعظم ذلك، ودعا الله تعالى أن يستره عليه.

---

١. طه:١٢٢.

٢. مفردات الراغب:٢١٤.

ويتضح المعنى أكثر إذا علمنا أنّ للمسؤولية درجات ترتبط بدرجات المعرفة، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: يا حفص يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنب واحد.[١]

وقد اشتهر في كلمات العلماء قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.[٢]

٦. كيفية التوبة

يدلّ بعض الآيات على أنّه سبحانه قبل توبة آدم وذلك في ضمن آيتين:

١. **﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**.[٣]

٢. **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾**.[٤]

والضمير المستتر في «تاب» في كلا الموردين يرجع إلى الله والمعنى رجع الله إليه بالرحمة والمغفرة، نظير قوله: **﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصارِ﴾**[٥]، فرجوعه سبحانه إلى آدم بعد تلقّي الكلمات دليل على توبة آدم وندامته عمّا فعل، إنّما الكلام فيما هو المراد من تلك الكلمات الّتي صارت سبباً لقبول توبته ورجوع الله إليه بالرحمة.

ربما يتصوّر أنّ المراد من الكلمات هو ما ورد في سورة الأعراف: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**.[٦]

---

١. الكافي:١/ ٤٧.

٢. الكافي:٢/ ٤٣٨(باب استغفار النبي والأئمة عليهم السلام).

٣. البقرة:٣٧.

٤. طه:١٢٢.

٥. التوبة:١١٧.

٦. الأعراف:٢٣.

ولكنّ الظاهر من قوله: ﴿**فَتَلَقَّى...**﴾ أنّه سبحانه قَبِلَ توبتهما بعد التوسّل بهذه الكلمات. فلو كان المراد من الكلمات هو قولهما: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا**﴾ كان المناسب الإخبار بقبول توبتهما بعد قوله: ﴿**ربَّنَا ظَلَمْنَا...**﴾ مع أنّنا نرى أنّه سبحانه يأمرهما بعده بالهبوط ويقول: ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾.[١]

وهذا يؤيد أنّ الكلمات المتلقّاة غير هذه الآية ومضمونها، وقد ذكرت الروايات الشريفة أنّ الكلمات الّتي تلقّاها آدم هي توسّله بالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

روى السيوطي بأنّه أقسم على الله سبحانه وقال: أسألك بحق محمّد إلاّ غفرت لي.

وفي رواية أُخرى: اللهم إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمد سبحانك لا إله إلاّ أنت عملت سوءاً و ظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنت التواب الرحيم.

وروى ابن النجار عن ابن عباس أنّه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الكلمات فقال: سأله بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليّ فتاب عليه.[٢]

بقي الكلام في اجتباء آدم عليه السلام في بعض الآيات.

اجتباء آدم

يدلّ قوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**﴾[٣] انّه سبحانه،

---

١. الأعراف:٢٤.

٢. الدر المنثور:١/ ٥٨ـ٦١؛ تفسير البرهان:١/ ٨٦، الحديث ٢.

٣. طه:١٢٢.

اختاره بعد توبته وندامته عمّا فعل، ويدلّ قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[١] انّه تعالى قد اصطفاه.

فيقع الكلام فيما هو الملاك للاجتباء في الآية الأُولى، والاصطفاء في الآية الثانية، فهل كانا بملاك واحد، أو بملاكين؟ الظاهر هو الثاني.

أمّا الأوّل فالمراد به هو اجتباؤه بالنبوة بعدما تاب. وامّا اصطفاؤه ومن عطف عليه من نوح وآل إبراهيم وآل عمران، فلكلّ ملاك أيضاً غير النبوة.

أمّا آدم فيكفي أنّه سبحانه جعله خليفة في الأرض وعلّمه الأسماء وجعله مسجوداً للملائكة ومعلّماً لهم، وهذا اصطفاء بلا شك.

أمّا نوح فقد اصطفاه سبحانه حيث صار أباً ثانياً للمجتمع البشري كما هو الحال في آدمعليه السلام. واحتمل أن يكون ملاك الاصطفاء فيه كونه أوّل نبي يبعث ومعه شريعة ،قال سبحانه: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً**﴾ .[٢]

أمّا اصطفاء آل إبراهيم فلأنّ الله جعل إبراهيم قدوة لمن جاء بعده من الأنبياء، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[٣]

وإبراهيمعليه السلام هو أبو الأنبياء جميعاً بعد نوح، إذ لا نبي بعده إلّا من ذرّيته.

إلى غير ذلك من المواصفات الّتي اختص بها إبراهيمعليه السلام، يقول سبحانه:﴿**مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾.[٤]

---

١. آل عمران:٣٣.
٢. الشورى:١٣.
٣. آل عمران:٦٨.
٤. الحج:٧٨.

وامّا آل عمران ففيهم مريم والمسيح عليهما السلام وقد اختصّا بأُمور ذكر تفصيلها سبحانه في سورة آل عمران بعد هذه الآية.

فظهر بذلك أنّ اجتباء آدم غير اصطفائه، فالاجتباء كان بالنبوة، واصطفاؤه وغيره كان بما ذكرنا من الملاكات.

٧

هبوط آدم إلى الأرض

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلَى حِينٍ * فتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[١]

يذكر سبحانه أنّه بعد ما جرى على آدم ما جرى، أمره بالهبوط إلى الأرض، لكنّه يذكر في هذه الآيات الثلاث هبوطين:

الأوّل: هبوطه بعد الزلّة وقبل التوبة كما في الآية الأُولى.

الثاني: هبوطه بعد التوبة كما في الآية الثالثة.

وعندئذٍ يقع الكلام في وحدة الهبوطين أو تعدّدهما، ولكنّه سبحانه لا يذكر في سورة الأعراف إلاّ هبوطاً واحداً: **﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾**.[٢]

---

١. البقرة:٣٦ـ٣٨.

٢. الأعراف:٢٤.

والظاهـر وحدة الهبـوطين، غير أنّ الهبوط الأوّل ذكره سبحـانه بها أنّـه جزء للقصة ومتمّم لها، وأمّا الثاني فقد ذكـر بصورة الاستنتاج من سردها أي ترتّب على ما فعله آدم.

خلاصة قصة آدم عليه السلام

اقتضت حكمة الله تعـالى أن يجعل خليفة في هـذه الأرض، وأخبر الملائكة بهذا الأمر، فـاستعظموا أن يجعل فيها من يُفسـد ويسفك الدمـاء، وهـم يسبّحون بحمده، ويلهجون بتقـديسه وتمجيده، (لم تجف بطول المنـاجاة أسلات ألسنتهـم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجُؤار إليه أصواتهم).[١]

ثمّ خلق آدم من تراب، وأجـرى فيه من روحه، وعلّمه الأسماء كلّهـا، وأمره أن ينبئ بها الملائكة الّذين أقرّوا من قبلُ بعجزهم عن علمها، قائلين: ﴿**سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾، فلمّا أنبأهم بها، أدركوا حكمته تعالى في استخلافه.

لقـد أصبح بمستطـاع الإنسان بما أُودع فيـه من مـواهب وقـوى أن يحاكي مستخلَفه في كمالاته وصفاته، وأن يكون قادراً على بناء الحياة وعمارة الأرض وإبراز مكنـوناتها، ومعـرفة أسرار الكـون وعجائب الخلق وغيرهـا من بدائع الآثـار الّتي تكشف عن عظمة الخالق سبحانه، وتدلّ على إحكام تقديره، ولطف تدبيره.

ثمّ أمر سبحانـه ملائكته بالسجود لآدم، تشريفاً لهذا المخلـوق وتكريماً له، فأذعن جميعهم لأمره إلاّ إبليس(وَكَانَ مِنَ الجِنّ) لم يأتمر، متعزّزاً بأصله، ومستطيلاً

١. نهج البلاغة: ١٣٠(الخطبـة٩١، وتعرف بخطبة الأشباح). وأسلَة اللسـان: طرفه. والهمس: الخفي من الصوت، والجؤار: رفع الصوت بالتضرّع.

بخلقه من النار، فحلّ عليه اللعنُ الأبدي، و الشقاء السرمدي.

ثم أسكن سبحانه آدم وزوجه جنةً، ينعمان فيها برغيد العيش آمنَين مطمئنيْن، يأكلان من حيث شاءا، ونهاهما ربّهما عن شجرة معينة، وحذّرهما إبليس ومكره وعداوته. فاستبدّ الحقد بالشقيّ اللعين، وسعىٰ محتالاً لتوريطهما بمخالفة أمر العزيز الجبار، فخاطبهما بلهجة المحبّ المشفق الّذي يرجو لهما الخير، وأقسم دون خوف أو وَجَل من ربّه أنّه لهما من الناصحين، وهو العدو الخبيث السريرة، الظامئ للانتقام، فوثقا بمعسول كلامه، واغترّا بأمانيّه ومواعيده، فوهن عزمهما، وقارفا المعصية.[١]

ثمّ ندما على ما فرط منهما في جنب الله، فاستجارا بعفوه وصفحه، ولاذا بكرمه ورحمته، ولن يُخيّب الله من دعاه بقلب طاهر نقيّ، ولكنّه سبحانه قضى بإهباطهما إلى الأرض.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، هي (كما في النصوص المأثورة) التوسل بالنبي الأكرم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فمنّ الله عليه بالتوبة، وتفضّل عليه بالرضوان والمغفرة.

لقد أُهبط آدم إلى الأرض، تحقيقاً للوعد الإلهي﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ونأىٰ عن جنّته المفعمة بالخير والنعيم، والمترعة بالصفاء والهناء، ليواجه هو وذريته حياة مليئة بالمشقّات والمصاعب، وليبقىٰ الصراع متأجّجاً بين ناهجي سبيل الحق، وسالكي طريق الباطل من شياطين الجنّ والإنس إلى أن يرث الله

١. أوضحنا فيما سبق معنى المعصية وغيرها من الألفاظ الّتي وصف بها آدم في القرآن المجيد، وبيّنا حقيقة النهي الموجّه إليه بما يبرّئ ساحة آدمعليه السلام عن ارتكاب المخالفة للأوامر المولوية، واقتراف المعصية بالمعنى المصطلح عليه بين المتشرّعة.

الأرض ومن عليها، وعندئذٍ يفوز المُحقّون ، ويخسر الضالّون المُبطلون.

دروس وعِبر

في قصة آدم توجيهات وحقائق ساطعة وسنن إلهية، تُثري الفرد والمجتمع بالدروس والعبر، وتترك آثارها الإيجابية والكبيرة على حياتهما إذا ارتئيا الانتفاع بها، و الاستهداء بضوئها. و إليك جانباً منها:

١ . أنّ الإنسان وليد التراب، فليس له أن يتكبر أو يتعالىٰ على غيره، وهو لا يملك حولاً ولا قوة إلاّ بعون الله، الّذي كرّمه وشرّفه بما وهبه من قوى واستعدادات، وبما فتح عليه من أبواب العلم، وما أسبغ عليه من النعم، الّتي تستوجب الشكر والطاعة والانقياد. (فالله الله في كبر الحميّة وفخر الجاهلية، فإنّه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان).[١]

٢. إنّ الإنسان وإن خُلق من تراب إلاّ أنّه في ظل النهج الإلهي مكرّم محترم الجانب، قد أسجد له ملائكته على مكانتهم الرفيعة، وسخر له مختلف القوى لاستثمارها في تنمية حياته وترقيتها. فأية كرامة أسمىٰ من هذه الكرامة الّتي تمنحه الثقة بنفسه (بلا غرور) وتفجّر فيه الطاقات، وتُنيط به حمل الأمانة؟! وأين منها نظريات التطوّريين أمثال «لامارك» و «دارون»، الّتي تكرّس عقدة الحقارة والامتهان في نفس الإنسان؟!

٣. إنّ الحوار الّذي جرى بينه سبحانه وبين الملائكة بشأن جعل خليفة في الأرض، ينطوي على عدة دروس، منها:

أ. إنّ الاستبداد بالرأي ومحاولة فرضه على الآخرين، وعدم الانفتاح على

---

١. نهج البلاغة:٢٨٩، الخطبة ١٩٢(وتسمّى القاصعة).

الآراء أو الاعتراضـات، من الأُمور المرفـوضة في منطق القـرآن الكريم، فـالله جلّ شأنه على عظمته وسعـة قدرته وعلمه، قد أتاح للمـلائكة أن يحاوروا ويتساءلوا، ثمّ يقتنعوا بالفكرة عن دليل وبرهان.

ب. إنّ التساؤل عن غاية الخلق ومحاولة معـرفة أسراره، أمر مرغوب فيه، إذ يوحي تساؤل الملائكـة بأن التسبيح بحمد الله هو غاية الخلق وعلّتـه، ولم يدركوا ماوراء ذلك من أسرار.

ج. إنّ ترجيح المرجوح على الراجح أمـر قبيح، وقد اعتمد عليه الملائكة في كلامهم، الّذي يُشعر انّهم يـرون انّهم أفضل من الإنسان بدأبهم على التسبيح من دون شوب فساد خـلافاً للخليفة ففي خلقه لغاية التسبيح تـرجيح للمرجوح على الـراجح، ولكنّه سبحـانـه أعلمهم بأنّه يعلـم مالا يعلمـون، وأنّ خلق آدم ليس ترجيحاً للمرجوح على الراجح.

٤ . إنّ الله سبحانـه قد وَسِع كـلّ شيء علماً ولا يعزب عنه شيء، ومـن كان عنده نصيب من العلم فهو من الله سبحانه ومن خزائن علمه سبحانه.

٥ . انّ الشيطان هو العدو اللدود الّذي لا همّ له إلاّ إغواء الإنسان وإيقاعه في المعصية، فلنستعذ بالله من نزغاته ومكائده، وندعو(اللهم أخسأه عنّا بعبادتك، وأكبتهُ بـدؤوبنا في محبّتك، واجعل بيننـا وبينه ستراً لا يهتكـه...اللّهم وأيقظنا عن سِنَة الغفلة بالركون إليه، وأحسِن بتوفيقك عوننا عليه).[١]

٦ . انّ الكبر منشأ المعـاصي ومبدأهـا، وأنّ الشيطان لم يتمـرد إلاّ عن الكبر الّذي أحاط بوجوده.

---

١. من دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إذا ذكر الشيطان، الصحيفة السجادية.

٧. انّه سبحانه قد خلق آدم ووهبه ما شاء من النعم في الجنة، غير أنّ طمعه في شيء جزئي أمام النعم العظيمة صار سبباً لزوال هذه النعم.

٨. اليأس والقنوط في الحياة لا ينتجان إلاّ الخسران، والإنسان الكامل هو الّذي لا ييأس بل يرى أبواب التوبة مفتحة له إذا أناب إلى الله تعالى، ولم يصرّ على المعاصي.

٨

ولدا آدم ومصيرهما

تأجّج الصراع بين آدم وذرّيته و إبليس وذرّيته، وعادىٰ بنو آدم بعضهم بعضاً، منذ أن قضى الله تعالى بإهباط آدم وزوجه إلى هذه الأرض، قائلاً عزّ من قائل: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.[١]

وقد بدأ التنازع بين البشر في النسل الأوّل ــ أعني: بين ولديهما المسمّيْن بـ«هابيل» و «قابيل» ـ وقد جاءت قصة تخاصمهما(دون التصريح باسمهما) في الآيات التالية:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

١. البقرة:٣٦.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ* فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾.[١]

توحي كلمة ﴿بِالحَقِّ﴾ المتعلقة بقوله ﴿وَاتْلُ﴾ بأن ثمة أكاذيب نسجها الناس حول القصة، وأن ما يُتلى هنا هو الحقّ الّذي لا يشوبه باطل من كذب وتحريف.

والمقصود من ﴿آدَمَ﴾ في قوله:﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾ هو المعروف بهذا الاسم، أعني: أبا البشر، واحتمال أنّ المراد به رجل من بني إسرائيل غير صحيح، لأنّه سبحانه يحكي في تلك القصة عن جهل القاتل، بكيفية مواراة جسد أخيه، ولم يهتد إلى ذلك إلى أن رأى غراباً يحفر الأرض، وهذا لا يتناسب إلاّ مع بدء الخليقة.

إذا علمت ذلك فلنذكر إجمال القصة.

كان لآدم ولدان، سمّى المؤرخون والمفسرون من المسلمين أحدهما «قابيل» و الآخر «هابيل»، فلمّا بلغا مبلغاً من العمر، قدّم كلٌّ منهما قرباناً لله سبحانه، ولم يُشر سبحانه إلى نوع القربان، وقد جاء في بعض الروايات[٢] أنّ هابيل قرّب أسمن كبش كان عنده، في حين قرّب الآخر ضغثاً من سنبل (والله العالم) فتقبّل سبحانه

---

١. المائدة:٢٧ـ٣٢.

٢. راجع بحارالأنوار:١١/ ٢٣٠، تفسير القمي:١/ ١٦٥.

من هابيل، ولم يتقبّل من قابيل، ولم يذكر سبحانه كيفية التقبّل من أحدهما دون الآخر، ولكن ورد في بعض الأخبار عن الصحابة أنّ علامة القبول كانت ناراً تأتي فتأكل المتقبَّل(والله العالم)، فغضب قابيل، واشتعل قلبه حسداً، وتوعّد أخاه بالقتل، فأجابه هابيل بحكمة و إيمان راسخ، خلاصته إنّني لست ملوماً في ذلك، لأنّ قبول الصدقة بيد الله تعالى، وهو مرهون بالتقوى والإخلاص.

ثمّ حاول أن يرشده لوجه آخر فقال: **﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾**.

وحاصله: أنّك إذا أردت قتلي ظلماً وعدواناً فإنّي لا أفعل ذلك خوفاً من الله، لأنّ قتل النفس ظلم وعدوان والظالم مأخوذ عند الله سبحانه.

ويرى بعضهم أن هابيل بقوله هذا قد فرّط في حقّ نفسه، وأعان عليها باستسلامه لإرادة أخيه، وهذا غير صحيح بتاتاً، وانّما كان مقصوده أنّ أخاه إذا ظلمه وبغىٰ عليه ولم يتحرج عن قتله، فإنّه لا يقدم على مثل ذلك، وأمّا دفاعه عن نفسه فلم يردّه ولم ينفه، فإنّ الدفاع عن النفس أمر فطري لازم يحكم العقل به، والدليل على ما ذكرنا أنّه قال: **﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾** ولم يقل ما أنا بباسط يدي إليك لأدافع عن نفسي.

ونستخلص ممّا مرّ أنّه حاول إصلاح فكرة أخيه بأمرين:

أحدهما: أنّ منشأ القبول والرفض هو التقوى وعدمها وليس له (أي لهابيل) شأن في ذلك، فلا لوم عليه إذن، وصدق أمير المؤمنين إذ قال: (ربّ مَلوم لا ذنب له).[1]

ثانيهما: إن أردت قتلي ظلماً وجوراً، فأنا لا أُريد ذلك خوفاً من الله.

---

١. بحارالأنوار: ٧٥/ ١٢، الحديث ٧٠.

ثم أردف كـلامه بكـلام آخر، قـال فيه: ﴿**إِنِّي أُرِيـدُ أَنْ تَبُوءَ بِـإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾.

والنظرة الأولية إلى الآية ربما تفيد أنّ هابيل رضي بقتل نفسه ورجوع أخيه إلى ربّه بإثمَيْن. ولكن هذا الظـاهر غير مراد قطعاً والآية تهدف إلى أمـر آخر، وهو أنّ رجوعه إلى الربّ بإثميْن نتيجة إصراره على قتله، فكأنّ الأخ يقول: إذا كنت مصمِّماً على ذلك فافعل ما شئت وارجع إلى ربّك بإثمين.

فهذه الإرادة لم تكن منه إرادة ابتدائية، بل كانت الغاية منها إعلاماً لنتيجة العمل الّذي يريد أن يقدم عليه وهي ملاقاة ربّه بإثميْن.

و إن شئت فلنـوضح ذلك بمثـال وهو انّـه إذا نصح الـوالد المشفق ولـده وحذّره عمّا يريـد أن يفعل، ولمس منه المقاومة والعصيان، يـرجع ويقول له: كأنّك لا تريـد النصيحة والسعادة فإذنْ كن من الأشقياء الخاسرين، فيُظهـر بذلك، انّ نتيجة الإعراض عن النصيحة هو هذا، لا أنّه يـريد أن يكون ولده وفلذة كبده من الخاسرين.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ هذه المواعظ لم تنفع أخـاه، الّذي ظلت تتنازع في نفسه قوتا الخير والشر، فبينما كـانت علاقة الأخوة ووشيجة الـرحم، تصدّه عن إراقة دم أخيه، كـان مرجل الحسد الّذي يغلي في صـدره يدفعه إلى اقتراف جـريمة القتل، وفي النهايـة تغلبت قوة الشر، و إلى ذلك يشير سبحـانه: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[1]، أي أنّه كان في بدء الأمر يهاب الإقدام على قتل أخيه ولكن نفسه الأمارة شجّعته عليه، فاقترف جريمته البشعة.

وأيّ خسران أعظم وأفـدح من قطع وشيجة القـربى وقتل الأخ الّذي كـان

---

١. المائدة: ٣٠.

يَنصحه ويزجره ويصدّه عن غضب الرب؟

نعم بقي متحيّراً بعد قتل أخيه، ولم يعرف كيف يواري جسده إلى أن رأى الغراب يحفر الأرض فأحسّ بجهله، وأدرك أنّه دون الغراب معرفةً، وتلك والله الفضيحة الكبرى الّتي تبعث على الندم، ولات حين مَندَم، ومن هنا عبّر عن فضيحته بقوله: ﴿يٰا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمينَ﴾.

نكات وعبر

في قصة ولدي آدم الّتي سردها القرآن الكريم نكات لا يستغني عنها المجتمع الإنساني مهما بلغ درجة عالية في العقل والفكر، وهذه النكات هي:

١. الإخلاص والتقوىٰ هما روح العمل وجوهره، وبدونهما يصبح العمل هباءً منثوراً. قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١]، والمراد بالدين في الآية هو الطاعة. فالطاعة مختصة بالله تبارك وتعالى ولا تجوز طاعة غيره إلاّ بإذنه وأمره كما هو الحال في طاعة الأنبياء والأولياء؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣]. والتقوىٰ (دار حصين عزيز)[٤] يعجز العدو(الهوىٰ والشيطان) عن اقتحامه. ومن هنا يبقى الموصوف بها قويّاً، ثابت الخطىٰ، لا يزلّه شيء، في حين يزلّ العاري عنها، ويهوي إلى مكان سحيق بارتكابه المعاصي والآثام الكبيرة كالقتل وغيره.

---

١. البينة:٥.
٢. النساء:٨٠.
٣. النساء:٥٩.
٤. نهج البلاغة:٢٢١، الخطبة ١٥٧.

٢. إنّ الحسد شرٌّ مستطير قد يفضي بصاحبه إلى البغي والعدوان، فلما إن علم قابيل بقبول صدقة أخيه دون صدقته حمي حسده. وبدل أن يسعى إلى تزكية نفسه وتطهير قلبه بالعبادة الخالصة والتقوىٰ، يصرف همّه وقواه للانتقام من أخيه و الاعتداء عليه، وهذا مصير كلّ حسود لا يعالج هذا المرض الّذي يأكل قلبه، بل يسعىٰ جاهداً للإضرار بالمحسود.

٣. لا شكّ أنّ الإنسان أفضل الخليقة وأشرف المخلوقات ولكن ذلك لا يمنعه من أن يتعلم ممّن هو أدنى منه، كما تعلم قابيل مواراة جسد أخيه من الغراب، وكأنّ العالم كتابُ علم وعبرة وعظة يعظ الإنسان ويهديه إلى الصراط الأقوم.

٥. انّه سبحانه عندما يذكر قصة ابني آدم يعقبها بكلمة ﴿**بالحق**﴾ مشعراً بأنّ ما يذكره من القصة قد خلا من الأكاذيب والأساطير، وأنّه أمر واقعي لا تمثيلي، لكن هذا لا يصدّنا عن انتزاع ضابطة كلية منها وهي أنّ هابيل رمز الإنسان الطيب المنزه عن مساوئ الأخلاق ورذائلها. كما أنّ قابيل رمز الإنسان القاسي والّذي لا يعير لوشيجة القربى أي اعتبار، فيقترف جريمة لا تنفعه بل تعود عليه بالفضيحة والخسران المبين.

٦. انّ القتل أوّل جريمة ارتكبها الإنسان على وجه الأرض.

٧. بعد أن ذكر سبحانه قصة ابني آدمعليه السلام رتّب على جريمة القتل هذه النتيجة ، وهي: إنّ قتل إنسان واحد أو إحياءه كقتل الجميع أو إحيائهم، قال سبحانه: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾.[1]

---

١. المائدة:٣٢.

وقد ذكر المفسرون حول هذه النتيجة وجوهاً عديدة تناهز الخمسة[١]، ونذكر هنا وجهين:

أ. من قتل نفساً بغير حق فعليه مأثم من قتل جميع الناس، لأنّه سنّ القتل وسهّله لغيره فكان بمنزلة المشارك فيه، ومن زجر عن قتلها بما فيه حياتها على وجه يقتدي به غيره فقد أحيا الناس بسلامتهم منه وذلك إحياؤه إياهم.

ب. إنّ الآية بصدد بيان حقيقة القاتل والمحسن، لأنّ الّذي يقتل شخصاً واحداً بغير وجه حق، يملك نفساً متوثبة للشر، ومستعدة لقتل جميع الناس إذا قدر على ذلك.

ويقال نظير ذلك في المحسن الذي يحيي شخصاً واحداً، فإنّه يملك نفساً خيّرة تدفعه إلى إحياء كلّ الناس عند توفر القدرة على ذلك.

قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله: **﴿ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً﴾**: «أي أنجى من غرق أو حرق، وأعظم من ذلك كلّه يخرجها من ضلالة إلى هدى».

وفي حديث آخر عنه أيضاً في تفسير الآية: «من استخرجها من الكفر إلى الإيمان».[٢]

هذه نكات سبع تستفاد من الآيات المذكورة:

بقي الكلام في أمرين:

١. خلقة حواء.

٢. كيفية تزويج أولاد آدم.

---

١. مجمع البيان: ٢/ ١٨٧.

٢. مستدرك الوسائل: ١٢/ ٢٣٩ ح ٤ و ٥.

خلقة زوجة آدم

ذكر القرآن الكريم خلقة آدم على التفصيل كما عرفت، ولكنّه ذكر كيفية خلقة زوجته في آية واحدة قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾.[1]

فذهب بعض المفسرين في تفسير قوله: ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ إلى أن «من» في قوله «منها» للتبعيض، وأنّ المراد بزوجها (حوّاء) وانّه سبحانه خلقها من أحد أضلاع آدم.

وهذا التفسير مقتبس ــ كما يبدو ــ من التوراة الّتي جاء فيها: فأوقع الإله الرب سباتاً على آدم فقام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً (٢٢) وبنى الرب الإله الضلع الّتي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي تدعى امرأة لأنّها من أمري أخذت.[2]

والتفسير ـ كما مرّ ـ مبني على أخذ «من» في قوله: ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ للتبعيض، ولكنّه خلاف الظاهر بل هي لبيان الجنس كما في قولنا: خاتم من فضة. والمراد من قوله ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ أي خلق من جنس تلك النفس زوجها، فزوج آدم كانت مثله في الجنس لا من الملائكة ولا من الجن.

ويدلّ على ذلك قوله سبحانه في آية أُخرى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾، فقوله من أنفسكم بمنزلة قوله وخلق منها زوجها.

---

١. النساء:١.

٢. الإصحاح الثاني ـ سفر التكوين.

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام شدّدوا النكير على النظرية المذكورة في عدة روايات وردت عنهم، منها:

عن عمرو بن أبي المقداد عن أبيه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام: من أي شيء خلق الله حواء؟ فقال: «أي شيء يقولون هذا الخلق؟» قلت: يقولون: إنّ الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم، فقال: «كذبوا أكان الله يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟» فقلت: جعلت فداك يابن رسول الله صلى الله عليه وآله: من أي شيء خلقها؟ فقال: «أخبرني أبي عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله تبارك وتعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه ــ وكلتا يديه يمين ــ فخلق منها آدم وفضلت فضلة من الطين فخلق منها حواء».[١]

أولاد آدم وزواجهما

وهناك مسألة غامضة ترجع إلى ما قبل التاريخ، وهي أنّ أولاد آدم كانوا إخوة وأخوات فكيف تزوّج الإخوة والأخوات؟ وقد أُجيب عن ذلك بما يلي:

١. انّ الضرورة في أوّل الخليقة ألجأتهم إلى ذلك النوع من الزواج المحرم في الشرائع السماوية. وقد وردت هذه النظرية في الروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت وردّت بأنّ معنى هذا انّ الله عزّ وجلّ جعل صفوة خلقه وأبو أنبيائه من حرام ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال.[٢]

٢. انّما تزوج الذكور بإناث من غير جنس الإنسان.

٣. انّ آدم ليس أوّل من وطأ الأرض وإن كان هو رأس السلسلة بالنسبة إلى

---

١. بحارالأنوار:١١/ ١١٦ ح ٤٦؛ تفسير العياشي:١/ ٢١٦؛ تفسير الصافي:١/ ٣٢٥.

٢. النو رالمبين، للسيد الجزائري:٥٢.

الخلائق الموجودة ولكن كـان قبله أُناس في الأرض بـاسم النسناس وقد انقـرضوا وكانوا متواجدين في عصره. فتزوج أولاد آدم بمن بقي من تلك الطبقة.

وبما أنّ المسألـة راجعـة إلى مـا قبل التاريـخ فإبداء النظـر فيهـا يعـدّ رجماً بالغيب، إذ لا نمتلك وسيلة لمعرفتها، وقد سكـت عنها التنزيل، ولم ترد فيها رواية تطمئن بها النفس.

٢

النبي إدريس

معلم الخط

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾[١].

﴿وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

ذَكر إدريس عليه السلام في هذين الموضعين من القرآن الكريم مقروناً بأجمل الأوصاف، وأعطر الثناء.

ورغم أن اسمه عليه السلام تلا اسم إسماعيل عليه السلام إلّا أن المؤرخين والنسّابين يقولون: إنّه جدّ أبي نوح عليه السلام، وإن نسبه كالتالي:

إدريس بن يادر بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، ويقول ابن كثير إنّه أول بني آدم أوتي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام، وقد أدرك من حياة آدم (٨٠٨) سنة .[٣]

قال العلّامة السيد الطباطبائي: إن القرآن لم يراعِ في ذكر الأنبياء هنا

---

١ . مريم: ٥٦ ـ ٥٧ .   ٢ . الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦ .

٣ . البداية والنهاية: ١ / ٩٢ ـ ٩٣ .

الترتيب بحسب الزمان ولا الانتقال من السابق إلى اللاحق.

هذا، وقد اختُلف في مولِد إدريس، فقالت فرقة: إنّه ولد في مصر وسمّوه بهرمس الهرامسة، وقالوا: هو باليونانية إرميس (ومعناه عطارد) وعرّب بهرمس، وقال آخرون: اسمه باليونانية طرميس، وهو عند العبرانيين خنوخ، وعرّب اخنوخ.

وقالت فرقة أُخرى: إنّه ولد ببابل (في العراق)، وآتاه الله النبوة فيها، ثمّ رحل إلى مصر.

وقد شاع بين أصحاب السير والآثار أنّه أوّل من خطّ بالقلم وحاك الثياب وارتداها، وأوّل من نظر في النجوم وتعلم الحساب، إلى غير ذلك من الأخبار التي وردت في حقّه، والّتي لا ينبغي الركون إلى أكثرها، لتقادم العهد به، وللدور الذي لعبته الإسرائيليات فيها، حيث إنّ قسماً منها مرويّ عن كعب الأحبار ووهب بن منبّه، وهما مَن هما.

ومهما يكن، فإنّ خلود اسم إدريس بين الحكماء والعلماء، يدلّ بجلاء على مكانته السامية بينهم، وعلى عمق دوره في التعليم ونشر المعارف الإلهية، وفوق ذلك كلّه مقامه الرفيع عند الله، والزلفىٰ لديه سبحانه.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو أنّ النبي نوحاً هو شيخ الأنبياء وأوّل نبيّ بعث ومعه شريعة سماوية ولم تكن قبله أي شريعة أُخرى، فما هي وظيفة ومسؤولية الأنبياء المبعوثين بين آدم ونوح؟

والّذي يمكن أن يقال: إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا يدعون إلى توحيد الباري تعالى، وإلى أحكام الفطرة الّتي لا تتغيّر، وإلى أحكام العقل الحصيف كحسن العقل وقبح الظلم والإحسان إلى الوالدين إلى غير ذلك من الأحكام الفطرية والعقلية الواضحة.

القصص القرآنية

٣

نوح

شيخ الأنبياء

ذكر الله سبحانه اسم نوح في ثمانية وعشرين سورة ضمن ٤٣ آية شريفة[1]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّه من الأنبياء الكبار الذين كان لهم دور في الدعوة إلى التوحيد ومكافحة الوثنية، كما أنّه يعتبر الأب الثاني للمجتمع الإنساني الحالي.

ويمكن تلخيص ما ذكر عن حياته في القرآن الكريم في محاور سبعة:

١. فضائله ومناقبه وسماته.

١. آل عمران:٣٣؛ النساء:١٦٣؛ الأعراف:٥٩ و ٦٩؛ التوبة: ٧٠؛ يونس:٧١؛ هود:٢٥، ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٧٩؛ إبراهيم:٩؛ الإسراء:٢، ١٧؛ مريم:٥٨؛ الأنبياء:٧٦؛ الحج:٤٢؛ المؤمنون:٢٣؛ الفرقان:٣٧؛ الشعراء:١٠٥، ١٠٦، ١١٦؛ العنكبوت:١٤؛ الأحزاب:٧؛ الصافات:٧٥ و ٧٩؛ ص :١٢؛ غافر:٥ و ٣١؛ الشورى:١٣؛ ق:١٤؛ الذاريات:٤٦؛ النجم:٥٢؛ القمر:٩؛ الحديد:٢٦؛ التحريم:١٠؛ نوح:١ ، ٢١ و ٢٦.

٢. إطلاق التهم و إثارة الشبهات حوله وحول أتباعه.

٣. ردّه عليه السلام على التهم و الاعتراضات، ودحضه للشبهات.

٤. ثباته في طريق الدعوة، وتمادي قومه في الظلم.

٥. دعاؤه على قومه، واستئصالهم بالطوفان.

٦. حقيقة سؤاله عن ابنه.

٧. نكات وعِبر.

و إليك دراسة هذه المحاور واحداً بعد الآخر.

١

فضائل نوح ومناقبه وسماته

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .[١]

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فيهِ﴾ .[٢]

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ .[٣]

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنينَ﴾ .[٤]

---

١. آل عمران:٣٣.

٢. الشورى:١٣.

٣. الإسراء:٣.

٤. الصافات:٨١.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ .[١]

﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ .[٢]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ .[٣]

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ .[٤]

أضفى الله سبحانه على نوح عليه السلام ـ فيما تقدّم من الآيات ـ أجمل الصفات وأسناها، والّتي ترفعه إلى أسمى المقامات وأبهاها، إذ اصطفاه تعالى على العالمين، وجعله من أُولي العزم الذين حباهم بالشرائع (وشريعته عليه السلام هي أُولى الشرائع الإلهية)، ونعته بالعبد الشكور، والمؤمن المخلص في عبوديته لله تعالى، وأبقىٰ له ذكراً طيباً وثناءً زاكياً بين الأجيال، وخصّه بسلام تام تردّده الأُمم على مرّ العصور.

ومن خصائصه عليه السلام لبثه في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، كما يُعتبر عليه السلام الأبَ الثاني للمجتمع البشري.

---

١. الصافات: ٧٨.

٢. الصافات : ٧٩.

٣. العنكبوت: ١٤.

٤. الصافات: ٧٧.

٢

التهم والشبهات المُثارة حوله وحول أتباعه

لم يزل المصلحـون ومازالوا في قفص الاتهام، وعلى رأسهم الأنبيـاء العظام. فقـد رُميَ كلّ نبي في عصره بتهم كـاذبة تشهـد حياة الأنبيـاء بكـذبها وتفاهتهـا، والتهمة بـلا ريب سلاح الجاهل الّـذي يقعد به العجـز عن مواجهـة دعوة النبي وحججه الدامغـة فيلجأ إلى إثارة التهم حتّى يسقطه من أعين النـاس. وكان هذا الخط حاكماً طول التـاريخ بين الجهلة والأنبياء. وقد ذكر القـرآن الكريم شيئاً من التهم والاعتراضات الّتي وجهوها إلى ذلك النبي الكريمﷺ، و إليك الآيات:

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ .[١]

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ مَا هٰذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَـاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَـةً مَا سَمِعْنَـا بِهٰذَا فِي آبَائِنَـا الأَوَّلِينَ* إِنْ هُوَ إِلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ .[٢]

﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ .[٣]

﴿فَقَـالَ الْمَـلأُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا مِـنْ قَـوْمِـهِ مَـا نَـرَاكَ إِلاَّ بَشَـراً مِثْلَنَـا وَمَـا

---

١. القمر:٩.

٢. المؤمنون:٢٤ـ ٢٥.

٣. الأعراف:٦٠.

نَـراكَ اتَّبَعكَ إلاَّ الَّذِيـنَ هُمْ أَراذِلُنا بَـادِيَ الـرَّأْيِ وَمَا نَـرىٰ لكُمْ عَلَيْنَـا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبينَ﴾ .[١]

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ .[٢]

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ .[٣]

وهكذا تُساق التهم جُزافاً:

١. الجنون

والتهمة بالجنون تهمة جاهزة يلصقها الطغاة والجاهلون بالأنبياء والمصلحين ولم يسلم منها حتّى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّ النبي أو المصلح بمخالفته للرأي العام كمن يريد أن يسبح خلاف التيار، ويُلقي بنفسه في المهالك، وهذا في تصوّرهم هو الجنون بعينه، ولم يدرِ هؤلاء انّ صاحب الأهداف السامية يمضي بعزم صارم ويقين، ولا يستوحش في طريقه لقلة ناصريه.

٢. التفوّق والتفضّل

﴿مَا هٰذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[٤]. وهذا اتهام آخر له عليه السلام: إنّه يُضمر حبّ الرئاسة، والاستئثار بغنائم الحياة. إنّه ـ في زعمهم ـ يتخذ من دعوته غطاءً لتحقيق مآربه الشخصية!!

---

١. هود:٢٧.

٢. الشعراء:١١١.

٣. الشعراء:١١٦.

٤. المؤمنون:٢٤.

٣. الضلالة

كان قوم نـوح غارقين في الوثنية ومع ذلك يتهمـون نوحاً بالضلال لـدعوته إياهم إلى توحيـد الله و إنقاذهم من الأوثان. وهذا هـو دأب الجاهل الّذي يصف الحكيم بالضلال ونفسه بالهداية، مجسِّداً المثل القائل :(رمتني بدائها وانسلّت).

أمّا الاعتراضات الناجمة عن الإنانية والجهل بمبادئ الحقّ والحقيقة، فإليك بيانها:

١ . اجتماع الأراذل حولك

كان مـلاك الفضل والحق والصـواب عند قـوم نوح عليه السلام هو الثراء والجاه والقوة، ومن هنا نفـروا من دعوته عليه السلام، لالتفاف الضعفاء والمحـرومين حوله، لأنّ أصحاب الثروة والمقدرة ـ حسب زعمهم الفاسد ـ هم أولى الناس باتّباع الداعي لو كان محقّاً!! امّا هؤلاء الأراذل والأخسّاء ـ في نظرهم ـ فقد أسرعوا إلى اتباعه من دون تفكّر ولا تـدبّر ﴿بادِيَ الرَّأْيِ﴾. وهل يُعقل ونحن الأسيـاد والـوجهاء ــ كما يتخيّلـون ـ أن نقـف على قدم المسـاواة معهم، وننضـوي جميعـاً تحت لواء دعـوة واحدة؟!

وهذا المنطق البائس ـ للأسف الشديد ـ لا يزال قائماً في أكثر المجتمعات، ويتحكم في مفاصل حياتها.

٢ . ما أنت إلاّ بشر

غريب أمر هؤلاء الطغاة، يخلقون من أهوائهم وتصوّراتهم المريضة مقاييس ونظريـات، ثمّ يعجبون من جـريان الأُمور على خـلاف مقاييسهم ونظـرياتهم!!

والقول بأنّ النبي ينبغي أن لا يكون من البشر، يأتي في إطار هذا التحكم النابع من نزعتهم الاستعلائية.

٣. التهديد

العادة الجارية بين الأُمم هو الاتهام أوّلاً والاعتراض ثانياً فإذا لم يُنتفع بالأمرين، استُعمل سلاح التهديد بالقتل والرجم: ﴿**قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**﴾.[1]

وهذه التهم والشبهات والاعتراضات لم تؤثر في عزيمة نوح ودعوته إلى التوحيد والهدىٰ، بل واصل العمل في تأدية رسالته دون كلل أو ملل، ولم يألُ جهداً في ردّ تلك التهم والاعتراضات ويزيّفها بأسلوب قائم على الحجج والبراهين، ومفعمٍ بروح الإيمان والحرص على هداية قومه وهذا هو المحور الثالث، الّذي نشرع الآن في بحثه.

٣

ردّه على التهم والاعتراضات، ودحضه للشبهات

﴿**وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنّي مَلَكٌ**﴾ .[2]

﴿**يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ .[3]

---

١. الشعراء:١١٦.

٢. هود:٣١.

٣. الأعراف:٦١.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ .[١]

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ .[٢]

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ* إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .[٣]

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .[٤]

قد تعرفت على التهم الموجهة إلى نبيّ الله نوح عليه السلام والاعتراضات الّتي واجهها. وكان عليه السلام ـ كسائر الأنبياء ـ يقابل ما أُثير حوله بقوة المنطق والبرهان الواضح وبدفق العاطفة الصادقة عسى أن يُفلح في التقليل من عنادهم وعدائهم وبالتالي فتح قلوبهم لتقبّل دعوة التوحيد.

لم يشأ أن يردّ على اتهامه بالجنون (ولا كلُّ قوّالٍ لديّ يُجابُ)[٥]، فحياته عليه السلام بين ظهرانيهم أدلّ دليل على كمال عقله وسعة حلمه وحسن تصرّفه.

وأمّا الرغبة في التفوق فقد ردّ عليه السلام على هذا الاتهام بقوله:﴿وَ يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ . فمن يرغب في التفوّق، يطمع بما في أيدي الناس من الأموال ويسعى للاستحواذ عليها، وأنّى لهم أن يتّهموه بذلك، ولم يسألهم أجراً على إنذارهم وتبليغهم؟

كما نفى عليه السلام تهمة الضلالة عن نفسه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي

---

١. الأعراف:٦٢.

٢. هود:٢٩.

٣. الشعراء:١١٤ـ ١١٥.

٤. الأعراف:٦٣.

٥. شطر بيت لأبي فراس الحمداني، أوّله: وما كلُّ فعّال يُجازىٰ بفعله.

رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1]. فهل يضلّ من اهتدى بهدي الله واتّبع صراطه المستقيم واختاره الله لتبليغ رسالاته؟ وهل يضلّ من حمّله ربُّ العالمين مسؤولية النصح لأُمّته وإنذارهم وتبشيرهم بما يعلمه من وحدانية الله وسننه وأحكامه؟

ومعنى ذلك أنّ جهلكم برسالات ربّكم صار سبباً لوصفي بالضلالة مع أنّي على الصراط المستقيم.

هذه هي ردوده عليه السلام على ما أُكيل له من التهم. وهلم معي ندرس كيف واجه اعتراضات قومه.

ردوده على اعتراضات قومه

١. لقد أنكروا عليه التفات الفقراء والمستضعفين حوله، ودَعوه إلى إبعاد هؤلاء الأراذل ـ حسب تعبيرهم ـ الذين انقادوا له دون بصيرة وتدبّر.

إنّ هؤلاء المترفين الطغاة لم يستأثروا بالأموال ومتع الحياة فحسب، بل جعلوا من أنفسهم أوصياء على الآخرين حتّى في مجال التفكير والإيمان والاعتقاد! فحجروا عليهم هذا الحق، وراحوا يهدرون إنسانيتهم بإزدرائهم واستصغارهم.

لم يرفض نوح عليه السلام فقط دعوتهم الظالمة بإبعاد المستضعفين، بل أسبغ عليهم حُلل الكرامة الإلهية بوصفهم بالمؤمنين ﴿**وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2]، ﴿**وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[3]، وأخذ يكرّس واقعاً اجتماعياً جديداً بعيداً عن

---

١. الأعراف:٦١ـ٦٢.

٢. الشعراء:١١٤.

٣. هود: ٢٩.

الإيحاءات السلبيـة للغنىٰ والترف﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾. أجل حسابهم وجـزاؤهم على أعمالهم، من حقّ الله وحده يـوم يلقَونَه ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ حقيقة ذلك، ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1] هذه هي مسؤوليتي المُلقاة على عاتقي، ولم أُكلَّف بمحاسبة الناس ومجازاتهم.

٢. أنكروا أيضاً أن يكون عليه السلام بشراً مثلهم فردّ عليهم بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.[2]

فقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ إشارة إلى ضرورة كون الرسول من جنس المرسل إليهم وإلّا لامتنع التفاهم بينهما.

وقفة تأمّل مهمة

إنّ التهم والاعتراضـات الّتي أثارهـا قـوم نوح في وجـه نبيّهم عليه السلام صدرت أيضـاً من سـائر الأُمم تجاه أنبيـائهم، ومنهم سيّـدهم وسيّـد الخلق أجمعين النبيّ الخاتم، فقد كذّبه قومه: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.[3]

وكأنّ الأُمم تواصت بهذه الأقوال الزائفة: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.[4]

كما أنّ طغاة قريش طالبوا النبي الأكرم بتنحية أصحابه المستضعفين، أُسوة بقوم نوح عليه السلام، فقال سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ

---

١. الشعراء: ١١٥.

٢. الأعراف:٦٣.

٣. الحجر:٦.

٤. الذاريات:٥٢ـ٥٣.

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ* وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.[١]

ولا نطيل الكلام حول التهم المتشابهة والّتي وجهت إلى سائر الأنبياء عليهم السلام وجميعها يشير ـ بعد التأمّل ـ إلى أمر مهم وهو انّ النبي ـ كلّ نبيّ ـ قد بلغ من الطهارة والقداسة حداً لم يتمكن فيه أعداؤه من اتهامه بمساوئ الأخلاق ورذائل الأعمال، ولكن عنادهم دفعهم إلى القول بأنّه مجنون، أو ساحر، أو كاهن، أو شاعر، وغير ذلك من الأوصاف الّتي لا تمسّ قداسة النبي الّتي تفوح من سيرته العطرة. ومع ذلك فإنّ نفس هذه التهم تنفع العالم الاجتماعي الّذي يسعىٰ لدراسة حياة الأنبياء ومعرفة سلوكهم في مجتمعاتهم، وهي خير وسيلة للوصول إلى قداستهم.

٤

ثباته في طريق الدعوة، وتمادي قومه في الظلم

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾.[٢]

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[٣]

---

١. الأنعام:٥٢ـ٥٣.

٢. نوح:٥.

٣. هود:٣٢.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّـهُ كَانَ غَفَّـاراً * يُرْسِلِ السَّمَـاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ .[١]

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ .[٢]

﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً﴾ .[٣]

﴿وَإِنِّي كُلَّمـا دَعَـوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُـوا أَصَـابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَـوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَـرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾ .[٤]

هذا الفصل من حياة النبي نوح عليه السلام يشتمل على أُمور ثلاثة:

١. ثباته في طريق دعوته إلى التوحيد.

٢. أُسلوبه في إرشاد قومه.

٣. عنادهم ولجاجهم أمام دعوته.

وإليك التفصيل.

١. ثباته في طريق دعوته

إنّ صبر نوح عليه السلام واستقامته وثباته في طـريق دعوته، لمّا يُضرب به المثل، إذ مكث في قومه تسعمائة وخمسين عـاماً، قضاها في طـريق التبليغ والإرشاد من غير سأم ولا كلل رغم قلة المؤمنين به وإعراض جلّ قومه عنه.

وليس دأبه على التبليغ والنصح لقومه ليلاً ونهاراً وعدم الاستسلام لعنادهم

---

١. نوح: ١٠ـ ١٢.

٢. نوح: ١٣ـ ١٦.

٣. نوح: ١٧ و ١٨.

٤. نوح: ٧.

وعتوّهم إلّا دليلاً على ثباته وعزمه على تحقيق رسالته، وبلوغ أُمنيته في هدايتهم وإرشادهم إلى الحياة الكريمة .

ولم يزل عليه السلام يدعوهم ويحاورهم ويحاججهم بأبلغ حجة وأجمل بيان حتّى ضاقت صدورهم به لبطلان كل حججهم وشبهاتهم، وسقوط جميع تهمهم، فضجّوا قائلين : ﴿**يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ معبّرين بذلك عن إصرارهم على التمسك بعقائدهم الباطلة وأفكارهم المنحرفة.

إنّ الاستقامة في طريق الدعوة هي شيمة الأنبياء، ولهم في هذا المضمار مراتب وقد كان نوح في مرتبة متقدمة منه.

٢. أُسلوبه في الدعوة

يظهر من الآيات أنّ النبي نوحاً كان يتبع أُسلوباً ذا اتجاهين:

أ. الترغيب بالنعم الدنيوية غبّ الإيمان.

إنّ حبّ المال والأولاد أمر فطري جعله الله سبحانه في خلقة الإنسان، ولولا ذلك لما ربّى بشر ولداً ولا حملت أُمّ طفلاً، وهكذا الأموال. وقد نبه النبي نوح إلى أنّ للإيمان بالله وطلب الغفران أثراً واضحاً في الدنيا. وفي مظاهر الحياة. فخاطب قومه بقوله : ﴿**... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾.

ويريد عليه السلام بهذا الخطاب توجيه نظرهم إلى أنّ للإيمان بالله أثراً واضحاً في رغادة العيش الّتي من مظاهرها الأموال والأولاد والجنات والأنهار، وهي نتائج الإيمان بالله وطلب الغفران ممّا مضى من عبادة الأوثان .

إنّهعليه السلام يكشف بذلك عن وجود الصلة بين الإيمان بالله وسر إفاضة النعم على الإنسان المؤمن، فإذا كان الإيمان سبباً لنزول النعم يكون الكفر سبباً لفقدانها وصيرورة العيش ضنكاً.

وهذه الحقيقة الغيبية الّتي نبه عليها نوح في دعوته يؤيدها القرآن الكريم كما تؤيدها التجربة كذلك.

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾[1]، فقد صرّح سبحانه بأنّ التقوى سبب لهبوط البركات من السماء ونبوعها من الأرض. بل القرآن يصرح بأنّ العمل بالتوراة والإنجيل الواقعيين سبب لذلك أيضاً: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾.[2]

فالعمل بالكتب السماوية غير المحرَّفة، يكون موجباً لكسب رضا الله تبارك وتعالى الذي يتبعه نزول البركات.

ويشير الإمام أمير المؤمنينعليه السلام في كلامه إلى هذه الحقيقة فيقول: وقد جعل الله الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق.[3]

وأمّا التجارب فتشهد بأنّ العصيان ونقض القوانين وهدر الحقوق يورث الفوضى في المجتمع ويصبح اللانظام حاكماً عليه. وفي مثل هذا المجتمع يسود القتل والبغي والسرقة وغيرها من الآثام الّتي هي من تداعيات فساده وتفككه.

وربّ سائل يسأل: إنّ المجتمعات الغربية غارقة في العصيان والفساد

---

١. الأعراف:٩٦.

٢. المائدة: ٦٦.

٣. نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٣.

الأخلاقي، فكيف تتمتع بالازدهار والرخاء والإنتاج الوفير؟

والجواب أنّ ثمة أسباباً طبيعية للحصول على خيرات الأرض ونعمها وثرواتها، تتمثل في التخطيط والتنظيم والعمل الجاد في البناء والإعمار و الاستثمار. وبمقدار ما يأخذ المجتمع ـ أي مجتمع آمن أم لم يؤمن ـ بهذه الأسباب، يتحدّد مقدار ما يحوزه من ثروات وما يبلغه من رقيّ وازدهار، والمجتمعات الغربية ـ كما هو واضح ـ قد حرصت على الأخذ بها، فبلغت ما بلغت، والفارق أنّ المجتمع الآخذ بتلك الوسائل إذا كان مؤمناً، فإنّ الله تعالى سينمّي خيراته أكثر، ويفيض عليه المزيد من نعمه وآلائه، ويفتح عليه بركات السماء والأرض.

ثمّ إنّ المجتمع المؤمن إذا راعىٰ تلك الأسباب، فإنّه ينعم بسعادة الدنيا والآخرة، بينما يحظى المجتمع غير المؤمن بلذّات الدنيا فقط.[١]

إلفات نظر القوم إلى نظام الخلق

سعى نوح عليه السلام إلى توجيه أنظارهم إلى ما أنعم الله سبحانه عليهم من النظام الّذي خُلق لسعادة الإنسان وبه تناط حياتهم فقال: **﴿مَا لَكُمْ لاٰ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً* أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاواتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾**.[٢]

إنّ هذا الخلق المُحكم المُتقن يدلّ على خالق حكيم قدير، فكيف تتوجهون إلى غيره بالعبادة والطاعة؟

وممّا نُلفت إليه نظر القارئ انّ الآية الكريمة وصفت الشمس بالسراج

١. انظر التفسير الكاشف:٧/ ٤٢٧.
٢. نوح: ١٣ـ١٦.

والقمر بالنور ، وما هذا إلّا لأنّ القمر غارق في الظلمة مستنير بالشمس، بينما تجد الشمس متوهجّة بالنور، فهي منيرة بذاتها وما سواها مستنير بها، ولذا وصفت الشمس بالسراج الّذي ينير بذاته ولا يقتبس النور من غيره .

ب. التنبيه على الحياة الأُخروية

كان عليه‌السلام يوجه عقولهم إلى أنّ الحياة الدنيوية مقدمة للحياة الأُخروية، فليس الموت نهاية الحياة، فعليهم أن يتزودوا للحياة الأُخروية الّتي لا محيص للإنسان عنها وإلى ذلك يشير بقوله: ﴿**وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾[1].

إلى غير ذلك من الطرق الّتي سلكها نوح عليه‌السلام في دعوته لتليين قلوبهم وإلفات نظرهم إلى دلائل التوحيد.

٣. عنادهم ولجاجهم قبال دعوته

ذكر الله سبحانه من عناد قوم نوح وتمرّدهم على الحق ما يثير العجب العجاب، فلقد دعاهم عليه‌السلام إلى ما فيه سعادتهم ومنجاتهم، وهتف بهم بفنون الأساليب النابضة بالعطف والمحبّة، والساطعة بالبرهان والحجّة، وحذّرهم وأنذرهم، فلم يزدادوا إلّا إصراراً على الظلم والعصيان، وانقياداً إلى الأهواء والشيطان، وكأنّه عليه‌السلام كان يضرب في حديد بارد .

وقد بلغ الرَّيْن على قلوبهم بما كسبوا، أن راحوا يتمادوْن في الإعراض عن سماع الحِكم البوالغ، وعن رؤية الصادع المُبلِّغ، حتى خاطب عليه‌السلام ربّه السميع

---

١. نوح: ١٧ ـ ١٨.

البصير، قائلاً: **﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾**.[١]

ولم يكتفِ الطغاة المترفون بمناهضة دعوة نوح عليه السلام، بل كانوا يصدّون الناس عن اتّباعها، ويحرّضونهم على التمسك بمعتقداتهم وعبادة أصنامهم، للإبقاء على الأوضاع كما هي، خوفاً من رياح التغيير الّتي تأتي على نفوذهم ومصالحهم غير المشروعة: **﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾**.[٢]

أليس من حق الله سبحانه أن يصف هؤلاء المعاندين بالصفات التالية:

١. **﴿كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾**.[٣]

٢. **﴿كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾**.[٤]

٣. **﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾**.[٥]

وأن يُغرق هؤلاء الكفرة الفجرة الذين عموا عن رؤية الحقائق، وتولّوا عن طاعة الله، واستكبروا استكباراً.

هذه نماذج من الآيات الّتي وردت حول هذا الموضوع، ويمكن للقارئ الكريم أن يطالع ما لم نذكره في المقام ممّا له صلة به.

---

١. نوح:٧.

٢. نوح:٢٣.

٣. الأعراف:٦٤.

٤. الذاريات:٤٦.

٥. النجم:٥٢.

٥

دعاؤه على قومه، واستئصالهم بالطوفان

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ* وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ* حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ* وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيٰها وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ* وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعداً لِلْقَومِ الظَّالِمينَ﴾.[١]

إنّ النبيّ نوحاً عليه السلام قد بذل جهده وأفنى طاقاته في سبيل هداية قومه

---

١. هود:٣٦ـ ٤٤.

ولكنهم تولّوا عنه، إلى حدٍ يئس فيه النبي المجاهد من هدايتهم، وعند ذلك وافاه الوحي الإلهي بالخطاب التالي: **﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**[١]، فصار ذلك سبباً لتوجّهه إلى الله تعالى والدعاء عليهم بقوله: **﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكـافِرِينَ دَيَّاراً* إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّـوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفّاراً﴾**.[٢]

صُنع الفُلْك (السفينة) وسخرية قومه

لقد اقتضت إرادة الله سبحانه بإبـادة الكافرين و إهلاكهم وتطهير الأرض منهم، وبإنقاذ المؤمنين من الهلاك، ولمّا كانوا جميعـاً يعيشون في منطقة واحدة فقد اقتضىٰ ذلك توجيه الأمر إلى نوح بأن يصنع الفلك، ليحفظ به حياة المؤمنين.

بدأ نوح بعمله في البر بعيـداً عن الماء، ولم يكن ذلك مناسباً لصنع الفُلك، الّذي ينبغي أن يُصنع قـرب الشواطئ ليسهل إلقاؤه في الماء، ومن هنا أخـذ قومه يهزأون به ويسخرون منه (وكانوا يقولون يتّخذ سفينة في البرّ)[٣]، وهذا يدلّ على أنّ طبائعهم قد جُبلت على العناد والجحود والسخرية. قال الشاعر:

فلا تبتئسْ من نَقْد من ليس حظُّهُ   من الدهر، إلاّ أن يُرى وهو ساخرُ[٤]

إنّ الفلك الّـذي يحمل المؤمنين، ومن كـلّ جنس من أجنـاس الحيـوانـات

---

١. هود: ٣٦.

٢. نوح: ٢٦ـ٢٧.

٣. روي هـذا القـول عن الإمـام عليعليه السلام. انظـر: النـور المبين في قصص الأنبيـاء والمرسلين، للجزائري: ٧٣.

٤. البيت للسيد محمد جمال الدين الهاشمي.

زوجين اثنين، والطعام الّذي يحتاج إليه الركّاب طول فترة الطوفان، إن هذا الفلك لابدّ أن يكون عظيماً قوياً يقاوم الأمواج العاتية، وأن يكون صنعه بتعليم من الله سبحانه و تسديده، لأنّ نوحاً وقومه لم يروا سفينة من قبل، ولم يعرفوا كيفية صنعها.

هذا وقد اختلفت كلمات المؤرخين في خصوصيات هذا الفلك، ومهما اختلفوا في عرضه وطوله وسعته فالآيات الّتي تشير إلى أنّه حُمل فيه كلّ ذلك، تدلّ على سعته وكبره. روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: إنّ طولها كان ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ثمانمائة ذراع وطولها في السماء ثمانون ذراعاً.[١] ونقل ابن كثير أقوال الباقين في خصوصيات الفلك بما لا حاجة إلى ذكرها هنا. ومن المعلوم أنّ ذلك الفلك كان مؤلّفاً من طبقات بعضها للناس وبعضها للدواب وبعضها للوحوش وبعضها للطيور.[٢]

علائم البلاء في السماء والأرض

اقترب الموعد الّذي حدده الله سبحانه لابتداء الطوفان، وجعل علامة ذلك أن ينبع الماء من التنور الّذي يُخبز فيه[٣]: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**﴾ وعندئذٍ أمر الله نوحاً أن يحمل في الفُلك أهله ومن آمن به ومن كلّ زوجين اثنين: ﴿**قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾.

---

١. النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، للجزائري:٧٢.
٢. قصص الأنبياء لابن كثير:٨٢.
٣. وقيل: المراد بالتنور وجه الأرض، ذكره ابن عباس. التبيان:٥/ ٤٨٦.

ثمّ إنّه دعـا المؤمنين من أهله وأصحـابه أن يـركبوا فيهـا مبتدئاً بـالتسمية: ﴿ارْكَبُوا فِيهَـا بِسْمِ اللهِ مَجْرَيْهَا وَمُرْسَـاهَا﴾. أي ان جـريها ومنتهى سيرهـا بيـد الله تعالى، والسفينة وسيلة أمر الله بالتمسك بها.

وبـدأت الأرضُ تفيض بـا لماء دفّـاقاً، والسماءُ تهطل بـا لمطـر تهطـالا، حتّى امتلأت الـوديان، واختفت قمـم الجبال الرواسي، لتحـلّ محلّها جبال مـن أمواج متتابعـة، تشمخ في أبحر ثائرة، ولم يبق هنـاك إلاّ سفينة أُتقن صنعُهـا بوحي الله، تجري في وسط ذلك العُباب الزاخر بعين الله.

إنّه حقاً لمشهـد مهول يأخذ بأكظام النفوس، وتضطـرب القلوب من تخيّله ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُـوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[١]، ولكن القلوب تهدأ وتطمئن حين ترى يد الرحمة تمتد في أعماق الشدائد والأهوال لتنقذ المؤمنين الصادقين وترعاهم ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.[٢]

استواء السفينة على الجودي

إنّ الفلك الّتي أقلت نوحـاً ومن معه استقرّت في نهايـة الأمر على الجوديّ، وهو ـ كما قيل ـ جبل بديار بكر من بلاد الجزيرة في جبـال تتصل بجبال ارمينيا. قال في القـاموس المحيط: والجودي جبل بـالجزيرة استـوت عليه سفينـة نوح عليه السلام ويسمى في التوراة آراراط.

وقال في مراصـد الاطلاع: جبل مطلّ على جزيرة ابن عمـر في شرقي دجلة

١. القمر: ١١ـ ١٢.
٢. القمر: ١٣ـ ١٤.

من أعمال الموصل.

وجاء في تفسير القمي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: واستوت السفينة على جبل الجوديّ وهو بالموصل جبل عظيم.[١]

وكلّ ذلك أخبار آحاد لا يمكن الاعتماد عليها، والعلم عند الله سبحانه وعند من علّمهم من المعصومين.

نهاية قصة الطوفان

كانت الفلك تجري بنوح ومن معه ليالي وأياماً إلى أن أهلك الله سبحانه جميع الظالمين ثمّ جاء الأمر الإلهي بأن تبتلع الأرض ماءها وأن تُمسك السماء عن المطر فامتثلتا للأمر، وغاض الماء، وقضي الأمر الّذي قدّر.

ولمّا انتهى الطوفان، خرج نوح ومن معه من الفلك سالمين، قائلاً عليه السلام (بتعليم من الله سبحانه): ﴿...**رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**﴾.

ثمّ منّ سبحانه على نوح بأن جعل عقبه باقياً دون الناس أجمعين، كما قد توحي بذلك الآية الكريمة: ﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**﴾، وكما هو مشهور عند المفسّرين والمؤرخين كابن عباس وقتادة والطبري الّذي قال في تفسيره: ذرية نوح هم الباقون في الأرض بعد مهلك قومه، والناس كلّهم من بعده إلى اليوم إنّما هم من ذرية نوح.

وشاء الله تعالى أن تستمر الحياة الإنسانية بعد انتهاء الطوفان، وأن يفيض

---

١. النور المبين للجزائري: ٧٣؛ تفسير القمي: ١/ ٣٢٨.

بنعمه وخيراته النامية على نوح وأصحابه المؤمنين ، ويهيّئ مقومات العيش لكلّ البشر الذين سيملأون الأرض من بعدهم: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[١]

والمراد بـ ﴿أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ هم الأُمم الصالحون من أصحاب السفينة إذ كلّهم سعداء ناجون. وهناك أُمم أخرجهم الله من زمرة المخاطبين ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وأخبر أنّهم سيمتعون ثم يعذبون لتماديهم في الظلم والطغيان. ولذلك قالوا: إنّ النبي نوح هو الأب الثاني للإنسانية، لما يظهر من القرآن أنّ الباقين في الأرض كلّهم من ذرية نوح.

نعم يظهر من عدد من التفاسير أنّ الأُمم اليوم ليسوا كلّهم من ذرّية نوح بل هم من ذرّيته وذرّية من كان معه من المؤمنين، وأنّ المراد بـ ﴿أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ هم الأُمم الصالحون من أصحاب السفينة ومن سيظهر من نسلهم من الصالحين.[٢]

ولكن هذا لا ينسجم مع قول من فسّر قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ببقاء ذرية نوح وحدهم.

هل كان الطوفان عالمياً؟

اختلف العلماء في موقفهم من هذا الأمر، ففريق رجّح شمول الطوفان للأرض كلّها، وقد ذهب بعضهم إلى حدّ تبنّي هذا الرأي، وفريق آخر رجّح وقوعه في جزء من الأرض، وقد مال بعضهم إلى تبنّي هذا الرأي، وثالث لم يرجّح

١. هود: ٤٨.

٢. انظر الميزان في تفسير القرآن: ١٠/ ٢٣٩ـ ٢٤٠.

هذا ولا ذاك، واعتبر إبداء الرأي في هذا المجال يدخل في إطار الظن ولا يستند إلى أدلة واضحة، وانّ معرفته ليست بذات قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآني.

ويعتمد الفريق الأوّل في ترجيحه على عدد من الشواهد والقرائن، منها ظاهر الآيات الكريمة، كإطلاق لفظ الأرض في قصة نوح ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّاراً﴾، والأمر بحمل زوجين اثنين من كلّ جنس من أجناس الحيوان، فلو كان الطوفان ـ كما يقولون ـ خاصاً بناحية من نواحي الأرض لما كان ثمة حاجة إلى الأمر بحمل ذلك[1]، ومنها وجود بعض الأصداف والأسماك المتحجّرة في أعالي الجبال، وهو دليل ـ كما يقولون ـ على أنّ الماء قد صعد إليها، ولن يكون ذلك حتّى يكون قد عمّ الأرض.

وأُجيب عن هذه الشواهد والقرائن بما يلي:

١. إنّ القرآن المجيد يذكر الأرض ويريد بها منطقة معينة، كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾[2] يعني أرض مصر، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾[3] والمراد بها مكة.

٢. إنّ حمل الأحياء في السفينة، ربما يكون بهدف المحافظة على نسلها من الانقطاع في القسم الذي عمّه الطوفان، خصوصاً أنّ نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيّناً.[4]

---

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٠/ ٢٦٤.

٢. يونس: ٧٨.

٣. الإسراء: ٧٦.

٤. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦/ ٥٠١.

ونقـول: إنّ عالمَ الأحيـاء الّتي تعيش على الأرض عـالم واسع جـداً، ويضم أنواعـاً لا حصر لها، تعدّ بعشرات أو مئات الآلاف من الأنـواع، ولا ندري كيف نتصور أنّ نوحاً عليه السلام قد حمل جنسين من كلّ نوع من هذا الكم الهائل من الأنواع، وأنّ السفينة قد استوعبت كلّ ذلك؟!

٣. إنّ وجود الأصداف وغيرها في قُلل الجبال قد يكون لأسباب أُخرى غير طوفان نوح عليه السلام.

هذه الإجـابات وبعض القرائن حدت بـالفريق الثاني إلى تـرجيح حدوث الطوفان في جانب من الأرض.

ومن المسائل الّتي ذُكرت لدعم القول بمحـدودية الطوفان، هي أنّ طوفان نوح كان بمثابـة العقاب لقومه، وليس هنا ـ كما يقولـون ـ دليل على أنّ دعوة نوح شملت الأرض كلّهـا، وعادة فإنّ وصـول دعوة نوح في مثـل زمانه إلى جميـع نقاط الأرض أمر بعيد.[١]

ونقول: إذا سلّمنا بافتقارنا إلى دليل يدلّ على شمول دعوة نوح، واستبعدنا وصول دعوته إلى جميع نقاط الأرض، فإنّ الدليل يعوزنا أيضاً في إثبات أنّ الأرض كلّها كانت مأهولة بالسكان، خصوصاً إذا لاحظنا هذين الأمرين:

١. قرب العهـد بين نوح وآدم أبي البشر عليهما السلام. وإذا صحّ ما ذكـره المؤرخون والنسّابون من وجـود ثمانية آباء بينهما،[٢] أدركنا حجم المجتمـع البشري آنذاك، وعدم تفرّقه في مناطق نائية جداً.

---

١. الأمثل: ٦/ ٥٠٢؛ وانظر تفسير المراغي: ٢٣/ ٦٧ (ط. دار إحياء التراث العربي).

٢. قالوا: هـو نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس بن لود (أو يارد) بن مهـلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

٢. ما اشتهر على ألسنة المؤرخين والمفسرين بأنّ جميع البشر ـ بعد حادثة الطوفان ـ هم من ذرّية نوح، ولذا اعتبروه الأب الثاني للبشر ـ كما مرّ ـ، وثمة من يقول بأنّهم من ذرّيته‌عليه‌السلام ومن ذرية من كان معه في السفينة. وهذان القولان يستلزمان عدم وجود أُمم (غير أُمّة نوح) في بعض الأقطار الشاسعة لم تبلغهم الدعوة، فلم يستوجبوا الغرق.

٦

حقيقة سؤال نوح عن ابنه

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.[1]

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[2]

***

ركب النبي نوح في السفينة ورأى ابنه (يقال إنّ اسمه كنعان) في معزل عنه،

---

١. هود: ٤٢ـ ٤٣.

٢. هود: ٤٥ـ ٤٧.

فناداه بقلب لهيف: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِين﴾، ولكنّه أبى أن يُلبّي نداءَ الوالد المشفق، معتذراً بأنّه سيلجأ إلى جبل عال يحفظه من الماء.

وكان يتصور أنّ المياه مهما ماجت فلن تصل إلى سفح الجبل فضلاً عن قمّته ثمّ لم تلبث أن تنحسر، وأنّه سينجو من الغرق بصعوده في الجبل.

فأجابه نوح البصير بعظمة الله وقدرته قائلاً: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾. ولكن هذا المفتون بجهله وغروره لم يفهم مغزىٰ هذا القول، ولم يدرك أنّه لن يُفلت أحدٌ من غضب الله إلاّ بالرجوع إلى الله، وظل سادراً في غيّه إلى أن حال بينه وبين أبيه الموج.

فلما رأى نوح فلذةَ كبده وثمرة حياته يتقلب بين الأمواج، ويعاني صرعات الغرق و الموت، أراد أن يستنجز وعد الله بنجاة ولده، فقال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمينَ﴾ ولكن كلمة العذاب قد حقت عليه بعصيانه، فكان من المغرقين.

وللتدبر والاستفادة من هذه القصة تجب دراسة المواضع الأربعة التالية:

١. ما هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾؟

٢. كيف دعا نوح ابنه إلى ركوب السفينة مع كونه كافراً، وكان عليه السلام قد دعا الله سبحانه أن لا يبقي على الأرض من الكافرين ديّاراً؟

٣. ما هو المراد من قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؟

٤. هل كان نداؤه لربّه بشأن ابنه واقعاً في غير محله؟

وإليك دراسة هذه المواضع واحداً بعد الآخر.

الأوّل: ما هو المراد من الوعد الحق؟

الوعد الحقّ الّذي ذكره نوح عليه السلام، هو ما وعده الله من نجـاة أهله من الغرق والهلاك، وقد جاء في موضعين:

أحدهما ما مرّ من قوله: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

وثانيهما قوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾.[1]

ومن هنا نادى ربَّه مستنجزاً وعده في ابنه، لأنّه من أهله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يُفْصح عليه السلام عن طلبه بنجاة ابنه تأدباً أمام الله سبحانه، وإلاّ كان يقتضي أن يقول: يلزم ألاّ يغرق ولدي لأنّه من أهلي.

فأجابه سبحانه بقوله: ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

الثاني: كيف دعا نوح ابنه إلى ركوب السفينة مع كونه كافراً؟

كيف طلب من ابنه ركـوب السفينة مع كونه كـافراً، وكان عليه السلام قد دعا الله سبحانه أن لا يُبقي على الأرض من الكافرين دياراً؟!

والجواب: انّه لا يظهـر من الآيات أنّ النبي نـوحاً كان يعلم كفـرَ ابنه، لأنّ من يدعو الله سبحانه بكلّ وجـوده أن لا يترك على الأرض من الكافرين دياراً، لا يقدم على إركاب الابن الكافر معه في السفينة، وهذا يعرب عن أنّ ابنه كان مُظهراً للإيمان ومبطناً للكفر.

ولعلّ في قوله لابنه: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ما يشير إلى عدم وقـوفه على كفر ابنه، حيث يكون المعنى: لا تتخلّف مع الكافرين فتغرق معهم،[2] وإلاّ كان من المنـاسب أن يقول: ولا تكن من الكـافرين. وهـذا ما جعل نـوحاً يسأل ربّـه

---

١. العنكبوت:٣٣.

٢. مجمع البيان:٥/ ٣١١.

سبحانه عن وجه غرق ابنه مع كونه من أهله ولم يكن كافراً محكوماً بالغرق.

والشاهد على ذلك أنّه لم يسأل الله عن امـرأته مع أنّها كانت من أهله من دون ريب، وما ذلك إلاّ لأنّه كان يعلم أنّها كافرة، ولذا تركها تغرق دون أن يسأل عنها.

وقد ذكر المفسرون في وجه السؤال أُموراً غير تامة.[١] ولعلّ ما ذكرناه أوضح ممّا ذكر.

وعند ذلك وافاه الجواب بما نذكره في الموضع التالي.

الثالث: ما هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؟

يظهر ممّا ذكرنـا أنّ المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، هو أنّـه كان مُبْطناً للكفر ومظهراً للإيمان، والمنافق أشدّ من الكافر. فهو إذاً قد بلغ من الفساد إلى حدّ صار عملاً غير صالح، لا عاملاً غير صالح. وبتعبير آخر: صلته بنوح لما كانت صلة جسمانية لا صلة روحية، ذكـر سبحانه انّه لا ينبغي لنوح أن يسأل ما ليس له به علم وما لم يطّلع عليـه، كما يدلّ عليه قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

الرابع: هل كان نداؤه لربّه بشأن ابنه واقعاً في غير محله؟

والجواب يُعلم ممّا سبق، إذ أنّ مناداته لربّـه في حق ولده بالنسبة إلى الظاهر لم تكن في غير موقعهـا ،لأنّه كان غير مطّلع على عـدم صلاحه. وأمّا بـالنسبة إلى الواقع فهي كـانت في غير موقعها، لأنّها تستلزم استمرار حيـاة ابنه في الأرض مع أنّه سأله سبحانه أن لا يُبقي عليها كافراً.

---

١. الميزان: ١٠/ ٢٣٥.

قاعدة ربّانية

رسّخ القرآن الكريم من خلال قصة امرأة نوح (وامرأة لوط أيضاً) قاعدة ربّانية ذات أثر كبير في حياة المجتمع وفي تقييم المواقف، وهي إن تزكية الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانه وإخلاصه وحسن سيرته وصدق سريرته، وإن الرابطة الأُسرية، وآصرة القربىٰ من أزكى الناس وأطهرهم، لا تُجدي شيئاً إذا لم تعزّزها العقيدة الصالحة والأعمال المثمرة والمسلك القويم.

إنّ أسوأ ما قام به المنتفعون والمتحجّرون، هو استغلال وشائج القربىٰ وإيحاءاتها الباطلة في خلق مقامات زائفة لهم بين الناس، وإضفاء صفة القدسية على أنفسهم وعلى آرائهم ومواقفهم.

والمثل الّذي ضربه الله تعالى في هذا المجال، مستوحىً من امرأتي نوح ولوط، فهما على صلتهما من نبيّين كريمين، كانتا رمزاً للكفر والخيانة، ولم تنفعهما تلك الصلة في قليل ولا كثير ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرأةَ نُوحٍ وَامرَأَةَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صَالِحين فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ**﴾.[1]

وفي قبال ذلك يعرض القرآن صورة لامرأة عاشت في قصر مليء بأسباب الراحة والترف والنعيم، وقائم على الكفر والظلم والطغيان، فلم ترهب هذا، ولم تغترّ بذاك، بل آثرت العزّ الباقي والنعيم الدائم في جوار الله على العزّ الكاذب والنعيم الزائل في ظلال القصر، فنالتهما ولم يضرّها كفر وظلم صاحب القصر وأعوانه. ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَونَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً**

---

١. التحريم:١٠.

﴿فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[١]

خلاصة قصة نوح عليه السلام

ارتكس المجتمع البشري في عهد نوح أيّما ارتكاس، وضلّ عن النهج القويم، بسيادة الوثنية وقيمها ومفاهيمها في أوساطه، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً منذراً ومبلّغاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاّ اللهَ﴾.

ونهض نوح بمهمّته، مبيّناً بجلاء الهدف السامي من بعثته: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾.

ولكن مُتَرَفي قومه وكُبراءهم زهدوا في نصائحه، وتجاهلوا إنذاره، واستهانوا بالحقّ الّذي جاء به، وطفقوا يُثيرون الشكوك والشبهات، ويختلقون الأكاذيب والاتهامات، بقصد التشويه، والتنفير من دعوته، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ غير قادر على الاضطلاع بهذا الأمر، الّذي هو ـ بتصوّرهم الفاسد ـ من شأن الملائكة، كما أنّه يفتقر إلى أية ميزة من الميزات الّتي يتطلّبها ـ كما يزعمون ـ مقام النبوة كامتلاك الثروات الطائلة، والقدرة على الإخبار بالمغيّبات، وهو مع ذلك غير صادق في دعوته، وإنّما ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فيستأثر بالجاه والمال، بل هو مجنون لا يفقه ما يقول.

ثمّ كيف يليق بنا الإيمان به ونحن أُولو القوة والثروة والحِنكة والتعقّل ـ وقد التفّ حوله ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ الذين يُسارعون إلى التصديق من دون تدبّر ولا تفكير؟

تعامَلَ نوح عليه السلام مع صدود قومه وجفوتهم بروح عالية ونفس كبيرة، وأجاب عن شكوكهم واتهاماتهم بشفافية ووضوح ودقة، فلم يدع شبهة من الشُّبَه إلاّ

---

١. التحريم: ١١.

ودحضها، ولا تهمة من التهم إلّا ونقضها، كلّ ذلك بأسلوب محبّب ومنطق رصين وحوار مفتوح، بعيداً عن الادّعاء والتلبيس، والمهاترة والمتاجرة: **﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، **﴿وَ يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾**، **﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾**، **﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾** فليس من حقّي محاسبتهم ومُجازاتهم، وإنّما أمرهم إلى الله يوم يُرجَعون إليه، **﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾**. لله ما أزينَ هذا الصدق! وما أجلىٰ هذا البيان! وما أشدَّ هذا النكران للذات !

لقد بلّغ عليه السلام رسالات ربّه دون كلل أو ملل، واجتهد في إرشاد قومه وبثّ المفاهيم الإلهية والقيم الإيمانية فيهم طيلة سنوات عمره المتمادية إذ لبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً، لافتاً أنظارهم إلى قدرة الله الّتي تتجلّىٰ في خلقهم أطواراً، وفي خلق السماوت ونظامها المُتقَن، وخلق الأرض وتيسيرها للحياة وتحصيل الأرزاق.

كما وعدهم إذا هم أنابوا إلى الله واستغفروه أن يكنفهم الله بغفرانه، ويفيض عليهم من ضروب نعمه **﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾**.

لم يعبأ أكثر قومه بنصائحه ومواعظه، ولم يستضيئوا بأنوار كلماته وحكمه، وقد بلغ بهم الصلف إلى إعلان تبرّمهم منه، فخاطبوه بقولهم: **﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾**، ووصل بهم الإيغال في رفض صوت الحق ورؤية مَن ينطق به إلى أن **﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾**، وراحوا يستعملون معه أسلوبَ التهديد والوعيد، قائلين: **﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾**.

لم يكترث نوح بتهديدهم لثقته بربّه وبصيرتـه برسالته، وتحدّاهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَـانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَـذْكِيرِي بِـآيَاتِ اللهِ فَعَلى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَـأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونَ﴾ .

ولمّا يئس نوح منهم، وأوحىٰ إليه سبحانه﴿أَنَّهُ لَنْ يُـؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ دعـا عليهم قـائلاً ﴿رَبِّ لاَ تَـذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَـافِـرِينَ دَيَّـاراً﴾، فاقتضت إرادة الله باستئصالهم وتطهير الأرض منهم، وأمره بصُنع سفينة ﴿وَاْصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ، فشرع في صُنعها، فكان قومـه يسخرون منه، فيردّ عليهم قائلاً: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَـإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ* فَسَوْفَ تَعْلَمُـونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

فلمّا أتمّهاعليه السلام ، ورأى أمارة الطـوفان، حَمَل فيها المؤمنين من أهله وأصحـابه (وهم قليلون)، ومن صنوف الأحياء والحيوانات زوجين: ذكراً وأُنثىٰ.

ثمّ بـدأت الأرض تتفجّـر مـاءً، والسماء تسحّ بـا لمطـر سحّـاً، حتّى تحوّلت الأرض إلى بحار متلاطمة، ترتفع أمواجهـا كالجبال، والسفينة تجري بأصحابها في ذلك السيل الجارف، ترعاها عين الله.

وكان ابن نوح قد انتحىٰ جانباً، فناداه أبوه ليركب معهم في السفينة، فأبىٰ، ظناً منـه أنّه ينجو من الغـرق بارتقاء قمـة جبلٍ هناك، فـردّ عليه أبوه بقـوله: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾، فلم يستجب له، فغرق ببؤسه وشقائه مع سائر الكافرين.

ثمّ غـاض الماء وانحسر عن وجه الأرض، واستقـرت السفينة على الجودي، و ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بَسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾.

وبذلك طهرت الأرض من الوثن والوثنيين، والمترفين والمتكبرين العتاة.

٧

نكات وعبر

قد سردنـا لك قصة نوح مع قومـه على ضوء الآيات الكريمـة معرضين عمّا جـاء حـولها من القصص والحكـايـات الّتي ربما لا تنسجم مع القـرآن الكـريم والعقل الحصيف، بقي الكـلام في الوقفـات الّتي يستفاد منهـا تعليمياً وتـربويـاً، والعبر الّتي يمكن استلالها من خلال تدبّر الآيات:

١ . يظهر من كلام كثير مـن المفسرين أنّ نوحاً عليه السلام هو أوّل مرسل بشريعة شاملة لكلّ المجتمع البشري، وقد بُعث ومعه كتاب (سُمّي بصحيفة النور)، وهو أوّل الكتب السماويـة المشتملـة على شريعة. وممّـا استـدلـوا به على ذلك، قـولـه سبحانه: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَـى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الـدِّينَ وَلاَ تَتَفَـرَّقُـوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَـا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**﴾.[1]

قال العلاّمة الطباطبائي عند تفسيره لهذه الآية: إنّ المراد ممّا وصى به نوحاً، شريعة نوح عليه السلام ، وإنّ شـريعتـه كـانت محـدودة بمـا هـو الأهم من العقـائد والأعمال، ولذا عبّـر عنها بالتوصيـة دون الإيحاء ﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ الّذي اختصّت به شـريعة محمد صلى الله عليه وآله لكونهـا جامعة لكلّ ما جلّ ودقّ، محتـويةً على

١ . الشورى:١٣.

الأهم وغيره. [١]

وقال أيضاً: إنّ الآية في مقام الامتنان على محمد صلى الله عليه وآله وهذا يقضي بأنّ الشرائع الإلهية المنزّلة على البشر هي هذه الّتي ذكرت لا غير، وأوّل ما ذكر من الشرائع، شريعة نوح. [٢]

وممّا يعزّز ذلك، ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾[٣] حيث جاء في كثير من التفاسير أنّ المراد بأُولي العزم: من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدم من الأنبياء، وهم خمسة: أوّلهم نوح ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثم خاتم الرسل محمّد صلى الله عليه وآله. وهو المروي عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام. [٤]

روى سماعة بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عزوجل: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ**﴾ فقال: «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليه و آله وعليهم»، قلت: كيف صاروا أُولي العزم؟ قال: «لأنّ نوحاً بعث بكتاب وشريعة، وكلّ من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتّى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفراً به فكلُّ نبي جاء بعد إبراهيم عليه السلام أخذ بشريعة إبراهيم ومنهاجه وبالصحف حتّى جاء موسى بالتّوراة وشريعته ومنهاجه، وبعزيمة ترك الصحف وكلُّ نبي جاء بعد

---

١. انظر الميزان:١٨/ ٢٨. ولكن الظاهر انّ المراد من ﴿**ما وصى به نوحاً**﴾ هو قوله: ﴿**أن أقيموا الدين ولا تفرّقوا فيه**﴾ وكأنّه بدل من الموصول في ﴿**ما وصى به نوحاً**﴾ ولعلّه ـ رضوان الله عليه ـ أراد بالشريعة ما ذكرناه.

٢. الميزان:١٠/ ٢٦٣.

٣. الأحقاف:٣٥.

٤. التبيان:٩/ ٢٨٧؛ مجمع البيان:٥/ ٩٤(طبعة صيدا)؛ تفسير البيضاوي:٢/ ٣٩٨.

موسى عليه السلام أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه، حتّى جاء المسيح عليه السلام بالإنجيل؛ وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه، فكلُّ نبيّ جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه، حتّى جاء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلالٌ إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أُولوا العزم من الرسل عليهم السلام».[١]

٢. قد اشتهر بين المفسرين وغيرهم أنّ رسالات أُولي العزم من الرسل (وأوّلهم نوح)، كانت عالمية. ولعل ظاهر رواية سماعة بن مهران يؤيد هذا الرأي، حيث عطفت رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على رسالاتهم، ولا شكّ انّ رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عالمية أوّلاً وخاتمة للرسالات ثانياً. فتكون رسالة من تقدمه عالمية مثلها.

لكن الظاهر من بعض الآيات أنّه بعث إلى قومه، يقول سبحانه: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**﴾[٢]، وقال سبحانه مخاطباً نوحاً: ﴿**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**﴾[٣]؛ وإرساله إلى قومه وإن كان لا ينافي إرساله إلى غيرهم، لكن الاقتصار على القوم دون أن يكون فيه خصوصية قد يدلّ على حصر رسالته بهداية قومه.

ومع ذلك يمكن أن يقال: إنّه لم يكن في الأرض ـ حين بعث نوح ـ غير قومه وعشيرته، وعندئذٍ تكون رسالته عالمية بهذا المعنى. وقد تقدّم الحديث عن ذلك في مبحث (هل كان الطوفان عالمياً؟).

٣. إلغاء الامتيازات الناجمة عن التقديس الزائف للثروة والجاه، وخلقُ

---

١. الكافي:٢/ ١٧ـ١٨.

٢. نوح:١.

٣. هود:٣٦.

تصوّر جديد قائم على اعتبار الإيمان و التقوىٰ ملاكاً للفضل و الفضيلة، وتجسيده في الواقع باحتضان النبي نوح عليه السلام للمؤمنين المستضعفين والمحرومين والدفاع عنهم أمام دعوات المترفين الطغاة لطردهم و إبعادهم:

ما الفقرُ عارٌ و إنْ كشّفتَ عَوْرَتَهُ   و إنّما العار مالٌ غيرُ محمودِ [١]

٤ . انّ حياة النبي نوح على امتدادها كانت حياة حافلة بالجهاد والكفاح الدائبيْن، وقد واجه كلّ عناد قومه وجهلهم وتمرّدهم وسماجتهم بصبر عجيب، وعزم راسخ، واستقامة لا تعرف الزيغ والانحراف.

وتعتبر حياته عليه السلام دروساً بليغة في الإيمان بالله والتسليم له والثبات والمضيّ على الحقّ، حريّ بالعاملين من أجل تحقيق القيم والمبادئ الإلهية، أن يستذكروها كلّما ألمّ بهم ضعف أو ملل أو تعب من أهوال الطريق وشدائده.

٥ . إنّ انتهاز فرص الخير واستثمار ما أُتيح من النعم وورود ينابيع الخير، هي ضمانة الفوز والنجاة وسلامة المسيرة، و إنّ الركون إلى النفس، والانسياق وراء أهوائها يؤدي بها و يوردها موارد الهلكة.

ألا ترى ابن نوح مع قربه من منهل الخير ومصدر النور، قد زلّ وهلك، لمّا غفل عنهما، فلم يُصدر عن ذاك، ولم يستضئ بهذا:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره   إذا استوتْ عنده الأنوار والظُّلَمُ [٢]

٦ .إنّ زمام القوى المادية كلّها بيد الله جلّت قدرته، وهي سرعان ما تنهار إذا شاءت إرادته، فلا تنفع من يعتصم بها. وليس هذا دعوةً إلى رفض الأسباب

١ . البيت للشريف الرضي.

٢ . البيت للمتنبيّ.

الطبيعية وعدم الأخذ بها، بل دعوة إلى التمسك بها مع الإيمان بأنّها غير مستقلة بذاتها، بل خاضعة لإرادة الله وتعمل بمشيئته، ولذا خاب ظن ابن نوح في النجاة من الهلاك بارتقاء جبل من الجبال، لأنّ الله قضى بأن يقطع الأسباب جميعاً، غير سبب واحد (الفُلك)، وأن لا يعصم إلاّ من يعتصم به.

٧. إنّ الإصلاح والتغيير على نوعين تدريجي وجذري، ولكلّ منهما مجال خاص، فإذا ظهر الفساد في بعض جوانب المجتمع بشكل جزئي وكانت الأركان سالمة عن دبيب الفساد، فالاصلاحات الجزئية التدريجية أفضل أسلوب لإصلاح هذا المجتمع.

وأمّا إذا دبّ الفساد في أركان المجتمع وانتشر فيه بصورة وسيعة فالإصلاحات الجزئية دواء لا ينتج إلاّ الداء، فهذا المجتمع لا يصلح إلاّ بالتغيير الجذري الشامل. فإذا لم يوجد في المجتمع إلاّ الفساد ولم يكن هناك أي مناد للإصلاح فآخر الدواء الكي، ولا يصلح إلاّ بإهلاكهم وإبادتهم. وهذا هو نظير مجتمع نوح فقد طهر الله هذه الأرض من هذه العناصر الفاسدة الّتي لا تلد إلاّ الكفر والفجور، وهذه هي سيرة الله سبحانه الماضية في الأقوام الّتي تلتهم.

٨. انّ مرافقة المؤمنين وصحبة الأولياء إنّما يظهر أثرها إذا صادفت قلباً زاكياً، وأمّا إذا اسودّ القلب وانسدّت نوافذه، فالصحبة لا تلد إلاّ وزراً ووبالاً، كما هو الحال في امرأة نوح الّتي لم تنفعها مصاحبة زوجها ليلاً ونهاراً في مسكنه ومضجعه.

٩. قد يبلغ التحجّر والجمود بالإنسان إلى درجة يرفض معها كلّ مناقشة وحوار، ويُغلق نوافذ عقله أمام كلّ منطق وحجّة وبرهان، فلا يقبل إلاّ ما يمليه عليه تفكيره واعتقاده، وإن كان نتاجَ جهل وهوىً وغرور. و(البصير من سَمِعَ

فتفكّر، ونظَرَ فأبصرَ، وانتفعَ بالعِبر، ثمّ سلك جدداً واضحاً يتجنّبُ فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي).[١]

١٠. إنّ القرآن الكريم قد عرض من قصة نوح (كما هو الشأن في سائر القصص) ما هو موضع العبرة والعظة والفائدة مع مراعاة مقام النبي وسموّه وعظمته انسجاماً مع دعوة القرآن إلى إعلاء شأن القيم والفضائل وأصحابها، على خلاف التوراة المتداولة الّتي أساءت لساحته المقدّسة، استجابة لنزعة الحقد لدى اليهود وسعيهم إلى تحقير الإنسان وإهدار كرامته ونشر الفساد في الأرض.

وممّا جاء في التوراة على سبيل المثال: وابتدأ نوح فلاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر، وتعرّى في خبائه، فأبصر حام....[٢]

وثمة أُمور في قصة نوح خالف القرآن فيها التوراة الّتي تحدّثت مثلاً عن نجاة امرأة نوح، ولم تتطرق إلى قصة ابن نوح الّذي أبى أن يركب السفينة ، فكان من المغرقين.

والحقّ أنّ هذا الاختلاف يعد من الأدلّة على صدق النبي وارتباطه بالغيب **﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾**[٣]، إذ لم تكن هذه المعلومات متداولة بين أبناء عصره، كما أنّها تثبت صدق القرآن وهيمنته على سائر الكتب السماوية **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾**.[٤]

---

١. نهج البلاغة:٢١٣، الخطبة ١٥٣. والمغاوي: جمع مِغواه، وهي الشبهة يذهب معها الإنسان إلى ما يخالف الحق.

٢. الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

٣. هود: ٤٩.

٤. المائدة:٤٨.

القصص القرآنية

٤

هود

مبعوث قوم عاد

لقد شاءت إرادته سبحانه أن تستمر خلافة الإنسان في الأرض بعد أن أهلك قوم نوح بذنوبهم، إذ أنشأ من بعدهم أُمماً، كما وعد نوحاً بقوله: ﴿**يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ فكان قوم عاد (وهم من ذرية نوح) من الأُمم الّتي أخبر سبحانه أنّهم يُمتَّعون ثمّ يُعذَّبون بسبب طغيانهم، وقد بعث الله إليهم هوداً لأجل هدايتهم وتذكيرهم: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾.[1]

كما أنّه سبحانه بعث صالحاً بعد هود إلى قوم ثمود (وهم من ذرية نوح أيضاً): ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾.[2]

---

١. الأعراف:٦٥.

٢. الأعراف:٧٣.

فمصير القومين بداية ونهاية واحد.

أمّا نسب هود فيذكر المؤرخون[١] أنّه ينتهي إلى نوح بالنسب التالي: هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

والعجب انّ قصة قوم هود لم تذكر إلاّ في القرآن الكريم، ولم نجد لها أثراً في التوراة وغيرها.

كان قوم هود يسكنون الأحقاف: **﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**.[٢]

والأحقاف ـ كما يذكر عبد الوهاب النجار ـ تقع في شمال حضرموت، وفي شمال الربع الخالي، وفي شرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، ولم يتعرض أحد من الأوربيين الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم والتنقيب في أرضهم، ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة في عالم الآثار وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان، وقد أخبرني السيد عبد الله بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوي من أهل حضرموت أنّه قام في جماعة إلى إحدى المدن البائدة في شمال حضرموت ونقب فيها وعثر على بعض الآنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسماري؛ ثمّ ترك التنقيب لمضايقة البدو له و إثقال كاهله بالمطالب المالية.[٣]

---

١. تاريخ اليعقوبي، تاريخ ابن واضح الأخباريّ، ط النجف الأشرف.

٢. الأحقاف:٢١.

٣. قصص الأنبياء:٥١.

وقد ذكـر القرآن الكريم اسم النبي هـود سبع مرات،[١] واسم الذين بُعث إليهم ـ قوم عاد ـ أربعاً وعشرين مرة.[٢]

أهمّ المحاور في حياة النبي هودعليه السلام

١. خصائص قوم هود.

٢. مضمون دعوته ومنهجها.

٣. حواره مع قومه، وردّ التهم الموجهة إليه.

٤. التهديد بالعذاب.

٥. وقوع العذاب، وهلاك قومه.

٦. الدروس والعبر.

١

خصائص قوم هود

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾.[٣]

﴿أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَـادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمادِ* الّتي لَمْ يُخْلَـقْ مِثْلُهـا فِي الْبِلاَدِ﴾.[٤]

---

١. انظر: الأعراف:٦٥؛ هود:٥٠، ٥٣، ٥٨، ٨٩؛ الشعراء:١٢٤.

٢. انظر: الأعراف:٦٥ـ٧٦؛ التوبة: ٧٠؛ هود: ٥٠ـ ٦٠ و ٨٩؛ إبراهيم:٩؛ الحج:٤٢؛ الفرقان: ٣٨؛ الشعراء:١٢٣ و ١٢٤؛ العنكبوت:٣٨؛ ص :١٢؛ غافر:٣١؛ فصلت:١٣ و ١٥؛ الأحقاف:٢١؛ ق:١٣؛ الذاريات:٤١؛ القمر:١٨ : النجم:٥٠؛ الحاقة:٤؛ الفجر:٦.

٣. الأعراف:٦٩.

٤. الفجر:٦ـ٨.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.[١]

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ* وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.[٢]

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي مَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.[٣]

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.[٤]

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.[٥]

ذكر القصاصون[٦] عن قوم هود أخباراً أشبه بالأساطير ورُوي أكثرها عن كعب الأحبار ووهب بن منبّه الأبناوي الصنعاني(٣٤ـ ١١٤هـ) المعروفين برواية الإسرائيليات[٧]، ولا محيص للمحقّق إلاّ الاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم ممّا يرجع إلى حياتهم.

يقول العلاّمة الطباطبائي: وقد انقطعت أخبار قوم هود وانمحت آثارهم فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم على نحو تطمئن إليه النفس إلاّ ما قصّه القرآن الكريم من إجمال قصتهم، انّهم كانوا بعد قوم نوح، قاطنين بالأحقاف، وكانوا ذوي بسطة في الخلق، أُولي قوة وبطش شديد، وكان لهم تقدم ورقيّ في المدنية والحضارة، لهم بلاد عامرة وأراضي خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم.[٨]

---

١. الشعراء:١٢٨ـ ١٢٩.
٢. الشعراء:١٣٣ـ ١٣٤.
٣. الأحقاف:٢٦.
٤. الشعراء:١٣٠.
٥. فصلت:١٥.
٦. انظر مجمع البيان:٥/ ٤٨٦.
٧. نقل محمود أبو رية عن الأُستاذ محمد رشيد رضا أنّه قال: إنّ شرّ رواة هذه الإسرائيليات أو أشدّهم تلبيساً وخداعاً للمسلمين هذان الرجلان (يعني وهب وكعب الأحبار). أضواء على السنّة المحمدية:١٧٤.
٨. الميزان:٢٠/ ٢٨٠.

وستوافيك الآيات الّتي تؤدي إلى هذه المعاني.

لقد وصف سبحانه قوم هود بصفات عديدة، نشير إليها:

١. البسطة في الخلق

كانوا طوال الأجسام مديدي القامات، أقوياء الأبدان، حتّى أنّ الله سبحانه شبّه أجساد موتاهم بأُصول نخل بالية نخرة: ﴿**فَتَرى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾.[1]

٢. مساكنهم الرفيعة

وصف سبحانه مساكنهم بأنّها كانت ذات عماد، يقول سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمادِ * الّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ**﴾.

فقوله«إرم» عطف بيان لـ«عاد» ، والعِماد جمعه عَمَد، وهو ما تعتمد عليه الأبنية، وظاهر الآيتين أنّ إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممددة.[2]

وتحدثت آية أُخرى عن تلك الأبنية الرفيعة، حيث خاطب النبي هود قومه بقوله: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾.

والريع هو المرتفع من الأرض، والآية العلامة، والعبث الفعل الّذي لا غاية له، وكأنّهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكلّ مرتفع من الأرض أبنية كالأعلام يتنزهون فيها ويتفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك، بل لهواً واتّباعاً

---

١. انظر الميزان في تفسير القرآن:٨/ ١٧٨.

٢. الميزان:٢٠/ ٢٨٠.

للهوى، وكانوا لا يقتصرون على ذلك بل يعملون الحصون المنيعة والقصور المشيدة شأن من يرجو الخلود في الحياة. كما يشير إليه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

٣. النعم الوفيرة

كان قوم هود يتمتعون بثروة طائلة وغنىً واسع وقوة لا تُرام، ويتنعمون بعيش رغيد وحياة رافهة. فأبطرتهم النعمة، وغرّتهم القوة، وتمادوا في الظلم والفساد، فخاطبهم نبيهم بقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ* أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.[1]

٤. روح الاعتداء والتنكيل

كان قوم هود يفتكون بشدّة ويمارسون القمع بعنف اغتراراً بقوتهم وسطوتهم، كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

٥. تكبّرهم على الباري تعالى

إنّ القوة الّتي امتاز بها قوم هود، بعثت فيهم الغرور والخُيلاء والاستعلاء، وراحوا يتباهون بها قائلين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ناسين أو متناسين﴿أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[2]. انّ الداء العَياء أن يزعم الإنسان الضعيف الّذي لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا بعثاً ولا نشوراً أنّه أقوى موجود في العالم، غافلاً عن أنّه مخلوق ضعيف يقتله (الجرثوم) الصغير غير المرئي.

---

١. الشعراء:١٣٢ـ١٣٤.

٢. فصلت:١٥.

إنّ النعم الإلهيـة إذا تيسّرت للمـؤمن العـاقل، انتفع بها، وبـذَلها في سبيل الخيرات وازداد شكراً للمُنعم و إخلاصاً له، و إذا تيسّرت للجاهل العالي طغىٰ بها وبغى وأفسد.

٢

مضمون دعوته ومنهجها

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾.(١)

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.(٢)

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.(٣)

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ* أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾.(٤)

﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.(٥)

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.(٦)

---

١. هود: ٥٠.
٢. الشعراء: ١٣٥.
٣. الشعراء: ١٢٥.
٤. الأعراف: ٦٨ـ٦٩.
٥. هود: ٥١.
٦. هود: ٥٢.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[١]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.[٢]

مضمون دعوته

يستفادمن الآيات الماضية انّ مضمون دعوته، يتلخص في أُمور ثلاثة:

أ. الدعوة إلى عبادة الله وحده والتنزّه عن عبادة غيره.

ب. الانذار من عذاب الله يوم القيامة.

ج. الدعوة إلى الإيمان برسالته والتصديق بأنّه رسول من الله وأمين من جانبه تعالى.

وهذه الأُصول الثلاثة الّتي يناط بها الإيمان تجدها حتّى في الرسالة الخاتمية.

ثمّ إنّ هوداً جاء بكلمة بليغة ذكر فيها رسالات ربّه ووصف نفسه بالنصح والأمانة وأنذرهم بعذاب من تقدمهم من قوم نوح وقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، هذا ما يتعلّق بالمضمون.

وأمّا منهج دعوته، فيقوم على الأُصول التالية:

أ. عدم طلب الأجر على دعوته

إنّ سيرة الأنبياء العظام وكلّ المصلحين، جرت على الإخلاص في الدعوة

---

١. الأعراف:٦٩.

٢. هود: ٥٧.

والتبليغ وترفّعهم عن طلب الأجر، إيماناً منهم بأهدافهم وتفانيهم من أجلها، وتعبيراً عن تنزّههم عن المطامع والمآرب الشخصية. ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ علَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

ب. الرجوع إلى الله لغاية زيادة النعم

سبقه إلى هذا الوعد النبي نوح عليه السلام. والنبيّان الجليلان صدرا عن ضابطة كلية، وهي وجود الصلة بين الإيمان والاستغفار وكثرة النعم. قال نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾.[1]

وقال هود على غِرار ذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.[2]

وعلى هذا الأساس كان يذكّرهم بنعمة الله تبارك وتعالى مرة بعد أُخرى: ﴿فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ج. تحذيرهم من مغبّة العصيان

انتهج قوم هود ذات الطريق الّتي سلكها قوم نوح: إعراضاً عن عبادة الله وإقبالاً على عبادة الأوثان، وصداً عن سبيل الحقّ، وبغياً على العباد، فلا محالة إذن أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، من العذاب والانتقام.

لقد أنجز عليه السلام ما عليه من المسؤولية ، وأوضح لهم نهج الحق، وحذّرهم من مخالفته ومن الإمعان في اقتراف المظالم والمآثم، وإن هم أصرّوا على عنادهم، فليس

---

١. نوح: ١٠ـ ١١.

٢. هود: ٥٢.

على الله بعزيـز أن يهلكهم ويستخلف غيرهم في الأرض، كما فعل نظير ذلك بقوم نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.[١]

ومنهج دعوته هذا هو عين منهج نوح ومن جاء بعده من الأنبياء، إذ كلّهم ينهلون من مَعِين واحد.

٣

حواره مع قومه، وردّ التهم الموجّهة إليه

﴿قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.[٢]

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ...﴾.[٣]

﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾.[٤]

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾.[٥]

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.[٦]

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[٧]

---

١. هود:٥٧.
٢. الأعراف:٦٦.
٣. هود: ٥٣.
٤. هود: ٥٤.
٥. الأعراف:٦٩.
٦. فصلت:١٣.
٧. الأعراف:٧٠.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.[١]

﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ﴾.[٢]

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[٣]

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.[٤]

أدّى نبي الله هود عليه السلام رسالته على الوجه الأكمل، وكابد في سبيلها أنواع المشاق، وتعرّض لشتى التهم الكاذبة والاعتراضات الساذجة، شأنه في ذلك شأن النبي نوح عليه السلام ، ولم يسلم منها باقي الأنبياء عليهم السلام، بل واجه قسطاً منها المصلحون من غير الأنبياء على اختلافٍ في طريقة عرضها والتعبير عنها.

التهم الملصقة بهود:

١. السفاهة

اتهموه بخفّة العقل الّتي تُقضي إلى خَطَلِ ما يدعو إليه من آراء وأفكار. وكيف لا يرمونه بالسفاهة وهو يخالف الرأي العام، ويضادّ ما ألِفوه من عبادة

---

١. الأعراف:٦٧ـ٦٨.

٢. هود:٥٤ـ٥٥.

٣. هود: ٥٦.

٤. الأعراف:٧١.

للأوثان ومن تقاليد وثنية، اتّبعوا فيها آباءهم؟

إنّ المقلّدين والمنتفعين لا يروق لهم الإصلاح والتغيير اللّذَين ينغّصا عليهم العيش في ظل الأوضاع الفاسدة، غافلين أو متغافلين عن أنّ الرجال الإلهيين لا يكترثون لزخرف الباطل ولا لكثرة أنصاره.

٢. الكذب

والعجب أنّهم كانوا لا يقطعون بكذبه بل يقولون «نظن أنّه كاذب»، أي أنّهم يلصقون به الكذب على وجه الظنّة، لئلاّ يؤاخذوا بطلب الدليل، فلو قالوا له: «إنّك من الكاذبين» لكان من حق المخالف أن يسأل عن الدليل على ذلك. وأمّا الظن فهو أمر طارئ على القلب، وربما لا يكون له أساس.

٣. الخبل

كان قوم هود يزعمون أنّ بعض آلهتهم قد مسَّته بضُرٍّ لسبّه إياها، فصار يهذي بكلام غير معقول ﴿**إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾.

هذه هي التهم الّتي رموا بها هوداً ﷺ، والّتي تدلّ بنفسها على أنّهم لم يجدوا في حياته وسلوكه ما يَصِمونه به، وإلاّ لطبّلوا وزمّروا له، وما كلّفوا أنفسهم هذا العناء في خلق مثل هذه التهم.

الاعتراضات الموجّهة له

أمّا الاعتراضات فكانت واهية، لا تعتمد حتّى على دليل سطحي فضلاً عن غيره، وهي:

أ. كونه بشراً

اعترض المترفون المتكبرون من قوم هود وصالح على بشرية النبي، قائلين: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾.[١]

وتكرّر هذا القول من المُعرضين عن دعوة النبي: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ* وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾.[٢]

ومنشأ هذا الاعتراض هو تخيّلهم أنّ الرسول يجب أن يكون من جنس أرفع وأعلى، ولا يحصل هذا إلاّ إذا كان ملكاً لا بشراً يأكل ويشرب ويلبس مثلهم. ولكنّهم غفلوا عن نكتة مؤثرة في أمر التبليغ وهي أنّ الرسول الّذي يُبعث من نفس جنس المرسل إليهم يكون قريباً منهم قادراً على الاتصال بهم، وتفهّم حاجاتهم، ومعرفة ميولهم وطبائعهم.

ب. أُسطورة الأوّلين

تصامّ المترفون الطغاة من قوم هود عن سماع دعوة نبيّهم عليه السلام إلى توحيد الله سبحانه وطاعته، وعبّروا عن هذا التمرّد بقولهم: ﴿سَواءٌ عَلَيْنَا أَوَ عَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾، ثمّ قالوا إن سجيّتك في الدعوة سجيّة الماضين من أصحاب الأساطير والخرافات: ﴿إِنْ هٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوّلِينَ﴾.[٣]

---

١. فصلت:١٣.　　٢. المؤمنون: ٣٣ـ ٣٤.

٣. الشعراء:١٣٧. قال السيد الطباطبائي في تفسير هذه الآية: ويمكن أن تكون الإشارة بهذا إلى ما هم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من دون الله ابتداءً بآبائهم الأوّلين كقولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

ج. أين البيّنة؟

لقد بلغ قوم هود من اللجاج والعناد، والكذب في سَوق اعتراضاتهم أن ادّعوا أن نبيّهم لم يأت بحجة واضحة ودلالة كافية على صحة ما يدعو إليه: ﴿**قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ**﴾، ولكن السرّ في هذا الكذب قد بانَ بقولهم: ﴿**وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ**﴾، إذ كيف يستجيبون لما يخالف أهواءهم الفاسدة وعقولهم المتحجّرة؟ وهل تستطيب الخنازير إلاّ العيش في الأوساخ:

فنعيم الحَمام خوض أثيرٍ ونعيم الخنزير في الأدرانِ[١]

إلى هنا تعرفنا على تهم القوم واعتراضاتهم، فهلمّ معي ندرس كيف واجه النبيّ هود هذه التهم والاعتراضات حتّى أسكتهم وأفحمهم.

أمّا الاتهام بالسفاهة والكذب فأجاب عنهما بقوله: ﴿**يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾.

ففي قوله: ﴿**وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾ ردّ لكلا الاعتراضين وهو أنّه ناصح، وليس بسفيه، أمين وليس بكاذب.

ولو انّ النبي هوداً طلب من حكماء عصره أن يختبروه ويشهدوا بسلامته من الجنون والسفاهة، لعُدّ ذلك منه اعتناءً بتهمتهم، ولكن الرسول الّذي يريد هداية قومه يجب أن يكون ذا صدر رحب واسع وأن لا يهتمّ بالاعتراضات إلاّ بشكل عابر.

ثمّ إنّ من مميزات أنبياء الله ورسله هو الكفاح وتحدّي الأعداء والشجاعة في

---

١. البيت للشاعر الكبير بولس سلامة، وهو أحد أبيات ملحمته الخالدة في أهل البيت عليهم السلام.

أمر التبليغ دون تسرّب الخوف إلى قلوبهم، وهذا ما نشاهده في موقف نبي الله هود من طغاة قومه، معلناً براءته من آلهتهم التّي زعموا أنّها مسّته بسوء أفقده عقله، وخاطبهم بأنّه لا يخشى أذاهم ومكرهم بالرغم من جبروتهم وشدة بطشهم، وتحدّاهم أن يجرأوا على قتله، قال سبحانه حاكياً هذا الموقف الشجاع والحالة الروحية السامية: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ﴾.

يقول الزجّاج: وهذا من أعظم آيات الأنبياء أن يكون الرسول وحده وأُمته متعاونة عليه فيقول لهم: ﴿كِيدُونِي﴾ فلا يستطيع واحد منهم ضرّه. وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾ .[١]

ومثل هذا القول لا يصدر إلاّ عمّن هو واثق بنصر الله وبأنّه يحفظه منهم ويعصمه من أذاهم.

وممّا نلفت إليه نظر القارئ انّ المنطق الّذي اعتمد عليه الرسولان: نوح وهود، هو بذاته منطق نبيّنا محمدﷺ حيث قال: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ﴾.[٢]

---

١. يونس:٧١.

٢. الأعراف:١٩٥.

٤

التهديد بالعذاب

﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.[١]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.[٢]

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾.[٣]

﴿رَبِّ انْصُرنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾.[٤]

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾.[٥]

***

جرت سنّة الله سبحانه على أن يُوصل الإنسان إلى الكمال الّذي خلق لأجله، فمادام هو في ذلك المسير بل مادام هناك بصيص من الرجاء لوصوله إلى

---

١. الأعراف:٧١.
٢. هود: ٥٧.
٣. الأحقاف:٢٢ـ ٢٣.
٤. المؤمنون: ٣٩.
٥. المؤمنون:٤٠.

الغاية، فالقوى الظاهرية والباطنية تكون معينة له. وعلى العكس من ذلك فلو أنّ الإنسان ابتعد عن هذا المسير ولم يكن هناك رجاء لكماله فيعمّه العذاب ويختم حياته من أصلها.

وقد اتّبع هود تلك السنّة، حيث استمرّ في دعوة قومه إلى التوحيد والهدىٰ إلى أن يئس من استجابتهم وانصياعهم للحق ــ إلاّ قليلاً منهم ــ وعند ذاك هدّدهم بنزول العذاب كما هو لائح من الآيات المتقدمة، الّتي تحدثت عن استحقاقهم للرجس (العذاب) لشدة إنكارهم للحق ومجادلتهم بالباطل.

ومع هذه الإنذارات المتكررة الّتي تؤثر في أغلب الناس، ولكن قوم هود لم يعيروا لها أدنى اهتمام، ولم يبالوا وعيده، وخاطبوه بقولهم: ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.[1]

إنّ هذا التحدي والتكذيب لم يُخرج هوداً عن سَمْتِ النبي الكريم، ولم يقعده عن بيان هذه الحقيقة وهي أنّه ليس سوى رسول، وليس عليه إلاّ البلاغ، أمّا العذاب فلا يعلم وقت نزوله إلاّ الله، وهو الّذي يقدّر المصلحة في تعجيله أو تأجيله.[2] ومن هنا وصفهم عليه السلام بالجهل والجهالة، إذ لولا الجهل لما أظهروا مثل هذا التحدّي الأرعن، فإنّ احتمال نزوله ولو كان ضعيفاً يوجب عليهم التوقّي والمرونة في الكلام والتدبّر في حقيقة الدعوة.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ هؤلاء قد فقدوا الأهلية في أن يكونوا خلفاء الله في الأرض إذ يجب أن يكون بين الخليفة والمخلِف صلة معنوية، والأقوام اللجوجة العنودة الّتي تستقل العذاب لا تستحق ذلك المنصب، وعند ذلك دعا هود ربه

---

١. الأحقاف:٢٢.

٢. انظر: في ظلال القرآن:١٢/ ٣٦(الطبعة الأُولىٰ).

فقال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.[١]

فوافاه الخطاب من الله سبحانه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾.[٢]

فلندرس إجابة دعوة هود وهي، نزول العذاب عليهم و إبادتهم و إهلاكهم.

٥

وقوع العذاب، وهلاك قومه

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[٣]

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَومَ الْمُجْرِمينَ﴾.[٤]

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ﴾.[٥]

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ* فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾.[٦]

---

١. المؤمنون:٣٩.

٢. المؤمنون:٤٠.

٣. الأحقاف:٢٤.

٤. الأحقاف:٢٥.

٥. فصلت:١٦.

٦. الحاقة: ٦ـ٨.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ .[١]

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ* مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ .[٢]

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .[٣]

***

شاءت إرادته سبحانه أن يُبيد القوم الذين سخِروا من نبيّهم واتهموه واعترضوا عليه بأُمور واهية، فأرسل عليهم سحاباً أسود، خُيِّل للقوم في بادئ أمرهم أنّه سوف يُمطرهم ويسقي زروعهم، ففرحوا به، لانحباس المطر عنهم ـ كما يبدو ـ لمدة ليست بالقليلة، ولكنّهم جهلوا بحقيقته إذ كان نذير شؤم وعذاب مؤلم، إنّه ريح عصوف تحطّم كل شيء تمرّ به وتدمّره تدميراً﴿فَأَصْبَحُوا لاٰ يُرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[٤]. ولم ينج من ذلك العذاب إلاّ هوداً وأتباعه المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.[٥]

وكانت الريح عاتية باردة مهلكة، استغرق وقت هبوبها سبع ليال وثمانية أيام متتالية، تناثرت بعدها أشلاء القوم على وجه الأرض كأنّها أُصول نخل بالية، طُرحت على الأرض.

وكانت هذه الأيام الثمانية أيام شؤم عليهم، كما قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

---

١. القمر:١٩.
٢. الذاريات:٤١ـ ٤٢.
٣. فصلت:١٣.
٤. الأحقاف:٢٥.
٥. الأعراف:٧٢.

وقد أُريد من الأيّام هنا مع لياليها لما مرّ في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾.

فربما تطلق الأيام ويراد بها الأيّام مع لياليها.

وعليه، فقد بدأ العذاب نهاراً، وتم قبل ليل اليوم الثامن، فبينهما سبع ليال.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾، فاستمرار النحس كناية عن استمرار العذاب، فاستمر عليهم وفق الآيات السابقة بنحوسة سبع ليال وثمانية أيام.

هذا، وقد عبّر القرآن الكريم عن العذاب الّذي أهلك عاداً بتعابير مختلفة: ريح صرصر، والريح العقيم، والصاعقة (راجع ما تقدّم من الآيات الكريمة).

والريح العقيم هي التي لا أثر فيها لخير أو فائدة من تنشئة سحاب أو تلقيح شجر، ونحو ذلك، بل أثرها الإهلاك و التدمير والإبلاء ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي كالشيء الهالك البالي.

وأمّا الصاعقة، فهي الصوت الشديد، وقد يُطلق القرآن هذه اللفظة، ويُريد بها آثارها ومظاهرها، مثل الموت، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[١]؛ والعذاب، كقوله :﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ والنار الساقطة من السماء عن برق ورعد، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾[٢].[٣]

---

١. الزمر:٦٨.

٢. الرعد:١٣.

٣. انظر: مفردات الراغب: مادة «صعق»؛ والميزان:١١/ ٣١٧ و ١٧/ ٣٧٦.

خلاصة قصة هود﴿عليه السلام﴾

ثمة أُمّة موغلة في القِدم امتلكت أسباب القوة والعزة، فطغت واستكبرت وجحدت بربّها، فبعث الله فيهم نبياً منهم. تلك قبيلة (عاد) الّتي أورثها الله تعالى الأرض من بعد قوم نوح، ونبيّهم المرسل إليهم هود﴿عليه السلام﴾.

وكان قوم هود يسكنون الأحقاف(وهي كما يقول أهل الأخبار من أرض اليمن المتصلة بالحجاز)، وكانوا ذوي بسطة في الخلق وثروات طائلة، فاغترّوا بقوّتهم وكثرة أموالهم، حتى ظنوا وهم في سكرة غرورهم و تكبّرهم أنّهم خالدون في هذه الدنيا: يبنون القصور الفخمة على الرُّبى لهواً وعبثاً وإسرافاً ورغبة في التباهي﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾، ويسطون على الآخرين بعنف ويسلبون حقوقهم ظلماً وبغياً ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾.

شرع هود في أداء رسالته، بدعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ فردّوا عليه بعقلية المقلّد الذي حجر على نفسه التفكير ﴿**أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾، فأراد﴿عليه السلام﴾ أن يفتح عيونهم على واقع الأوثان، وينبّههم إلى حقيقتها الفارغة، فقال: ﴿**أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾ ولكنهم لم يصرّوا على تقديس عقيدة آبائهم فحسب، وإنّما سعوا ـ من أجل الحدّ من تأثير كلماته في

النفوس ـ إلى التأكيد على أنّ كلماته غير مسؤولة ولا اعتبار لها، لأنّها صادرة ـ في زعمهم ـــ عن رجل مسّتْهُ بعض آلهتهم بسوء لمهاجمته إياها، فأُصيب بالهذيان!! **﴿إنْ نَقُولُ إلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾**.

واستمروا في الضغط عليه للتأثير سلباً على منزلته الاجتماعية، فاتّهموه بالسَّفَه وخفّة العقل والكذب **﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾**.

واجه هود عليه السلام عقائد قومه وتقاليدهم واتهاماتهم الظالمة له بودٍّ وهدوء بعيداً عن التشنّج والانفعال، محاولاً إقناعهم بالدليل و البرهان، معلناً أنّه ناصح أمين، يسعى لخيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، غير طامع في أموالهم.

ولم يفتأ يذكّرهم بالنِّعم السوابغ، و الآلاء الرَّوافغ التي خصّهم الله تعالى بها، ويعدُهم بأن تكثر خيراتهم، وتشتدّ قوّتهم إن هم أنابوا إلى ربهم، وسلكوا طريق الهدى والتقوىٰ ولم يزيغوا عنه **﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلَى قُوَّتِكُمْ﴾**، ويحذّرهم في الوقت نفسه من المصير القاتم الّذي يلاقونه إذا تمادوا في إعراضهم عن الحق والعدل، وأنّ الله قادر على أن يستخلف قوماً غيرهم ولا يضرونه شيئاً.

لم تلق كلُّ هذه المواعظ والنُّذُر آذاناً صاغيةً منهم **﴿سَواءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾**.

لقد تبلّدت أفكارهم وتجمّدت مشاعرهم وماتت قلوبهم، فلم ينتفعوا بها **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾**، ومن هنا طلبوا من نبيّهم ـ في تحدّ أجوف ـ أن يأتيهم بالعذاب الّذي أوعدهم به **﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**، فأجابهم عليه السلام بلهجة

الصادق الناصح: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾.

ثمّ التجأعليه السلام إلى ربّه القوي العزيز بعد أن يئس من إجابتهم لدعوته وانقيادهم للحق مستمداً منه النصر ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فوافاه جواب الربّ القدير ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، وجاء أمره سريعاً حاسماً، جزاءً وفاقاً لاستكبارهم وعتوّهم واستعجالهم للعذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا عصفت بهم الريح ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ وتركتهم أشلاء متناثرة مجدَّلة على الأرض، كأنّها ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، واستؤصل جميع المترفين الطغاة ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، وأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم، ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه، ونجّاهم من عذاب غليظ.

٦

الدروس والعبر

في قصة هود مع قومه دروس وعبر، نشير إلى جانب منها:

١. المثابرة والتحمّل في طريق الدعوة، ومواجهةُ تكذيب القوم وعنادهم بعزم لا يلين، وثقة بالله لا تتزعزع، ومحاورتهم بمودة وصدق وجرأة في كلّ ما أثاروا من شبهات، واختلقوا من اتهامات.

٢. الترغيب إلى الإيمان عن طريق التذكير بنِعَم الله عليهم: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ

الله﴾، وفي الوقت نفسه يُلفت نظرهم إلى العوامل الغيبية وهي أنّ الإيمان والرجوع إلى الله تعالى يفتح أبواب السماء عليهم، قال عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً**﴾.

وفي هذا أُسوة لكلّ مصلح إلهي، فعليه أن يدخل من بابي التذكير بالنعم الموجودة، ثمّ الوعد بالمزيد من النعم الّذي هو رهن الرجوع إلى الله.

٣. الصلابة في الموقف، وعدم التردد والمساومة مع الأعداء في القضايا الهامة الّتي تتصل بالمبدأ والعقيدة، قال: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾، والسرّ في هذا الحزم هو قوله: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾، فهل يحسّ إذن بخوف أو وجل أو يشعر بضعف أو وهن، وهو يثق بالخالق القادر المهيمن كلّ هذه الثقة، ويطمئن إلى وعده كلّ هذا الاطمئنان؟ وهذا درس بليغ لكلّ المصلحين والعاملين في سبيل الله ، الذين قد تدفع بهم الضغوط إلى المساومة مع الأعداء، والتراجع عن مواقفهم الأساسية.

وما ذكرنا من خصائص، لا تنحصر بهود عليه السلام، بل هي بارزة في حياة كافة الأنبياء، لا سيما النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم الذي أمره الله أن يقول: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾.[1]

٤. انّ الغِنىٰ والثروة والقوة من نعم الله سبحانه، الّتي يستوجب شكرُها استعمالها في ما يرضي الله تعالى، واستثمارها في كلّ ما يعود على الفرد والمجتمع من خير ونفع ورُقيّ وتقدّم.

وقد يُساء استعمال هذه النعم، باتّخاذها وسائل إلى اللهو والعبث،

---

١. الكافرون:١ـ٢.

والاستغلال والاستعلاء على الآخرين واستعبادهم والبطش بهم.

ولا شكّ في أنّ مآل من يغترّ بها ويستكبر إلى الهلاك والزوال والخسران المبين.

وصفحات التاريخ ـ القديم والحديث ـ مليئةٌ بالشواهد على النهاية المأساوية للأُمم الطاغية (ومنهم قوم هود). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعتبروا بما أصاب الأُمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثُلاته، واتّعِظوا بمَثاوي خدودهم، ومصارع جنوبهم».[1]

---

١. نهج البلاغة: ٢٩٠، الخطبة ١٩٢ (وتسمى القاصعة). والمثُلات: العقوبات، ومَثاوي جمع مَثْوىً: المنزل، والمعنى. مواضع خدودهم من الأرض بعد الموت.

القصص القرآنية

٥

النبي صالح وقوم ثمود

تعلّقت مشيئة الله سبحانه بهداية البشر إلى الحياة الروحية بالإضافة إلى حياتهم المادية، وذلك من خلال بعث الأنبياء إليهم، كما شاءت إرادته تعالى أن يصبّ العذاب على الأُمم الغابرة ويهلكهم إذا أظهرت الأمارات القطعية أنّهم لا يؤمنون بل يستكبرون ويمكرون، كما عرفنا ذلك في دراستنا لحياة قوم نوح، وقوم هود.

ثمّ ورث قوم ثمود الأرض من بعدهم، وأرسل إليهم نبيّهم صالحاً. وهو عليه السلام ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن ممّن دعوا إلى التوحيد وناهضوا الشرك، ذكره تعالى بعد نوح وهود.

وقد ذكرت قصة ثمود في القرآن الكريم في السور التالية: الأعراف، هود، الحجر، الشعراء، النمل، فصلت، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الشمس، وورد اسم صالح فيها تسع مرات.[1]

---

١. الأعراف:٧٣، ٧٥، ٧٧؛ هود: ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩؛ الشعراء:١٤٢؛ النمل:٤٥.

تعرفت سابقاً على نسب النبي هود عليه السلام وامّا نسب صالح فهو من ولد ثمود أي ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. ولعل بين صالح وثمود وسائط كثيرة، لأنّ نسب هود يتصل بنوح بسبع وسائط، فلو كان صالحاً من أحفاد ثمود بلا واسطة لكانت الوسائط أقل من هود، لأنّه يتصل به بأربع وسائط، فيكون أقرب إلى نوح مع أنّه متأخر عنه[١].

وأمّا ابن كثير فقد ذكر نسبه كالتالي: صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود.[٢]

ويظهر ممّا ينقله سبحانه عن النبي موسى عليه السلام أنّ هاتين الأُمّتين العربيتين ـ أعني: عاداً وثمود ـ قد بادتا وانقطعت أخبارهما ولم يبق في أيدي الناس إلاّ شيئاً قليلاً من أخبارهم، يقول سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿**وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ* أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**﴾.[٣]

أهمّ المحاور في دعوة صالح عليه السلام

١. خصائص قوم صالح عليه السلام

٢. مضمون رسالته وأسلوب دعوته

٣. حواره مع قومه، وردّ التهم الموجهة إليه

---

١. لاحظ نسبه في مجمع البيان:٢/ ٤٤٠؛ قصص الأنبياء للراوندي:٩٥.

٢. لاحظ قصص الأنبياء لابن كثير:١١٥.

٣. إبراهيم:٨ـ ٩.

٤ . الناقة معجزة صالح عليه السلام

٥ . عقر الناقة، ونزول العذاب

٦ . الدروس والعبر

و إليك دراسة هذه المحاور واحداً بعد آخر.

١

خصائص قوم صالح عليه السلام

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .[1]

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ* وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ* وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ .[2]

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنا آمِنِينَ* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ* وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ .[3]

***

عاش قوم ثمود بعد قوم هود بشهادة قوله سبحانه: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ** ﴾، وكان موطنهم ـ كما اشتهر بين المفسرين وأهل الأخبار ـ

---

١ . الأعراف:٧٤.

٢ . الحجر:٨٠ـ ٨٢.

٣ . الشعراء:١٤٦ـ١٤٩ .

بين الحجاز والشام شمالي وادي القرى، وقال كثير من المفسرين إن (الحجر) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو اسم البلد الّذي كانوا فيه. وقيل: كلّ مكان أُحيط بالحجارة يُسمى حِجراً.[١]

ويظهر من بعض الآيات أنّ بلدهم كان غير بعيد عن قريش ومن حولهم، لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[٢]

فقوله: «تلك» إشارة إلى أمكنتهم ولفظ الإشارة (تلك) وان تستخدم للإشارة إلى البعيد لكن الإشارة تفيد أنّ بيوتهم كانت مشهودة ولو عن بعد.

وكان قوم ثمود يسكنون في طرازين من البيوت: القصور المنيفة، المبنيّة في السهول، وكانوا يقيمون فيها صيفاً؛ والبيوت المنحوتة في الجبال، وكانوا يقيمون فيها شتاءً.

وكانوا في أمنٍ ورخاء ورغَد من العيش، وكانت حياتهم الاقتصادية تقوم بالدرجة الأُولى على ازدهار زراعتهم، إذ كانوا ينعمون بحقول زاهية وبساتين غنّاء ومياه غزيرة: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ* أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾.

وبما أنّ حياتهم كانت مرتبطة بعيون الماء، فربما حصل نزاع بينهم في مقدار الاستفادة منها، كما سيوافيك بيانه.

---

١. التفسير الكاشف: ٤/ ٤٨٦.

٢. النمل: ٥٢.

٢

مضمون رسالته وأُسلوب دعوته

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.[١]

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ... فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.[٢]

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.[٣]

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلى رَبِّ الْعَالَمِينَ* ... وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾.[٤]

***

١. الأعراف:٧٣.

٢. الأعراف:٧٤.

٣. هود: ٦١.

٤. الشعراء:١٤٢ـ ١٤٥، ١٥١ـ ١٥٢.

مضمون دعوته

ابتلي النبي صالح عليه السلام بقوم مشركين، يقدّسون عقائد الآباء، ويخضعون لزعمائهم المترفين المفسدين، فدعاهم عليه السلام إلى عقيدة التوحيد وطاعة الله وتقواه، وإلى تحرير أفكارهم من ربَق التقليد الأعمى، وتحرير إرادتهم من تسلّط الجبابرة المسرفين الذين لا يقودونهم إلاّ إلى الذلّ والهوان، والفساد و الدماء: **﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* ... وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾**.[1]

ونداء النبي صالح هذا هو عين هتاف بقية الأنبياء الذين سبقوه والذين جاءُوا من بعده، كنوح وهود وإبراهيم ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وأمّا أُسلوب دعوته فيتلخص في ثلاث نقاط:

١. التذكير بالنِّعم الإلهية الّتي تقتضي التوجّه إليه سبحانه بالشكر والعبادة والطاعة **﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ... فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾**، **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾**.[2]

٢. النهي عن الانغماس في الملذّات ومتابعة المفسدين **﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ...﴾**.

٣.الإخلاص في الدعوة والذوبان في أهدافها الإلهية، والزهد في المال والرئاسة: **﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ... * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

وهذا شعار عامة الأنبياء وقد نقله سبحانه في تلك السورة عن غير واحد منهم.

---

١. الشعراء:١٥٠ـ١٥٢.

٢. هود:٦١.

٣

حوار صالح مع قومه، وردّ التهم الموجهة إليه

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ* مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[1]

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.[2]

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ* فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ* أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.[3]

اتُّهم صالح كسائر من تقدّمه من الأنبياء بعدد من التهم واعتُرض عليه باعتراضات نذكر منها:

١. كونه مسحوراً

اتهموه بأنّ ساحراً سحره وأفسد عقله فصار لا يدري ما يقول، وهو تعبيرٌ آخر عن كونه مجنوناً معلولاً. وقد مرّ صالح على هذه التهمة مرور الكرام، لأنّ الإجابة عنها نوع اهتمام بالتهمة.

---

١. الشعراء:١٥٣ـ ١٥٤.
٢. النمل:٤٧.
٣. القمر:٢٣ـ ٢٥.

٢. كونه بشراً مثلهم

أنكر قوم صالح ـ كقومي نوح وهود ـ أن يكون النبي بشراً مثلهم، وكأنّهم ينطلقون ـ في هذه النظرة ـ من واقع نفسياتهم الخالية من كلّ الفضائل والسجايا الفاضلة، ولم يتصوروا أنّ الأنبياء يحملون من الخصائص الكريمة والمواهب الرفيعة ما يجعلهم قادرين على حمل أمانة الرسالة الإلهية والدعوة إليها بكلّ جدارة.

٣. التطيّر

لم يشأ المترفون العتاة أن يتعرفوا على الأسباب الحقيقية لما يقع من أُمور، ولم يجدوا ـ إمعاناً في إعراضهم عن الهدىٰ ـ أسهل من أن يعلّقوا كلّ ما أصابهم من محن وبلايا على شمّاعة خصومهم: النبي صالح والمؤمنين به. ومن هنا عبّروا عن تشاؤمهم منهم ﴿**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**﴾.

ولم يدركوا أنّ الله الّذي تنتهي إليه جميع الأسباب، شاءت حكمته أن يختبر عباده بالخير والشر ليتميز المؤمن من الكافر، ومن يعبد الله على يقين ممّن عبده على حرف فإن أصابه شر انقلب على عقبيه.

٤

الناقة معجزة صالح

المعجزة الصارمـة القاطعة للعذر الّتي اشترك بها جميع الأنبيـاء هي، إتقان الدعـوة وانسجامها مع فطرة الإنسـان، فإنّ دين الله هو الدين الفطـري الّذي لا يشذ عن متطلبـات الإنسان وحاجاتـه، ولو كان بغير هذه الصفـة والميزة لكشف ذلك عن صدوره عن غير الله تعالى.

كما أنّ معجزة كلّ نبي تـوافق عصره الخاص والفن الرائج فيـه، حتّى يكون تحدِّيه بها وعجز الناس عن الإتيان بمثلها دليـلاً على صدق دعوته لصدورها عن قدرة إلهية لا عن قدرة بشرية.

هـذه هي السنـة الـرائجـة في دعـوات الأنبيـاء جميعـاً، وقلّما يتّفق أن تأتي المعجـزات على يـد الأنبياء حسـب طلبات أقـوامهم ومقترحـاتهم، لأنّ رغبـاتهم ومشتهياتهم لا تقف عند حد، مـاداموا منقادين لأهوائهم، ومصرّين على تعنّتهم ومكابرتهم.

وربّما تقتضي المصلحة إجـابة بعض طلباتهم ومن ذلك معجـزة صالح عليه السلام حيث طلب منه قـومه أن يأتيهم بآية تـدلّ على صدق نبوته، فأرسل الله لهم نـاقة كمعجزة من المعجـزات الخارجة عن القوانين الطبيعية المألوفـة. روي أنّهم سألوه

أن يخرج لهم من إحدى الصخور ـ و أشاروا إلى صخرة منفردة ـ ناقة مخترجة جوفاء وبراء (والمخترجة ما شابه البخت من الإبل) وقالوا :إن فعلت صدقناك وآمنا بك، فسأل صالح الله سبحانه ذلك فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه، ثمّ اضطربت كالمرأة يأخذها الطلق ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء.[١]

وروي أيضاً أنّه عليه السلام قال لقومه: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الّذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقون بما أُرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثمّ قام إلى مصلاّه فصلى لله عزّ وجلّ ما قدر له، ثمّ دعا ربّه عزّ وجلّ أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الّذي طلبوا، أو على الصفة الّتي نعتوا.[٢]

ومهما يكن، فقد أوحى إليه تعالى بأنّه سيرسل الناقة اختباراً لهم ليتميز المطيع من العاصي والطيب من الخبيث: **﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾**.[٣]

وأمرهم نبيُّهم أن يتركوها وشأنها، ترعى حيث شاءت في أرض الله، وأن يكون الماء مناصفة بينهم وبينها، هم يحضرون يوماً لاستيفاء نصيبهم من الماء، وهي تحضر يوماً، وحذّرهم من التعرّض لها بأذىً، فيُعرِّضوا أنفسهم للانتقام الإلهي الشديد: **﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾**[٤] ، **﴿هذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ**

---

١. انظر: مجمع البيان:٢/ ٤٤١.
٢. قصص الأنبياء لابن كثير:١٢٠.
٣. القمر:٢٧.
٤. الأعراف:٧٣.

وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[١]، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾.[٢]

وأسفر الامتحان والاختبار عن النتيجة الّتي كان يتوقّعها ويحسّ بها نبيّهم عليه السلام من خلال التأكيد عليهم بقوله: ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾، إذ أقدم الطغاة على قتلها، وبان بذلك فساد نياتهم، وخبث طويّاتهم، وسوء فعالهم.

٥

عقر الناقة ونزول العذاب

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ* قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ* وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ* فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.[٣]

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ* فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.[٤]

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ* فَلَمَّا

---

١. الشعراء:١٥٥.
٢. القمر:٢٨.
٣. النمل:٤٨ـ ٥١.
٤. الأعراف:٧٧ـ ٧٩.

جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَومَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ* وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ* كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾ .[١]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ* فَمَا أَغْنى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .[٢]

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ* فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .[٣]

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ* فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ .[٤]

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمحتَظِرِ﴾ .[٥]

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ .[٦]

***

تدلّ الآيات الكريمة السابقة على أنّ قوم صالح تآمروا عليه بمؤامرتين:

الأُولى: التخطيط لقتله على النحو الّذي يحكيه سبحانه عنهم، حيث ائتمر أشرارهم فيما بينهم على قتل صالح، وحلفوا بالله على تنفيذ هذه الجريمة بمباغتته وأهله ليلاً ـ لكي لا يراهم أحد ـ وقتلهم جميعاً، فإذا طولبوا بقتله، يجيبونهم بأنّهم لم يقتلوه ولا يدرون من قتله وأهلكه!!

وهذا العزم منهم على القتل سمّاه سبحانه مكراً، وقد أبطل الله مكرهم بأن

١. هود:٦٥ـ ٦٨.
٢. الحجر:٨٣ـ ٨٤.
٣. الشعراء:١٥٧ـ ١٥٨.
٤. الذاريات:٤٣ـ ٤٤.
٥. القمر:٢٩ـ ٣١.
٦. الحاقة:٥.

عجّل بهلاكهم، وصرف عنه شرّهم. روي أنّهم قد دخلوا على صالح ليقتلوه فأنزل الله سبحانه الملائكة فرموا كلّ واحد منهم بحجر حتّى قتلوهم وسلم صالح من مكرهم.

وروي أيضاً أنّ الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم واستأصلهم بالعذاب.[١]

وقد سمّىٰ تعالى إبطال مكرهم مكراً من باب المشاكلة ﴿**وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ**﴾.

وقد فشلت تلك المؤامرة وخاب القوم في إدراك أُمنيتهم.

وأمّا المؤامرة الثانية: فهي الإقدام على نحر الناقة، جرأة على الله، واستهانة بآياته وبيّناته، وقد عبرّوا عن شديد عداوتهم للحقّ وغوايتهم وغلظتهم بأن طلبوا من نبيّهم في تحدٍّ صلفٍ أجوف أن يأتيهم بالعذاب الّذي توعّدهم به ﴿**يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾.

إنّها لجريمة كبرىٰ أن تُنال بسوء آية لله تتجلّى فيها عظمته سبحانه، فتحرم الأُمّة من خيرها ونفعها. ومن هنا وُصف عاقر الناقة بأنّه أشقى الأوّلين، ووصف من غال الآية الكبرى، ووصيّ المصطفىٰ بأنّه أشقى الآخرين.

روى الثعلبي في تفسيره باسناده مرفوعاً إلى النبيﷺ قال: يا علي أتدري من أشقى الأوّلين؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم قال: عاقر الناقة، قال: «أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: قاتلك...».

وفي رواية أُخرى قال: «أشقى الآخرين من يخضب هذه من هذه وأشار إلى لحيته ورأسه».[٢]

---

١. مجمع البيان:٤/ ٢٢٧.

٢. مجمع البيان:٢/ ٤٤٣.

هذا، وقد وردت في كيفية عقر الناقة وملابسات هذه الجريمة أخبار عن كعب الأحبار لا ينبغي الركون إليها، ولذا أعرضنا عن ذكرها.

كيفية نزول العذاب

عبّر القرآن الكريم عن نوع العذاب الّذي هلكت به ثمود بتعابير مختلفة (انظر الآيات المتقدمة)، وهي:

أ. الرجفة، وهي: الاضطراب والاهتزاز الشديد.

ب. الصيحة، وهي: الصوت الشديد.

ج. الطاغية، وهي: الواقعة المجاوزة للحدّ في الشدة.

د. الصاعقة.

والظاهر أنّ العذاب الّذي استأصل الله به ثمود كان صاعقة سماوية، وسائر التعابير وصف لها ولآثارها، لأنّ الصاعقة تقترن عادة بصوت شديد مُدوّ: ﴿الصَّيْحَةُ﴾، ارتجفت من هوله قلوبهم وارتعدت فرائصهم: ﴿الرَّجْفَةُ﴾، أو رافق ذلك اهتزاز في الأرض واضطراب وانهيار فيها، فالتصقوا بالأرض وانكبّوا على وجوههم صرعىٰ: ﴿جَاثِمِينَ﴾.

والصاعقة كما يعرّفها علماء الطبيعة، استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب فيحصل من ذلك البرق الشديد ثمّ الرعد، بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كلّ مكان الاستفراغ ، وذلك هو الصيحة.[1]

---

١. قصص الأنبياء للنجار:٦٦.

قد أعذرَ من أنذر

ولمّا رأى صالح مصارع قومه وما حلّ بهم من العذاب، خاطبهم وهو مُعرض عنهم محمِّلاً إيّاهم مسؤولية ما حدث، خاطبهم بأنّه قد أدّى رسالته إليهم كاملة وبذل لهم النصح، ولكنهم أبوا إلاّ العناد والشقاق ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.[١]

لقد جنوا على أنفسهم بطغيانهم ومتابعة أهوائهم فلاقوا مثل هذا العذاب والهوان، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وهذا الخطاب الّذي وجّهه إليهم صالح عليه السلام يدلّ على وجود الصلة بين الأحياء والأموات وإلاّ لكان خطاباً لاغياً صادراً عن وجه غير صحيح.

وقد صدر مثل هذا عن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث خاطب عدداً من قتلىٰ قريش بعد إلقاء أجسادهم في القليب[٢]:

«يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسرّكم أنّكم أطعتم الله ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً؟» قال(الراوي أبو طلحة الأنصاري): فقال عمر: يا رسول الله ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والّذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».[٣]

كما روي في هذا الشأن أنّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ركب دابّته ــ بعد انتهاء حرب الجَمل في البصرة ــ وصار يتخلّل القتلى، حتّى مرّ على

---

١. الأعراف:٧٩.

٢. القليب: البئر.

٣. صحيح البخاري:٥/ ٨، كتاب المغازي، باب غزوة بدر. وانظر: صحيح مسلم:٨/ ١٦٣،باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

كعب[١] بن سور فوقف عليه، وهو صريع بين القتلى:

فقال ـ لمن حوله ـ: «أجْلِسُوا كَعْبَ بن سُور».

فأجلسوه بين شخصين يمسكانه، فقال عليه السلام:

«يا كعب بن سُورا قد وَجَدْتُ ما وَعَدَني ربّي حَقّاً، فهل وجدتَ ما وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقّاً»؟!

ثمّ قال: «أضجِعُوهُ».

وسار قليلاً حتّى مرّ بطلحة بن عبدالله صريعاً فقال:

«أجلِسوا طلحة».

فأجلسوه، فقال عليه السلام: «يا طلحة! قد وجدتُ ما وَعَدَني رَبّي حقّاً، فهل وجدتَ ما وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقّاً»؟!

ثمّ قال: «أضْجِعُوا طَلحَة».

فقال له رجل:

يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟!

فقال عليه السلام: «يا رجل والله لقد سمعا كلامي، كما سمع أهلُ القليبِ كلامَ رسول الله».[٢]

---

١. كعب بن سور: تابعي، ولي قضاء البصرة لعمر ثم لعثمان، وشهد وقعة الجمل مع عائشة، وكان خِطام الجمل في يده. أسد الغابة: ٤/ ٢٤٢؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٤.

٢. حرب الجمل للشيخ المفيد: ١٩٥.

خلاصة قصة صالح عليه السلام

تعتبر ثمود ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ من الأُمم التي كان لها شأن حضاريّ وعمرانيّ. أقاموا ـ كما هو المشهور ـ بين الحجاز والشام شماليّ وادي القرىٰ، ونشأوا بعد (عاد) الذين قصم الله ظهور جبابرتهم وأشياعهم بريح عاتية، لم تُبق منهم باقية.

بعث الله تعالى إليهم نبياً منهم وهو صالح عليه السلام، فذكّرهم بنعمة الاستخلاف هذه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ وبصنوف النِّعَم الّتي كانوا يعيشون في ظلالها راغدين، حيث القصور الّتي ترقد آمنة في السهول الخضراء، المنتشية بالعيون الجارية، والمزهوّة بالنخل الباسق اليانع الثمر، وحيث البيوت الّتي تركن في الجبال، ينحتونها من صخورها في فرح وبطر ﴿فَارِهِينَ﴾.

ولكنّهم ـ لجهلهم وشقائهم ـ لم يعتبروا بما أصاب أسلافهم من بأس الله، بل اقتصّوا أثرهم في الشرك والترف و الاستعلاء، فدعاهم عليه السلام إلى نبذ الشرك، و إلى عبادة الله الّذي خَلَقهم من الأرض الّتي ينعمون بخيراتها، ووهبهم القدرة على إحيائها و إعمارها ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

كما حذّرهم من الاسترسال مع شهواتهم والإفراط في ملذّاتهم، وأنكر عليهم الخضوع والاستسلام لإرادة الزعماء المترفين الذين لا همّ لهم إلاّ إرضاء نزواتهم

ومطـامعهم، غير مبـالين بـالإصـلاح وبنـاء الحيـاة القـويمـة ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾.

وأعرب عليه السلام عن إخـلاصه لـرسالتـه، وحرصـه على قومـه، وبُعده عن أيـة مصلحة شخصية يستهدفهـا، بكلماته ومواقفه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. ولكنّهم واجهوا ذلك كلّـه بالـرفض و التعنّت، و إطلاق التهم والشبهات، ونسج الافتراءات. فالرسالة السماوية يجب أن تخضع ـ حسب تفكيرهم المحـدود ـ إلى مقـاييسهم واعتبـاراتهم، ولـذا قالـوا: ﴿أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾. إنّ اتّباعنا لصالح ـ كما يـزعمون ـ هو عين الضلال والجنون﴿إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ لأنّه لا يميّزه عنّـا شيء، فهو إذن ﴿كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ يريد أن يتعاظم علينا ويطغى، بل هو مسحور يُخيّل إليه أنّه رسول من عند الله.

وحـاولوا استـدراجه إلى قيمهم الـزائفة بـأُسلوب خبيث ظـاهره نصيحـة وباطنـه خديعـة، ويهدف إلى إغرائه بإعادة التفكير في دعـوته الّتي خسّرتـه ـ كما يدّعون ـ ما كانوا يتأمّلون له من دور نافع لقومه ومكانةٍ لديهم ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَـكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

ثمّ راحـــوا يمارسـون الضغط على أتبــاعــه المستضعفين لعــزلهم عنـه عليه السلام وإعـادتهم إلى دائرة سيطرتهم ونفـوذهم من خـلال زرع بذور الشك في نفـوسهم لزلـزلة عقيدتهم وإيمانهم بنبيهم ورسـالته ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّـذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَـوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُـوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّـهِ* إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

ولمّا يئسوا من ثني صالح عليه السلام وأصحابه عن إيمانهم وعزمهم على المضيّ في طريقهم اللاحب، طلبوا منه أن يأتيهم بآية بيّنـة تؤكد نبوّته، ولعلّهم يبغون بذلك ـ إذا لم يستجب لمقترحهم ـ تبرير مناهضتهم له و إثارة الرأي العام ضده، ولكنّه ـ بمشيئـة الله ـ وافق على ذلك، فأتـاهم بالنـاقة بطـريقة إعجـازية، وأمـرهم أن لا يصيبوها بأذىً، وقال: **﴿هَذِهِ نَـاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ* وَلاَ تَمَسُّـوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**.

استهان الـرهط المفسدون بهذا الإنـذار، وضاقـوا ذرعاً بالنـاقة وصـاحبها، فدبّروا مؤامـرتين: الأُولى مباغتة صالح وأهله ليلاً وقتلهم جميعـاً، والثانية الإقدام على قتل الناقة، فانبعث أشقى القـوم فعقرها، فقال عليه السلام :**﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّـامٍ ذَلِكَ وَعْـدٌ غَيْرُ مَكْـذُوبٍ﴾**، ثمّ جـاء أمـر الله **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾**،فانكبّوا على وجوههم خوفاً ورعباً وأصبحوا جثثاً هامدة لا حراك فيها، ونجّى الله صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منه وفضل.

لقد انطـوت حياتهم الصـاخبة بـالظلم والمجُون في لحظـة واحدة **﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾** ألا بُعداً لهم وسُحقاً.

٦

الدروس والعبر

في قصة صالح نكات وعبر نشير إلى بعضها، وللقارئ أن يستخرج ما يَعِنّ له منها:

١ . إنّ الأُمّة الّتي تسيء التعامل مع الثـروات، والقوىٰ والنِّعَم الّتي تمتلكها،

بأن تطغىٰ وتستكبر بها على الله وعلى عبـاده، وتتخـذهـا أداة للفسـاد والإفسـاد والظلم والاستغلال والقهـر للمحرومين واستعبادهـم. إنّ مثل هذه الأُمّـة لابدّ أن تتقوّض أركانها، وتتزعزع دعائمها، وتؤول إلى الدمار والهلاك.

وتلك كـانت رسالة صـالح عليه السلام إلى قومـه ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* ... وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ**﴾، ولكنّهم لم يستجيبوا لها ﴿**فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ* كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا**﴾.

ولا شكّ في أنّ استثمار النعم والثـروات في البنـاء والإعمار وتحقيق الأمن والـرخـاء على أسـاس من الإيمان والعدل والتعـاون والإخـاء، يمنح الأُمـة القـوة الحقيقية، ويمدّها بأسباب بقائها واستمرار حضارتها.

٢. إنّ المترفين الطغاة وأصحاب المنافع، قد يلجأون إلى أسلوب إلقاء بذور الشك والتردد في قلوب المؤمنين لزعزعة إيمانهم، مستهدفين عرقلة سير تقدّمهم في طريق الهدىٰ وتفـانيهم في سبيل القيم الّتي يؤمنون بها والتفـافهم حول محور الحق المتمثّل في القائد الإلهي ﴿**قَالَ الْمَلأُ الّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾.[1]

ولكنّ المؤمن الواعي المطمئن إلى إيمانـه، والموقن بصحة طريقه وهـدفه، لا تنبت في قلبه مثل هذه البذور، لأنّه (من اليقين على مثل ضوء الشمس)[2]، كما هو الشأن في أصحـاب النبـيّ صـالح، الـذين عبّروا عن إيمانهم بنبيّهـم بكلّ جـرأة ووضوح قائلين ﴿**إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾.[3]

---

١. الأعراف:٧٥.

٢. نهج البلاغة:١١٨، الخطبة ٨٧(في بيان صفات المتقين...).

٣. الأعراف:٧٥.

٣. يحاول المستكبرون الضغط على المصلحين والعـاملين في سبيـل الله بمختلف الأسـاليب لحملهم على الكف عن أعمالهم الإصلاحيـة والتراجع عن مسيرتهم الـربانيـة، ومنهـا هذا الأسلـوب النـاعم المخـادع الّذي يظهـر الحرص والاهتمام على مستقبلهم، والتأسف على مـا يفوتهم من منـزلـة اجتماعية مـرموقـة بسبب التزامهم برسالة التغيير والإصلاح ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1] لقد كنّا نتطلّع إلى أن تقوم بـدور إيجابي يعود بالخير على أُمّتك، لِما نعلم مـا أنت عليه من مواهب وخصائص متميـزة، ولكن خاب رجاؤنا فيك بـدعوتك الجديدة الّتي لا تمتّ بصلة إلى أفكارنا وعقائدنا الّتي ألِفناها ونشأنا عليها جيلاً بعد جيل. بيد أنّ صالحاً عليه السلام لم ينخدع بهذا الأُسلـوب الذي يحاول أن يـرسّخ المقاييـس الاجتماعية المنحرفـة والقيم الزائفـة بل صارحهم بأنّه واثق بـربّه، وبصحـة دعوته، وسـلامة مسيرته، ولا يخشى سوى الزيغ عنها ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾.[2]

٤. انّ الموت ليس نهايـة الحياة، بل أنّ حقيقتـه هي الخروج من دار إلى دار ومن حياة إلى حيـاة أعلى، ويشهد على ذلك خطاب صـالح لقومه الـذين صُرعوا وأصبحوا جثثاً هامدة، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق.

٥. انّ السعادة والشقاء بيد الإنسان، فمن آمن وعمل صالحاً واتّقى مخالفة ربّه، رافقتـه السعادة وحالفتـه النجاة، وأمّـا إذا عصى الله تبارك وتعالى فـالشقاء قرينه والعذاب مصيره. وما صُعق قوم صـالح إلاّ بالذنب الّذي ارتكبوه والمعصية

١. هود:٦٢.

٢. هود: ٦٣.

الّتي اقترفوها ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا* وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.[١]

٦. إنّ القوى الطبيعية و إن كانت تجري وفق قوانين ثابتة، وأسباب منتظمة تنتهي إلى الله تعالى الّذي قدّرها وأحكم وضعها، إلاّ أنّ هذه القوى تبقى مسخرة له منقادة إليه، لا تتخلف عن أمره و إرادته، يسخّرها كيف شاء ومتى شاء، فقد يُرسلها رحمة، وقد يرسلها عذاباً، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمّن كتب له السلامة، كما صرفه عن المؤمنين المستضعفين من قوم صالح الذين قضى سبحانه بإنجائهم، و إهلاك الطغاة منهم بصاعقة تركتهم هشيماً تذروه الرياح ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.[٢]

٧. إنّ غياب عنصر الرفض في الأُمّة تجاه الطغاة العتاة الفسقة، والاستسلام لمظالمهم ومآثمهم وجرائمهم، والرضىٰ والقبول بها، إنّ ذلك يجعلها شريكة لهم في أفعالهم الشنيعة، ويجعل مصيرها كمصيرهم، ونهايتها كنهايتهم الّتي لا تنفكّ عن الهلاك والدمار و البوار. قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن:

«أيّها النّاس، إنّما يجمع الناس الرضىٰ والسُّخط، وإنّما عقرَ ناقةَ ثمود رجلٌ واحد، فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضىٰ، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فما كان إلاّ أن خارت أرضُهم بالخَسْفَة خُوار السِّكّة المُحماة في الأرض الخَوّارة».[٣]

---

١. الشمس:١٤ـ١٥.

٢. هود: ٦٦.

٣. نهج البلاغة:١١٨، الخطبة ٨٧(في بيان صفات المتقين...).

القصص القرآنية

٦

إبراهيم عليه السلام

بطل التوحيد

إنّ إبراهيم عليه السلام هو النبي الأعظم الّذي أُوتي شريعة وكتاباً، وحاز المقامات الثلاثة: النبوة، والرسالة، والإمامة.

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه المجيد اسم إبراهيم(٦٩) مرة في خمس وعشرين سورة.[١]

ولأجل إلقاء الضوء على أبرز مقاصد وأهداف قصة إبراهيم عليه السلام، نقسّم

---

١. البقرة: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠؛ آل عمران: ٣٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٧؛ النساء: ٥٤، ١٢٥، ١٦٣؛ التوبة: ٧٠، ١١٤؛ هود: ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦؛ يوسف: ٦ و ٣٨؛ إبراهيم: ٣٦؛ الحجر: ٥١؛ النحل: ١٢٠ و ١٢٣؛ مريم: ٤١، ٤٦، ٥٨؛ الأنبياء: ٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩؛ الحج: ٢٦، ٤٣، ٧٨؛ الشعراء: ٦٩؛ العنكبوت: ١٦ و ٣١؛ الأحزاب: ٧؛ الصافات: ٨٣، ١٠٤، ١٠٩؛ ص: ٤٥؛ الشورى: ١٣؛ الزخرف: ٢٦؛ الذاريات: ٢٤؛ النجم: ٣٧؛ الحديد: ٢٦؛ الممتحنة: ٤؛ الأعلى: ١٩.

البحث إلى عدة محاور، أهمها:

١. فضائله عليه السلام وسماته ومنزلته الرفيعة.

٢. نشأته عليه السلام.

٣. مناظراته وحواراتـه مع الوثنيين، وعَبَدة الأجرام السماوية، وملك عصره المدّعي للربوبيّة.

٤. تحطيم الأصنام.

٥. إصدار الحكم بإحراقه عليه السلام.

٦. هجرته عليه السلام من أرض قومه.

٧. ولادة إسماعيل و إسحاق.

٨. بناء الكعبة.

٩. الابتلاء العظيم.

١٠. طلب إراءة إحياء الموتى.

١١. تنصيبه لمقام الإمامة.

١٢. مناجاته وأدعيته.

١

فضائل إبراهيم عليه السلام وسماته ومنزلته الرفيعة

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.[١]

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[٢]

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.[٣]

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[٤]

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.[٥]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾.[٦]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾.[٧]

---

١. الأنبياء:٥١.

٢. البقرة:١٣٠ـ ١٣١.

٣. الصافات:١٠٩ـ ١١١.

٤. الصافات:٨٤.

٥. التوبة:١١٤.

٦. مريم:٤١.

٧. الأحزاب:٧.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.[١]

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.[٢]

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.[٣]

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.[٤]

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[٥]

﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾.[٦]

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.[٧]

***

أضفى الله تعالى على إبراهيم (كما في الآيات المتقدمة) أجمل النعوت، وأثنى عليه أزكى الثناء، إذ انطوى عليه السلام على استعدادات فطرية سليمة، ومواهب متميزة، تجلّت في اهتدائه إلى معرفة الله وتوحيده والتفكّر في قدرته وعظمته، وقد آتاه الله رُشده لعلمه بما يمتلكه من استعداد وقابلية، فعرف الحقّ، وأصاب الواقع، وانتهج

١. الأعلى:١٨ـ١٩.
٢. ص:٤٥ـ٤٦.
٣. الأنعام:٨٣.
٤. الأنعام:٧٥.
٥. النحل:١٢٠ـ١٢١.
٦. النساء:١٢٥.
٧. البقرة:١٢٤.

سبيل الرشاد.

وكان عليه السلام مستسلماً لله مُنقاداً له في كلّ شأن من شؤونه في باطنه وظاهره، في سرّائه وضرّائه، وفي شدّتـه ورخائه، صادقـاً كلّ الصدق مع نفسه وفي عـلاقته مع ربّه، عـاملاً بما يـرضيه، ونـائياً عمّا يُسخطـه، لا يختلج قلبه بشك أو ريـب يعكّر صَفْوَ إخلاصه لله، ولا يشيب سلامته شرك أو معصية أو غلٌّ وحقد ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وهو عليه السلام من أصحـــاب القـــوة على الأعمال الصـــالحة، والبصيرة في الدين ﴿أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصارِ﴾ ومن الأبـرار الـذين تمحّضت أنفسهم للعبـادة والطـاعة فـلا يشـوبها شيء، ويعملـون للآخـرة، ويتأهّبـون لها ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرى الدَّارِ﴾، وقـد أخلص إبراهيـم لله تعالى، فـاصطفـاه للمقامـات الرفيعة، ومنّ عليه بالنبوة والرسالة، واتّخذه خليلاً، فهو عليه السلام الرسول الثاني من أُولي العـزم وأصحاب الشرائع الـذين أخذ الله منهم ميثـاقاً غليظـاً، وقد فُسِّر الميثـاق بالعهد الشديد على الوفاء بما حملوا من أعباء الرسالة وتبليغ الشرائع.

ولكن المستفـاد من الآيـة (٨١) من سـورة آل عمـران أنّ المراد بـه وحـدة الكلمـة في الدين وعـدم الاختلاف فيـه، وتصديق كلّ نبي لاحق للنبي السـابق، وتنويه السابق باللاحق والدعوة إلى التصديق به ومناصرته ومؤازرته ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾.[١]

ويؤيده قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

١. آل عمران:٨١.

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.[١]

حيث إنّ قوله: ﴿ **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ بدل من الموصول في قوله:﴿ **مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً** ﴾ .

وقد رفع الله تعالى درجة إبراهيم بإرشاده إلى الحجج والبراهين الّتي تغلّب بها على أعداء الله وأعدائه ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾.[٢]

كما بلغ عليه السلام من الكمال مرتبةً استطاع بها أن يرى بعين القلب ملكوت السماوات والأرض، وليس الملكوت إلاّ باطن النظام الكوني وهو تعلّقه وقيامه بالله سبحانه، كما أنّ الإنسان يرى بعين الشهود تعلّق الصور الذهنية بنفسه، وأنّه لو ذهل عنها لحظة لزالت الصور عن مواضعها، وما فعله سبحانه إلاّ ليكون من الموقنين أي يضمّ الإيمان الفطري والاستدلالي على تعلّق النظام وقيامه بالله سبحانه، إلى شهوده وعرفانه ورؤيته القلبية. وهذا من المراتب العالية الّتي يصل إليها السالك بعد طيّه منازل كثيرة.

ومن هنا كان عليه السلام يمثّل بمفرده أُمّةً من الأُمم(كما وصفه سبحانه) بما اجتمع فيه من عناصر الخير والقوة والسموّ والقيم والمعاني السامية، الّتي تجلت من خلال سلسلة من الابتلاءات والاختبارات الّتي تعرّض لها في حياته، والجهود والتضحيات الّتي قدّمها في طريق دعوته إلى التوحيد، وهداية الناس وإرشادهم، والّتي استحق بها مقام الإمامة الرفيع ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾.

---

١. الشورى:١٣.

٢. الأنعام:٨٣.

٢

نشأة إبراهيم عليه السلام

سوف ندرس حياة إبراهيم عليه السلام في موطنه أوّلاً وفي مهجره ثـانياً، فقد ولد ونشأ عليه السلام (كما يقول المؤرخون والمفسرون)[١] في أرض بابل بين دجلة والفرات، ثمّ هاجر كما يقولون أيضاً إلى فلسطين، وسوف نجعل لكلٍ منهما فصلاً خاصاً به.

حياته في بابل

تدلّ الآيات القرآنية على أنّ مناظـرات إبراهيم وحواراته مع قومه دارت في أربعة مواقف، كما أنّه عليه السلام أقدم ـ خلال ذلك ـ على عمل جريء أثار غضب قومه الـذين عقدوا لـه محكمـة علنيـة، حكمت عليه بـا لموت حـرقـاً بالنـار، ولكن الله سبحانه أنجاه منها. وبعد ذلك هاجر إلى فلسطين وألقى عصاه هناك.

أمّا مناظراته في بابل فهي كالتالي:

أ. مناظرته مع آزر.

---

١. ويؤيـد قولهم هذا، مـا اكتشفه علماء الآثار من ألـواح، كُتبت عليها معتقـدات أهل بابل في ذلك العصر. انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم: ١١٥.

ب. مناظرته مع عبدة الأجرام السماوية.

ج. مناظرته مع عبدة الأصنام والأوثان.

د. مناظرته مع ملك بابل.

وأمّا الحوادث المهمة أثناء حياته فيها، فهي:

١. تحطيم الأصنام.

٢. ردّ فعل الوثنيين على تحطيم الأصنام.

٣. محاكمة إبراهيم.

وهذه المحاور السبعة يذكرها القرآن الكريم في سور مختلفة، وسنجمع آيات كلّ موضوع في مكان واحد، ثمّ ندرسها وفق منهج التفسير الموضوعي.

٣

مناظرات إبراهيم وحواراته

أ. مناظرته مع آزر

إنّ مناظرة إبراهيم عليه السلام ـ و هو فتى يافع ـ مع أبيه آزر[١] ـ وهو كبير الأُسرة ـ تعد من ألطف المناظرات، لأنّها جاءت في إطار خاص، استلزم أُسلوباً في الحوار ينسجم مع الرسالة الإلهية من جهة ومع العلاقة الأُسرية والارتباط العاطفي من جهة أُخرى. و إليك الآيات الواردة في هذا الشأن:

---

١. اختلفت الكلمة حول آزر، هل هو أبو إبراهيم الحقيقي، أو عمّه أو جدّه لأُمّه، وسنبحث هذا الموضوع لاحقاً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.[١]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً* إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً* يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾.

﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾.[٢]

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾.[٣]

﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾.[٤]

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.[٥]

﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.[٦]

كانت الوثنية قد غطت بيئة بابل على نحو أن أقرب الناس إلى إبراهيم كان

---

١. الأنعام:٧٤.
٢. مريم:٤١ـ ٤٥.
٣. مريم:٤٦.
٤. مريم:٤٧ـ ٤٨.
٥. التوبة:١١٤.
٦. الممتحنة:٤.

وثنياً ومدافعاً عنها بشدة.

ومن سنن الله تبارك وتعالى أن يخرج داعية التوحيد من وسط أحضان الوثنية، وكان اللازم عليه أن يبتدئ دعوته إلى التوحيد من عقر دارهم ومن أقرب الأفراد المنتمين إليه، وهو أبوه آزر.

ناظر إبراهيم أباه آزر في موقفين: الأوّل بشكل انفرادي، والثاني بحضور قومه المشركين معه. والآيات المتقدمة ناظرة إلى الموقف الأوّل، إذ لا نرى فيها ذكراً لقومه.

وستوافيك المناظرة في الموقف الثاني فيما بعد.

اعتمد إبراهيم عليه السلام في نقد عمل آزر وإثبات بطلانه على إثارة الفطرة والعقل بقضايا واضحة، تتمثل فيما يلي:

١. انّ العبادة لغاية التقرب من المعبود، وهو فرع التفاته إلى عمل العابد وعلمه به، ومن المعلوم أنّ الأصنام لا تسمع ولا تبصر، وهذا ما أشار إليه بقوله: **﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾**.

٢. إنّ سلوك الطريق الصحيح في العبادة للوصول إلى ساحل النجاة، لا يحصل إلاّ من خلال العلم بهذا الشأن، وقد خصّه الله به من دون آزر، ومن هنا كان على آزر أن يتّبعه، وهذا ما أشار إليه بقوله: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾**.

٣. انّ عبادة الأصنام تعبير آخر عن عبادة الشيطان وإطاعته، فعليك أن لا تعبد الشيطان، وإلى هذا أشار بقوله: **﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾**.

لقد نهاه عليه السلام عن إطاعة الشيطان في وساوسه لبني آدم، والّتي عبّر عنها

بقوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَـنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.[١]

فالاستجابة لوساوس الشيطـان الّتي تتجسّد هنا بعبادة الأصنام، إنّما هي في النتيجة طاعة للشيطان وعبادة له.

وبهذا يفسر قولـه سبحانـه: ﴿أَلَمْ أَعْهَـدْ إِلَيْكُمْ يَـا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُـدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.[٢]

٤. إنّ إبراهيم يخوّف آزر من أن يمسّـه عذاب الرحمن بعدمـا تبين له الحق، وانّ الله هو المستحق للعبـادة، وانّ عبادة غيره طـاعة للشيطان ودخـول في ولايته وخروج عن ولاية الله، وهـذا هو الّذي أشار إليـه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّـي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾.

وبهذه البراهين الأربعة نـاظر إبـراهيم أباه آزر، ولكنّه ــ للأسف ــ لم يتأثر بكلامه بل أصرّ على موقفه وهدّد إبراهيم بالرجم، وأمره بالابتعاد عنه فترة طويلة: ﴿أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرنِي مَلِيّاً﴾.

أمّـا إبراهيم، فلم يقـابل هـذا الأُسلوب العنيـف بمثله، بل واجـه الموقف انطلاقـاً من مسؤوليتـه كنبيّ واع لدوره، فأظهـر المرونة والعطف والرفـق بأبيه من جهة قائلاً له: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَـأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَـانَ بِي حَفِيّاً﴾، وأبدىٰ من جهـة أُخرى صراحـة في موقفـه من الآلهة المزيّفـة، ومن عبّادهـا الذين خـاطبهم بقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَـا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُـونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾.

---

١. الأعراف:١٧.

٢. يس:٦٠.

وقفة في وعد إبراهيم لآزر

كان إبراهيم غير آيس من هداية أبيه آزر إلى الإيمان، وقبوله لدعوة التوحيد، ولذا وعده بأن يدعو له بالمغفرة، فلمّا تبيّن له لجاجه وعناده عن طريق الحق، وإصراره على الشرك، تبرأ منه كما يقول سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾.[1]

فذيل الآية ﴿**لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾ يكشف عن وجه استغفاره له، فاتّصاف إبراهيم بهاتين الصفتين: شدة التضرع إلى الله، والصفح عمن يلحق به الأذىٰ (وما أقسىٰ أذى أبيه له)، هو الّذي دعاه إلى أن يستغفر لأبيه، كما أنّ قوله: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ**﴾ يُنبئ عن السبب في إعلان براءته منه.

ومع أنّ إبراهيم استغفر له، ولكن الله لم يستجب دعاءه، وما هذا إلاّ لأنّ المورد لم يكن قابلاً للاستجابة، وقد احتمل إبراهيم أن لا تستجاب دعوته، ولذا صرّح ـ عندما وعده بالاستغفار ـ بأنّه لا يملك له من أمر الله شيئاً حتّى لا يتصور المخاطب بأنّ غفران الذنوب ممّا يملكه الخليل كما قال: ﴿**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾.[2]

ثمّ إنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين بحجة أنّ إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، فوافاهم الوحي بالمنع عنه.

قال سبحانه: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا**

---

١. التوبة:١١٤.

٢. الممتحنة:٤.

أُولِي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.[١]

وذلك لوجود الفرق بين استغفار المشركين لآبائهم وأقربائهم واستغفار إبراهيم، فإنّ استغفار الثاني كان في حياة آزر وكان إبراهيم يرجو نجاته وهدايته، وهذا ما يبرّر طلب المغفرة له من الله تعالى، بخلاف ما لو مات المشرك وانقطعت الصلة، وعندئذٍ لا تُرجىٰ منه النجاة، كما مرّ في قوله سبحانه: **﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾** .[٢]

علاقة آزر بإبراهيم

ورد في بعض الآيات وصف آزر بأنّه أبو إبراهيم عليه السلام ، فهل كان حقيقة أبا إبراهيم مع أنّ عقيدة الشيعة استقرت على أنّ آباء الأنبياء وأجدادهم كلّهم موحدون؟

يقول الشيخ المفيد: واتّفقت الإمامية على أنّ آباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّوجلّ موحّدون له، واحتجوا في ذلك بالقرآن والأخبار.[٣]

وهناك مشكلة أُخرى وهي أنّ اسم أبي إبراهيم في التوراة هو تارخ(تارح) مع أنّ الوارد في القرآن آزر، فكيف يمكن الجمع بينهما؟

والجواب عن الجميع رهن التمعّن في التعبير القرآني حيث إنّ القرآن وصف آزر بالأب دون الوالد، وهناك فرق بين الأوّل والثاني، حيث إنّ الأوّل يستعمل في

---

١. التوبة:١١٣.
٢. التوبة:١١٤.
٣. أوائل المقالات:٤٥.

الأعمام والأخوال أيضاً، لأنّهم بمنزلة الآباء، يقول سبحانه حاكياً عن أبناء يعقوب: ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[١]. ومن المعلوم أنّ إسماعيل لم يكن أباً ليعقوب وانّما كان عمّه.

نعم إذا لم يكن في الكلام قرينة يكون لفظ الأب ظاهراً في الوالد، غير أنّ هنا قرينة قاطعة على أنّ المراد به هو غير الوالد. ذلك أنّ إبراهيم كان قد تبرّأ من أبيه آزر لمّا تبيّن له إصراره على شركه وضلاله، قبل أن يهاجر عليه السلام من بلاده(أي قبل أن يمتدّ به العمر)، بينما نجده عليه السلام يدعو لوالديه بالمغفرة بقوله: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرِ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾[٢] وهو طاعن في السنّ، حيث جاء دعاؤه هذا في سياق أدعيته الّتي ابتهل بها إلى الله بعد أن أسكن بعض ذريته بمكّة ﴿**رَبَّنَا إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقيمُوا الصَّلَوٰةَ**﴾.[٣]

و إذا علمنا أنّه لم يُرزق بولديه إلاّ في أيام شيخوخته، لقوله ﴿**الْحَمْدُ للهِ الّذي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾[٤] توصّلنا إلى النتيجة التالية، وهي أنّ الّذي دعا له إبراهيم بالمغفرة في زمن شيخوخته، غير من تبرّأ منه قبل ذلك، وهذا يدلّ على أن (آزر) لم يكن والد إبراهيم، و إنّما كانت له صلة أُخرى به، كأن يكون عمّه أو جدّه لأُمّه.

***

---

١. البقرة:١٣٣.

٢. إبراهيم:٤١.

٣. إبراهيم:٣٧.

٤. إبراهيم:٣٩.

ب. مناظرته مع عبدة الأجرام السماوية

إنّ مناظرة إبراهيم عليه السلام مع عبدة الأجرام السماويـة، وعبدة الأصنام الأرضية تشهد بوضـوح على أنّ أهل بابل كان أكثرهم أو جلّهم من المشركين، غـاية الأمر أنّ طائفة منهم كانت تعبد الأجرام السماوية، وطائفة تعبد الأصنام الأرضية.

وأمّا وجه تسرّب الوثنية إلى تلك المنطقة فهو رهن البحث عن تاريخ الوثنية في المنطقة ولا يتسع المجال هنا لذلك، غير أنّ النكتة البارزة في المقام هو أنّ القوم كـانوا يعبـدون هذه الأجـرام أو الأصنام بما أنّها أربـاب تملك تدبير العـالم من الله سبحـانه، فـالله هـو خـالق السماوات والأرض وما فيهما ولكـن الأجرام السماويـة مدبرة لأمر الحياة في الأرض فلـذلك يتصورون انّ الأجرام تستحق العبادة بما أنّهم أرباب مدبرون للأرض وما فيها.

وبتعبير آخر: أنّ القوم كـانوا مؤمنين بتوحيد الـذات والخالق، وأنّ إله العالم وخالقه واحد ليس له ثان، وانّه عالم قادر إلى غير ذلك من الصفات الجمالية، غير أنّهم كانـوا مشركين في أمر التـدبير والربـوبية ولـذلك نـرى أنّ القرآن يـركز على التوحيد في التدبير بعد التوحيد في الخلقة قال سبحانه: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَـرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّـرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾[1]. كما أنّ إبراهيم يركز على الربوبية، لا الخالقية كما سيوافيك.

إذا عرفت ذلك فلندرس آيات المناظرة وهي كما يلي:

﴿**وَكَـذَلِكَ نُـرِيَ إِبْـرَاهِيـمَ مَلَكُـوتَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِنَ**

١. الرعد:٢.

الْمُوقِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَومِ الضَّالِّينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

***

الأمر المهم هو إيضاح دليل إبراهيم، فهل هو بصدد بيان أنّ الأجرام السماوية ليست بأرباب يدبرون الكون كما هو الرأي المنصور عندنا كما مرّ، أو أنه

١. الأنعام: ٧٥ـ ٨٣.

بصدد بيان أنّ هذه الأجرام ليست آلهة بمعنى واجبة الوجود كما عليه الرازي؟ ومنشأ الخلاف هو تحديد مفهوم الرب فهل هو مساو لواجب الوجود، أو أنّه بمعنى المدبّر وإن كان ممكناً تفويض تدبير الكون إليه؟

وقد أثبتنا في محله أنّ الرب لا يعادل الخالق ولا واجب الوجود، بل هو بمعنى المدبر فيقال: رب الدار ورب الضيعة ورب البستان ويراد من يدبّر أُمور هذه الأشياء، وكذا إذا قيل إن الكوكب الفلاني رب أي يدبر بقوته ما وقع تحته وهكذا يُقال في الشمس، وهي وإن كانت في حدّ ذاتها ممكنة الوجود ولكن الله تبارك وتعالى فوض إليها الأمر، وتخلّى هو عن التدبير. ولذلك نرى أنّه سبحانه يذكر الربوبية بعد الخالقية كما مرّ في آية سورة الرعد. هذا ما عندنا ولكن الرازي يقول: إنّ إبراهيم عليه السلام استدل بأُفول الكوكب على أنّه لا يجوز أن يكون رباً وخالقاً له.[1]

ثمّ يقول: المقام الثاني أن يكون المراد من الرب والإله من يكون خالقاً لنا وموجداً لذواتنا وصفاتنا، فأفول الكواكب يدلّ على أنّها عاجزة عن الخلق والإيجاد، وذلك أنّ أُفولها يدلّ على حدوثها، وحدوثها يدلّ على افتقارها إلى فاعل قديم قادر، ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية وإلاّ لافتقرت قادريته إلى قادر آخر ولزم التسلسل، وهو محال فثبت أن قادريته أزلية.[2]

ثمّ إنّه أضاف الكلام في ذلك، والظاهر أنّ كلّ ما ذكره تبعيد للمسافة فلم يكن هناك أحد يزعم كون الأجرام واجبة الوجود وخالقة للعالم، وإنّما كان الأمر مركزاً على مدبريتها فيجب أن يكون الأُفول دليلاً على عدمه.

---

١. التفسير الكبير:١١/ ٥٢.

٢. نفس المصدر:٥٣.

والعجب أنّ الشيخ الطبرسي أيضاً اختار هذا المعنى قبل الرازي حيث قال: استدل إبراهيم بالأُفول على أنّه محدث مخلوق وكذلك كانت حالته في رؤية القمر والشمس فإنّه لما رأى أُفولها قطع على حدوثهما و استحالة إلهيتهما، وقال في آخر كلامه: يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون إنّي وجهت وجهي للّذي فطر السماوات والأرض.[١]

والظاهر أنّ برهانه في إبطال ربوبية الأجرام مبني على الأصل الواضح، وهو أنّ الإنسان بما أنّه ممكن فاقد كلّ كمال وجمال، وقوّة وقدرة، فوجوده حدوثاً وبقاءً رهن الإفاضة المستمرة في عامة الآنات و اللحظات. وبما أنّ المُدَبِّر (الفاعل) موجود جسماني يتوقّف تدبيره على حضوره الدائم وعدم غيابه عن المَدَبَّر (المفعول) و إلاّ ينقطع الفيض عنه وينطفأ نور حياته.

إذ هناك فرق، بين أن يكون المُدبِّر موجوداً مادياً لا يحيط بموضوع التدبير إلاّ بحضوره المادي لديه حتّى يأخذ المُدبَّرُ فيض الحياة منه، فلو افترضنا انقطاع صلته به لأُفوله واستتاره امتنعت الإفاضة والاستفاضة، وآل الأمر إلى النفاد والهلاك، وبين أن يكون المدبِّرُ موجوداً غير مادي محيطاً بعالم المادة وما فوقه، فهو بحضوره القيومي وقيام المخلوق به قيام المعنى الحرفي بالاسمي يكون حاضراً وبالتالي مفيضاً ولا يعقل فيه الأُفول والغياب.

ونحن نرى بأُمّ أعيننا أنّ الأجرام السماوية عند طلوعها تشع أنوارها على الإنسان والأرض وما فيها، ولكن عندما تغيب عن الأرض والإنسان يصبح المُدبَّر بلا مدبِّر، والممكن الفاقد للتدبير لا يمكن أن تستمر حياته.

١. مجمع البيان:٧/ ٣٢٣.

ولكن الباري سبحانه بما أنّه لا يحويه مكان دون مكان: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فلا يُتصوّر فيه عدم الحضور كما لا يتصوّر فيه انقطاع الصلة، فيستمرّ التدبير بخلاف الأجرام السماوية فهي بما انّها حاضرة في وقت دون آخر، تكون مفيضة في وقت دون وقت.

إذا عرفت هذا فلنستعرض برهان الخليل عليه السلام:

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فهل قال هذا جدّاً أو قاله افتراضاً؟ الصحيح هو الثاني، لأنّ غايته نقض هذا الافتراض. وهذا الأسلوب يتّبعه المناظر مع خصمه، إذا رغب في مداراته واجتذابه إلى فكرته، ورغب عن إثارة حفيظته، وسيوافيك توضيحه.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ ولعل التعبير عن عدم ربوبيّة الكوكب لعدم حضوره المستمر مع الأرض ومن فيها بـ﴿لاَ أُحِبُّ﴾ لأجل أن حب المدبِّر أمر فطري ذاتي لا يمكن للإنسان إنكاره مادام يرى حياته رهن إفاضاته. فعدم الحب في هذا المجال يعتبر دليلاً على عدم كونه مدبراً.

ثمّ إنّه لما رأى القمر بازغاً افترض فيه مثل ما افترض في الأوّل، وقال هذا ربّي، فلمّا أفل، أدرك أنّه ليس بربه، إذ كيف يمكن أن يفيض، وكيف يمكن للإنسان أن يستفيض منه مع أنّ الإفاضة قيد الحضور.

وعند ذلك التجأ إلى الرب الواقعي وقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

فلمّا انجلى ظلام الليل وانفلق الفجر وطلعت الشمس افترض أمراً ثالثاً وقال ـ مشيراً إلى الشمس ـ هذا ربّي، وعلّل ذلك بأنّه أكبر جرماً وأكثر فيضاً، فلمّا أفلت، وجّه أنظارهم إلى أنّ هذه الأرباب من الكوكب والقمر والشمس أرباب

مزيّفة، وعند ذلك توجه بقلبه النوراني إلى الرب الخالق الفاطر للسماوات والأرض وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وتتضح رصانة البرهان إذا وقفنا على أنّ التدبير التكويني لا ينفك عن الخلقة وانّه يُغاير تدبير البستاني لأشجاره، أو الراعي لغنمه، وذلك لأنّ تدبيرهما تدبير جزئي يكفي فيه الحضور في وقت خاص، فليس للبستاني إلاّ سقي الأشجار وقطف الثمار في أوقات معينة وتركها بعد كذلك. كما أنّ وظيفة الراعي ما هي إلاّ رعي الغنم وعلفها وإيرادها الماء وسوقها إلى الحظيرة مساءً. وهذا بخلاف التدبير التكويني للأرض وما فيها فإنّ الموجود الإمكاني في كلّ لحظة بحاجة إلى الوجود وما يمدّ به حياته، فالفيض الدائم رهن المفيض الدائم وحضوره المستمر.

ثمّ إنّ مجموع الآيات الثلاث يعرب عن أنّ إبراهيم ناظر قومه بهذه الحجج في ليلة واحدة من طلوع الكوكب إلى طلوع الشمس وطرح كلاً في مقطع خاص، ولذلك يقول: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، كأنّه كان يستعد للمناظرة قبيل الغروب فلما جَنّ عليه الليل وطلع الكوكب قال: هذا ربّي، وقد أعرض عن ربوبيته وكان على هذه الحالة: ﴿رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغاً﴾ كما يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ﴾ الظاهر في اتصال المناظرة الثانية بالمناظرة الأُولى، فكأنّه بزغ القمر بعد أُفول الكوكب، وهذا ينطبق على «الزهرة» لأنّه يطلع بعد غروب الشمس في ناحية المغرب ويمكث في السماء ساعة أو ساعتين ثمّ إنّ أفوله يزامن طلوع القمر، ولذلك ورد في الروايات أنّ إبراهيم ناظر في موقفه هذا طوائف ثلاث:

روى الصدوق عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «إنّ إبراهيم وقع إلى ثلاث

أصناف: صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس وذلك حين خرج من السرب الّذي أُخفي فيه».[١]

وقد يشكل على قول إبراهيم هذا ربيّ في مواقف ثلاثة بأنّ النبي المعصوم لا يمكن أن يكون مشركاً في بداية حياته ثمّ يصير موحّداً.

ونقول: إنّ هذا الإشكال ساقط من رأسه فإنّه سبحانه تبارك وتعالى يذكر قبل مناظرته قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، وقد مرّ أنّ المراد من إراءة الملكوت تعلّق الكون بالله سبحانه وهو باطن العالم، فمثل هذا الإنسان الّذي شهد تعلق الكون بالله كيف يصحّ له أن يكون مشركاً في أوّل الأمر ثمّ يستهدي شيئاً فشيئاً حتّى يصل إلى التوحيد؟!

وعلى ضوء ذلك فيحمل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على المماشاة مع عبدة الأجرام والموافقة الظاهرية المؤقتة حتّى يتبين خطأ القوم وبطلان عقيدتهم، فإنّ من أساليب المناظرة التسليمَ لمعتقد الخصم مؤقتاً حتّى يتبين بطلانه بما يترتب عليه من الفساد، ولو خاصم القوم بنفي ربوبية آلهتهم من أوّل الأمر، لما تمكن من إقناع القوم ببطلان فرضيتهم.

وهناك جواب آخر يستفاد من الروايات وهو أنّ تصديق إبراهيم كان مقروناً بالإنكار كما هو المروي عن الرضا عليه السلام حيث قال: «هذا ربّي على الإنكار والاستخبار، فلمّا أفل الكوكب قال: لا أحب الآفلين، لأنّ الأُفول من صفات المُحدَث لا من صفات القديم».[٢] وفي كلامه عليه السلام إشارة إلى الوجهين أحدهما: التصديق الإنكاري، والآخر: التصديق الّذي يدلّ عليه قوله: للاستخبار.

١و٢. البرهان:١/ ٥٣١.

ونحن نـرى أنّ الأُسلوب الّـذي سار عليه إبـراهيم في حواره مـع قومـه هو ذات الأُسلـوب الّـذي سـار عليـه النبي ﷺ في خطـابـه للمشركين مـن قـريش فقال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[١]

عدم رؤية إبراهيم للأجرام السماوية

ثمة رأي يـذهب إلى أنّ احتجاج إبراهيم مع قـومه وإشاراتـه إلى الكوكب والقمر والشمـس يعرب عن أنّـه لم يكن يعرف هـذه الأجرام السماويـة، وأنّ هذا الموقف هو أوّل موقف رآها فيه بشهادة أنّه يصف القمر بالبزوغ والشمس بالكبر، فلـو كان معـاينـاً لهذه الأجرام بهذه الصفـات عَبْر حيـاته لم يصحّ لـه أن يصفهما بأوصاف أظهر من الأمس وأبين من الشمس، وهذا يُشعر بأنّه فوجئ بهذه الأجرام مع هذه الأوصاف.

ويشهد بذلك أيضاً طريقة كـلامه مع آزر حيث تشير إلى أنّه لم يتعرف بعد على الأصنام ولا على عبادة الناس لها.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ*قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَـالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.[٢]

وقال تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الّتي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.[٣]

ويؤيد ذلك ما في بعض الروايات من أنّ أُمّ إبراهيم وضعته فهيّأته وقمّطته

١. سبأ:٢٤.

٢. الشعراء:٦٩ـ ٧٤.

٣. الأنبياء:٥٢.

وتركتـه في الغار ورجعت إلى منزلها وكانت أُمّـه تأتيه، حتّى أتي له في الغـار ثلاث عشرة سنة، فلماّ كان بعد ذلك أخرجته من الغـار، فدارت المناظرة بينه و بين عبدة الأجرام.[١]

وقفة مع هذا الرأي

إنّ ما ذكرنـا من الرواية هو خبر واحـد لا يصحّ تفسير الآية به إلاّ إذا صحّ السند وأفاد الاطمئنـان، مضافاً إلى ما في مضمونها من الغرابـة، إذ ورد فيها أنّ أُمّه قد وضعته فهيّئته وقمّطته ورجعت إلى منزلها وسـدّت باب الغار بالحجارة فأجرى الله لإبراهيم لبناً من إبهامه فكانت أُمّه تـأتيه، ووكّل نمرود بكلّ امرأة حامل وكان يذبح كلّ ولد ذكـر فهربت أُمّ إبراهيم بإبراهيم من الـذبح وكان يشبّ إبراهيم في الغار يوماً كما يشبّ غيره في الشهر حتّى أتى لـه في الغار ثلاث عشرة سنة إلى آخر ما جاء في الرواية.

وممّا يؤيد صلتـه بمجتمعه وعدم نأيِه عن الحياة العامة، مناظـرته مع قومه ومع آزر، فقـد خاطب أبـاه آزر بشكل يدلّ على وجـود الصلة بينـه وبين آزر مدة مديدة وانّهما عاشا متعارفين كما قال سبحانه: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**.

فإنّ كيفيـة المنـاظرة تـدلّ على وجـود التعارف بينهما قبـل هذا، والإنسـان الغريب لا يتكلم مع من لم يره بهذا الأسلوب.

ورُبّ سائل يسأل عن وجـه تذكير اسم الإشارة للشمس(وهي مـؤنثة) في قوله: **﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾**.

---

١. البرهان:١/ ٥٣٣.

وقد ذكر المفسرون في هذا المقام وجوهاً مختلفة:

١. انّ مقتضى القاعدة هو الأوّل، أمّا التذكير فبتأويل المشار إليه بالنيّر كأنّه قال هذا الجرم النيّر هو ربّي وهو أكبر.

وهنا يُثار التساؤل عن وجه العدول عن القاعدة إلى التأويل.

٢. انّه من قبيل اتّباع المبتدأ للخبر في تذكيره، فإنّ الربّ والأكبر مذكّران فأُتبع اسم الإشارة للخبر. فتذكير المبتدأ لأجل كون الخبر مذكراً، أعني: «ربّي» و «أكبر».

يلاحظ عليه: أنّ الكلام هو في تذكير الخبر نفسه، فلماذا لم يقل «ربتي» أو «كبرى»حتى تبعه المبتدأ فيقول مكان «هذا» «هذه»؟

إلى غير ذلك من الوجوه الّتي ذكرها العلاّمة الطباطبائي في ميزانه[1] والحق أن يقال أن الشمس من المؤنثات المجازية يجوز فيها الوجهان: الإشارة بلفظ المذكر والإشارة بلفظ المؤنث، والقواعد العربية يجب أن تعرض على القرآن لأنّه عربي أصيل نزل به الروح الأمين على قلب عربي صميم. دون أن يُعرض القرآن على القواعد المستخرجة عن كلمات العرب وأشعارهم.

ما هو المراد بالملكوت؟

إنّ وزان «ملكوت» وزان «جبروت» وكل منهما يحكي عن المبالغة في الملك والجبر، وعندئذٍ يقع الكلام فيما هو المراد من الملكوت و إن كان ـ حسب الظاهر ـ بمعنى شدة التملّك.

والظاهر أنّ المراد به هو باطن هذا العالم، أعني: تعلّقه بالله سبحانه وقيامه

---

١. الميزان:٧/ ١٨٠ـ ١٨٢.

معه نظير قيام الصور الذهنيـة بالنفس، وقيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي الّذي لا يـدركه إلاّ المتعمق في هـذا العـالم، و إلاّ فالبـاحث المادي لا يـرى إلاّ ظواهـر طبيعيـة يؤثـر بعضهـا في بعض و يكشف بتجاربـه تأثير الكلّ في الكلّ، وأمّـا انّ المجموع والنظام الحادث فيه قـائم بموجود يدركه الإنسان تـارة بالبرهان وأُخرى بالشهود، فهـو ما أدركه إبراهيم مرة بالشهـود كما يحكي القرآن الكريم: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ**﴾. ومرّة أُخرى بالبرهان.

والدليل على أنّ المراد بالملكوت هو تعلّقه بالله سبحانه هو أنّه بعدما أبطل ربوبية الأجـرام السماوية قال: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّـذِي فَطَـرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

أي اعـرض عن الآلهة المكـذوبة وتـوجّـه إلى خـالق السماوات والأرض، لما عاينه بالقلب أوّلاً وأدركه بالبرهان ثانياً.

وقد أشار سبحانه في بعض الآيات إلى هذا النوع من التعلّق وقال:

﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ**﴾[١]، ﴿**وَللهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ**﴾[٢]، ﴿**تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.[٣]

وليست مـالكيته سبحـانـه أمـراً اعتباريـاً مثل مـالكيـة زيد لما في يـده بل مالكيته تنتزع من خالقيته، فهو بما أنّه خالق للسماوات والأرض مالك لها ،وبما أنّ ما سـوى الله فاقد لكلّ جمال وكمال وقـدرة وقوة وانّما أُفيض عليه الـوجود من الله سبحانه فهو يكون أولى به من غيره.

---

١. آل عمران:٢٦.

٢. المائدة:١٨.

٣. الملك:١.

بقي هنا شيء وهو أنّه سبحانه يعلل إراءة الملكوت لإبراهيم، بغاية صيرورته من الموقنين ويقول: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فهل هذا بمعنى عدم كونه ذا يقين قبل الإراءة؟ أو انّ لليقين مراتب فأراد سبحانه أن يبلغ به إلى أعلى مراتب اليقين كما هو الحال(فيما سيوافيك) من طلبه إراءة إحياء الموتى، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فوافاه الخطاب ﴿أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.(١)

أضف إلى ذلك أنّ هذا الوصف لم يكن من خصائص إبراهيم، بل وُصف به عدد من الأنبياء.

قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.(٢)

موقف المشركين من إبراهيم عليه السلام

أورد القرآن الكريم جانباً من حجج وبراهين أحد طرفي الحوار والمناظرة(أعني: إبراهيم عليه السلام) وقد تقدّم الكلام في ذلك، ولم يورد صراحة شيئاً من احتجاجات وأقوال الطرف الآخر (أعني :المشركين)، وإنّما اقتصر على ذكر موقفهم الرافض والمتعنّت من دعوته عليه السلام، بيد أنّه يمكن أن يُستفاد من بعض أجوبة إبراهيم أنّهم جادلوه في وحدانية الله وعبادته، ودعوه إلى الكفّ عن التعرّض لآلهتهم بسوء، وحذّروه من الإعراض عن عبادتها وتحريض الناس على ذلك، وخوّفوه من سخطها عليه وانتقامها منه: ﴿وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ

---

١. البقرة:٢٦٠.

٢. السجدة:٢٤.

﴿وَقَدْ هَدانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي﴾ أي أنا على اطمئنان من عجزها عن إيصال الشرّ إليّ إلاّ أن يشاء الله بأن يصيبني بشيء لأنّه وحده المالك للنفع والضرّ.

ثمّ إنّ إبراهيم عارضهم بردّ هذه الحجة عليهم، قائلاً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[1]

أي انّكم تُرهبونني ببطش الآلهة وأنا أُرهبكم بسخط الله ربّ العالمين حيث تركتم عبادته ورفضتم ربوبيته والتجأتم إلى ربوبية المخلوق، فإن كان هناك خوف فأنتم أولى به، لأنّكم لا تملكون دليلاً أو برهاناً على دعواكم بأنّ لله شركاء.

أمّا الآمنون حقاً فهم المخلصون في إيمانهم بالله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.[2]

والمراد من الظلم هو الشرك، وقد عدّ سبحانه الشرك ظلماً فيما حكاه عن لسان لقمان عندما وعظ ولده فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ حتّى أنّ المشركين عدّوا أنفسهم ظالمين عندما تبين فساد عقيدتهم، يقول سبحانه: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[3]

فمن دخل في حصن الله سبحانه، خالق السماوات والأرض، مدبّر الإنسان والحيوان وما في الأرض والسماء، فهو آمن من الخوف، بخلاف من تركه واعتقد

---

١. الأنعام:٨١.

٢. الأنعام:٨٢. قال الشيخ الطبرسي في «مجمع البيان»:٤/ ١٠٠: اختُلف في هذه الآية، فقيل: إنّه من تمام قول إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن هذا القول من الله تعالى على جهة فصل القضاء بذلك بين إبراهيم عليه السلام وقومه.

٣. الأنبياء:٦٣.

بربوبية المخلوق الفاقد لكلّ كمال، فقد عرّض نفسه لقهره وسطوته وغضبه.

ثمّ إنّه سبحانه يخبر عن ارتقاء إبراهيم إلى مراتب الكمال من المعنويات كالعلم والإيمان والكرامة، قائلاً: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

ولم يرفع سبحانه إبراهيم درجات (كما يرفع من يشاء من عباده درجات) من دون ملاك، بل بالملاك الّذي يكتسبه العبد، ولذلك يقول سبحانه:﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ مشيراً إلى أنّ الحجج الّتي آتاها إبراهيم كانت نابعة من الحكمة والعلم.

***

ج. مناظرة إبراهيم مع عبدة الأصنام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.[2]

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الّتي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ الّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.[3]

***

١. الأنعام:٨٣.
٢. الأنبياء:٥١.
٣. الأنبياء:٥٢ـ٥٦.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾.
﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾.
﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾.
﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾.
﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.
﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.
﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.
﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾.
﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.
﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.
﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.
﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.
﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.
﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.[1]

***

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ

١. الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢.

تُرْجَعُونَ﴾.(١)

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.(٢)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ* إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.(٣)

***

قد تعرفت على منطق إبراهيم في مناظرته مع أبيه آزر، كما مضت مناظرته مع عبدة الكواكب، وبقي الكلام في مناظرته الثالثة وهي الّتي واجه فيها أباه وقومه.

وقد سبق أن قلنا إنّ لإبراهيم مع أبيه آزر مناظرتين، مرّة حاوره فيها شخصياً وقد تقدّم الكلام حولها، وأُخرى حاوره فيها منضمّاً إلى قومه، ولذا يأتي الحديث عنها ضمن هذه المناظرة.

الحوار الأوّل

سبق هذا الحوار، التأكيد على ما أنعم الله به على إبراهيم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، إذ وهبه الله الرُّشد والبصيرة النافذة في معرفة دلائل التوحيد، للياقته واستعداده لهذا العطاء.

١. العنكبوت:١٦ـ١٧.

٢. العنكبوت:٢٥.

٣. الزخرف:٢٦ـ٢٧.

وقد جاء هذا الحوار مـع عبدة الأصنام (وهو عليه السلام في مقتبل عمره)، تجسيداً للرُّشْد الّذي اختصّه الله به، وتعبيراً عن التوفيق والتسديد الإلهي لإصابة الحقّ.

بدأ عليه السلام حواره مـع قومـه، بهذا التساؤل: ﴿مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[1] في محاولة منـه لفتح عيونهم على واقع أصنـامهم، وعلى السبب الّذي يدعوهم إلى تقديسها والقيام بخدمتها.

ولم يجد القوم عنـدهم ما يردّون بـه على هذا التساؤل، إلاّ أن يلوكـوا الحجة الواهية الّتي طالما فاهَ بها أسلافهم المشركون: إنّنا نقتفي أثر آبائنا في هذا الاعتقاد، ونقدّس أعمالهم ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

وهكـذا أراحوا أنفسهم من عنـاء التفكير والبحث عن البرهـان الصحيح والحجة الواضحة في أهمّ القضايـا الّتي تخصّ الإنسان في حياته ومصيره، وتشبّثوا بالتقليد الأعمىٰ، وكفى به دليلاً على الجهل وضيق الأُفق.

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام بلهجة حازمة صريحة ، يفرضها الموقف، ليُطيح بكلّ هذا التقديسَ الزائفَ، الّذي لن يُكسبه مرورُ الزمن ولا كثرة المعتقدين به شيئاً من الحقّ ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

فوجئ القـوم بهذا الجواب الصارم الّذي زلـزل كيانهم، وحاولوا أن يكـذّبوا أسماعهم الّتي لم تستقبل يوماً مثل هذا الكلام، فخطابوه بقولهم ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ أي الهازلين.

فأجابهم عليه السلام ـ وهو يقصد إبطال الشرك و إثبات التوحيد والربوبيّة لله تعالى ـ بأنّ ربّكم المدبّـر لـلأُمـور، هـو خـالق السماوات والأرض: ﴿بَل رَبُّكُـمْ رَبُّ

---

١. التماثيل: جمع تمثـال: وهو الشيء المصوّر، والمراد بها هنـا الأصنام، سمّـاها بـذلك تحقيراً لشأنها. والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم.

﴿السَّماواتِ وَالأَرْضِ الّذي فَطَرَهُنَّ﴾ ثمّ ختم جوابه بقوله: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الذين يقرّون ويلتزمون بما يقولون عن بيّنة وحجّة.

وبهذه الشهادة أعلن أنّ جوابه عن سؤالهم جواب عن جدّ غير نابع من الهزل.

الحوار الثاني

قد تعرفت على الحوار الأوّل للنبي إبراهيمعليه السلام مع المشركين، وإليك حواره الثاني، الّذي خاطب فيه ـ كما في الحوار الأوّل ـ أباه آزر وقومه.[١]

سأل إبراهيم في بداية المناظرة عن حقيقة معبودهم بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ حيث وضع نفسهعليه السلام موضع من لا يعرف شيئاً عن حقيقتها وسائر شؤونها وهذا من طرق المناظرة، سبيلَ من يريد أن يبيّن الخصم حقيقة مدعاه وسائر شؤونه حتّى يأخذه بما سمع من اعترافه.[٢]

فأجابه القوم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾.

وفي الحقيقة كانت الأصنام رمزاً لما كانوا يعبدون من الملائكة والجن وغير ذلك، ولما كان التوجه العبادي إليها أمراً مشكلاً لخروجها عن مجال الحس صنعوا لها تماثيل تحكي المعبود الواقعي، فكانوا يعبدونها في كلّ آن.

ومع ذلك كلّه كانت الأصنام آلهة معبودة، وإن كانت في حدّ نفسها مرآة لغيرها، وهذا ما دعا إبراهيم إلى نقد عملهم، لأنّ غاية العبادة هي التقرّب من

---

١. تقدّمت الآيات الكريمة الّتي عَرضتْ هذا الحوار في ص١٩٠.

٢. الميزان:١٥/ ٢٨٠. وقال الشيخ الطوسي: إنّ سؤاله كان على وجه الإنكار عليهم. التبيان في تفسير القرآن:٨/ ٣٠.

المربوب، وهو توقف على كونـه سامعاً مبصراً، قادراً على النفع والضرّ، فهل تمتلك الأصنام مثل هـذه الصفات؟﴿هَلْ يَسْمَعُـونَكُمْ إِذْ تَـدْعُـونَ * أَوْ يَنْفَعُـونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.[١]

ولم يكن لدى القـوم إزاء هذه الحقيقة الّتي تفضح واقع أصنـامهم إلاّ هذه الحجة الواهية: إنّنا نقتفي أثر آبائنا في تقديس الأصنام، ونقتدي بسيرتهم من غير وعي ولا دراية، ولا حجّة ولا برهان ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

فقال لهم إبراهيم مُنكـراً عليهم التقليد: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَـا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُـونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وهنا يقع الكـلام في ثلاثة أُمور: أوّلاً: كيف تكون عدواً لـه؟ وثانياً: كيف استعمل ضمير الجمع الّذي يطلق على العقلاء؟ وثالثاً: كيف استثنى ربّ العـالمين ولم يكن داخلاً فيها؟ فهنا أسئلة ثلاثة نجيب عنها كما يلي:

أمّا الأوّل: فـلا يبعـد انّه أراد بـه أنّهم أعـداء لكم لتضرركم بعبـادتهم وانّما نسب الأمر إلى نفسه تعريضاً له، لأنّه أنفع في النصح من التصريح، والبدء بنفسه في النصيحة أدعى للقبول.[٢]

وأمّا الثاني: وهو الإشارة إليه بضمير العقلاء لمكـان نسبة العبادة إليها وهي تستلزم الشعـور والعقل أو كان هذا مـن منظار القوم حيث إنّ عبـادتهم لها يلازم كونها عاقلة.

وأمّا الثالث: فـالاستثنـاء منقطع، والمراد انّهم عـدو لي ولكن ربّ العـالمين

---

١. مرّ نظير هذا الحوار في مناظرة إبراهيم لآزر بمفرده.

٢. تفسير الصافي للفيض:٤/ ٣٩. وقال الفرّاء: إنّه من المقلوب، والمعنى فإنّي عدوّ لهم، ومن عاديته فقد عاداك. مجمع البيان:٧/ ٣٥٨.

ليس كذلك. ثمّ إنّـه وصف ربّ العالمين بأوصـاف، أراد بها انّ المستحق للعبادة هـو من تتـوافـر فيـه هذه الصفـات، أعني: الخَلْق والهداية والإطعـام والإسقـاء والإشفاء والإماتة والإحياء والغفران للخطايا.

وهذه من أوصاف خـالق السماوات والأرض والإنسان، فهل من الإنصاف ترك عبـادته والتـوجّه إلى عبادة مـن لا يقدر على أن يقوم بـواحدة منهـا؟ كما قال تعالى على لسانه: **﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾**.[١]

ثمّ إنّ نسبة الخطيئة إلى نفسه وهو نبي معصوم دليل على أنّ المراد بالخطيئة غير المعصية، بمعنى مخالفـة الأمر المولوي، فإنّ للخطيئـة والذنب مـراتب تتقدر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد قال تعالى لنبيهﷺ: «واستغفر لـذنبك» فالخطيئـة من مثل إبراهيمعليه السلام (هي) اشتغاله عن ذكر الله محضـاً بما تقتضيه ضروريات الحيـاة كالنوم والأكل والشرب ونحـوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منهعليه السلام، كيف؟ وقد نص تعالى على كونه مخلصاً لله لا يشاركه تعالى فيه شيء، إذ قال: **﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾**[٢].[٣]

الحوار الثالث

ثمّ إنّ إبـراهيم كـرّر هذا الأُسلـوب الجدلي في مـوقف آخر، قـائلاً: **﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ**

١. الشعراء:٦٩ـ ٨٢.
٢. ص:٤٦.
٣. الميزان:١٥/ ٢٨٥.

لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[١]

وتقرير البرهان هو أنّ العبادة من وجوه شكر نعم الله سبحانه، والرزق من النعم العظيمة الّتي به تتقوّم حياة الإنسان، فاللازم عبادة من بيده الرزق وهو الله سبحانه لا من لا يملك شيئاً منه، أعني: الأصنام.

ثمّ إنّ إبراهيم أشار إلى قضية مهمة وهي أنّ النظريات والأفكار الّتي يعتقد بها رؤساء الدول وملوكها وأعوانهم انّما تختص بهم فقط، وأنّ غالب الجماهير الشعبية ـ مع كونهم غير مقتنعين بأفكارهم وعقائدهم ـ لم يكن لهم محيص من التظاهر بالإيمان بهذه العقائد و الأفكار في سبيل تأمين معاشهم وتحقيق مصالحهم الدنيوية.

وقد لمسنا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي واستقلال بلدانه، تنكّر شعوبه للشيوعية الملحدة ـ الّتي كانوا يتظاهرون بالإيمان بها في الأيام الماضية ـ وعودتهم إلى ممارسة الشعائر والطقوس الدينية في المساجد والكنائس. وهذا ان دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ إيمانها بالشيوعية لم يكن حقيقياً وواقعياً وعن قناعة ورضى، وإنّما كان شكلياً وظاهرياً، طمعاً في المنافع الدنيوية والاجتماعية.

وهذه الحقيقة الاجتماعية ذكرها إبراهيم في احتجاجه على قومه، وهي أنّ عبادتكم للأصنام إنّما هي لابتغاء المودّة بينكم في الحياة الدنيا دون أن تكون منطلقة من اعتقاد، فإذا رُفع الستار يوم القيامة وشاهدتم الحقائق ومصير الأصنام، عند ذلك تنقطع الصلة بينكم ويتبرأ بعضكم من بعض، وإلى هذا المعنى يشير سبحانه بقوله: **﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي**

---

١. العنكبوت:١٧.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[١].

***

د. مناظرته مع ملك بابل

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

يذكر القرآن الكريم في هذه الآية محاجّة إبراهيم مع ملك بابل، الّذي اشتهر بين المفسرين أنّه «نمرود». والمحاجّة عبارة عن إلقاء الحجة قبال الحجة لإثبات المدّعىٰ أو لإبطال ما يقابله.

والضمير في قوله «في ربه» يرجع إلى إبراهيم فكان ذلك مصبَّ المحاجة حيث إنّ إبراهيم كان يدعي انّ ربّه، هو الله الخالق لا غير، وكان الملك يدّعي انّه ربّ كلّ شيء حتّى إبراهيم نفسه.

والغاية من ذكره سبحانه إعطاءَ المُلك لهذا المدّعي للربوبية، هو التنبيه على كفرانه نعمة ربّه، حيث كان من اللازم مقابلة هذه النعمة بشكر من أنعم عليه لا الكفران به، وهذا ديدن الطغاة، الذين ما إن يصلون إلى قمة الملك والثروة حتىٰ

---

١. العنكبوت: ٢٥.

٢. البقرة: ٢٥٨.

ينسون من أعطاهم ذلك كما هو الحال في فرعون الّذي قال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[١]. وقارون الّذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[٢]. ولكنّه نسي الله الّذي أعطاه هذه الكنوز وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾.[٣]

ومثلهم طاغية قريش، أعني: «الوليد بن المغيرة» الّذي أوعده الله بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾.[٤]

فحيازة الثروة والجاه العريض والمُلك الواسع، تعدّ من أهمّ البواعث على التكبّر والاستعلاء والطغيان﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾.[٥]

وعلى كلّ تقدير كان إبراهيم يُعلن بأنّ ربّه هو خالق السماوات والأرض وما بينهما وليس له ولا لغيره ربّ غيره، لكن حاكم بابل كان يتظاهر بالربوبية وإن كان يرى نفسه مخلوقاً لله سبحانه، وقد مرّ غير مرّة أنّ النزاع بين الخليل وقومه كان محدوداً في مسألة الربوبية وتدبير العالم دون خلقه وإيجاده وإنشائه، ولم يكن أحد منهم حتّى الفراعنة يتفوّه بأنّه الخالق، وأقصى ما كان عندهم من الشرك هو الشرك في التدبير.

وفي منطق إبراهيم أنّ التوحيد في الخالقية والتوحيد في الربوبية متلازمان لا ينفكان، وانّ الخالق هو المدبّر، ولذلك قال عند المحاجة: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فالحياة والممات ظاهرتان تَعرِضان للموجود الحيّ من غير فرق بين الإنسان والنبات، فنسبهما إبراهيم إلى الله سبحانه، ولكنّه فوجئ بجواب نمرود:

---

١. الزخرف:٥١.
٢. القصص:٧٦.
٣. القصص:٧٨.
٤. المدّثر:١١ـ١٢.
٥. العلق:٦ـ٧.

﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[١] فقد ورد في الروايات[٢] أنّه أمر بإحضار رجلين ممّن كان في سجنه فأطلق أحدهما وقتل الآخر، وبذلك تظاهر بأنّه أيضاً يحيي ويميت . ولكنّه غالط في محاجّته ، وذلك لأنّ المراد من الإحيـاء والإماتة هو إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاءً ، ومثل هذا خارج عن قـدرة البشر ولكن الخصم سلك مسلكاً آخر وأراد بـالحياة التخليـة من الحبس في حق من وجب عليـه القتل ، كما أراد من الإماتـة قتل من شاء وهو حي ، وهذا تجـاهل منه لحقيقة الإحياء والإمـاتة ، وتمويه وخداع لقومه .

كلّ ذلك يحكي مبلغ التردّي الفكري الّذي وصل إليه المجتمع آنذاك، فقد سادت فيه عبادة الكواكب والأصنام، وأُلِّه فيه الملك، الّذي كان يتحكّم بمصائر قومه، ويتصرّف في شؤونهم كما يهوى، ويستغفلهم بتمويهه وخداعه.

وإذا كان هذا المجتمع في العهد البابلي متقدّماً في مدنيته المادية كما كشف عن ذلك علماء الآثار، فإنّه كـان يعاني من التخلف في تصوراته العقـائدية وقيمه المعنوية وعاداته وتقاليده.

وما نشـاهده اليوم من سيادة الـوثنية وطقوسها في بعض الـدول على الرغم من تطورهـا العلمي والصناعي والتقني، هـو أصدق دليل على عـدم الملازمة بين الأمرين.

ومن هنا يظهر سبب إعراض إبراهيم عن مواصلة الجدل مع الملك في هذا المجال، وإيضـاح حقيقة الإحياء والإماتـة، وذلك لتعذّر بيان فسـاد هذا المنطق، وكشف هـذا التمويـه في مجتمع بلغ فيـه الجمود والتحجّـر والانحطاط الفكـري أقصىٰ درجاته، ولذا عدل إلى بيان آخر لا سبيل فيه إلى المراء و التمويه والخداع،

---

١. البقرة:٢٥٨.

٢. راجع مجمع البيان:٢/ ١٦٨ و ١٧٧، و الميزان:٢/ ٣٥٠.

فأسقط في يد الملك وأُبلس وتحيّر. قال له عليه السلام: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.[١]

بيان ذلك: إنّ من شأن الرب أن يتصرّف في النظام كيفما شاء، وانّ ربّي يأتي بالشمس من المشرق إلى المغرب، فإذا كنت أنت مدبراً لهذا النظام وقادراً على التحكم فيه، فأظهر قدرتك في تغيير مسارها، فأتِ بها من المغرب إلى المشرق. وهنا أطبق عليه السكوت المقرون بالانبهات والدهشة. ومع أنّ إبراهيم أبطل دعواه ببرهان دامغ سكت أمامه على نحو لم يقدر فيه حتّى على المغالطة، إلاّ أنّه أصرّ على عناده وضلاله، ولم يهتدِ إلى الحق. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ومن القواعد المعروفة هي أنّ تعليق الحكم بالوصف يشعر بالعلّية. فعدم هداية الله تبارك وتعالى هؤلاء، لأجل كونهم ظالمين وخارجين عن الجادة الوسطىٰ. وهذا النوع من التعليق المشعر بالعلّية موجود في كثير من الآيات، يقول سبحانه: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[٢]

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.[٣]

إلى هنا تم ذكر احتجاجات إبراهيم وحواراته الأربعة: تارة مع أبيه آزر بمفرده، وأُخرى معه في مجلس حضره قومه، وثالثة مع عبدة الأجرام السماوية، ورابعة مع ملك بابل الّذي كان يدّعي لنفسه ربوبية العالم وتدبيره. وقد خرج عليه السلام

١. البقرة:٢٥٨.

٢. الجمعة:٥.

٣. الصف:٥.

من جميع هذه الحوارات منتصراً، داحضاً شُبَه القوم ومبيناً ما هو الحق. ثمّ إنّه بعد ان أدرك أنّ القوم لا يؤمنون بمثل هذه الأساليب، سلك مسلكاً آخر وهو ما سنبيّنه في الفصل التالي.

٤

تحطيم الأصنام

جاهد إبراهيم عليه السلام في سبيل هداية قومه إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك بالوعظ والإرشاد، والبرهنة والاستدلال بشتى الأساليب، ولم يدَع لمشكك شكّاً ولا لمرتاب ريباً، إلاّ أنّ القوم تمادوا في إنكارهم وضلالهم، الأمر الذي حدا بإبراهيم الخليل إلى انتهاج أُسلوب آخر يتمثّل في تحطيم أصنامهم المُقامة في الهيكل، فأخذ يضربها بيمينه، فكسرها كلّها، واستبقىٰ الكبير، ليثبت لهم بالبرهان العملي وبطريقة محسوسة عجز الأصنام عن دفع الأذىٰ عن نفسها، وإبعاد الشرّ عن ساحتها، فكيف تصلح أرباباً لهم، يستدفعون بها الضرّ، ويستجلبون بها النفع؟

وإليك الآيات القرآنية الّتي ذكرت هذا الموضوع:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُوم * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

***

١. الصافات: ٨٨ـ٩٦.

﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَنْ تُـوَلُّوا مُدْبِرِينَ* فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ* قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِـآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ* قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُـرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ* قَـالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّـاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ* قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذا بِـآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُـوا يَنْطِقُونَ* فَـرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَـالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّـالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُـونَ* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ* أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.[١]

***

روى علي بن إبراهيم في تفسيره أنّـه خرج نمرود وجميع أهل مملكتـه إلى عيد لهم وكره أن يخرج إبراهيمعليه السلام معهم، فلما ذهبوا عمد إبراهيم إلى طعام فأدخله إلى بيت أصنامهم، فكـان يُدني صنماً من صنم فيقول لـه كل وتكلّم، فإذا لم يجبه اتخذ القدوم فكسر يده ورجله حتّى فعل ذلك بجميع الأصنام، ثم علّق القدوم في عنق الكبير منهم الّـذي كان في الصدر، فلما رجع الملـك ومن معه من العيـد نظروا إلى الأصنام منكسرة فقالوا: من فعل هذا بآلهتنـا، انّه لمن الظالمين؟ فقالوا: هاهنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم... إلى آخر ما ذكره.[٢]

إذا وقفت على إجمال القصة فلنـرجع إلى تحليل مفاد الآيات فنقـول: يظهر من وجود الفاء في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ان نظره فيها كان بعد كلام لهم، وحيث إنّ نتيجة النظـرة في النجوم صارت سبب الاعتزال عن المشـاركة معهم في العيد، فيُستظهر من ذلك انّ كلامهم كان حول حضور إبراهيم معهم في العيد.

---

١. الأنبياء:٥٧ـ ٦٧.

٢. قصص الأنبياء للجزائري:١١٩، نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم.

وهنا يُطرح هذا السؤال، هل أنّ اعتذاره بالسقم كان عذراً واقعياً أو ظاهرياً، حتّى لا يشاركهم في مراسم العيد وبالتالي يتمكن من عملية كسر الأصنام؟

يظهر من ابن كثير انّه كان عذراً ظاهرياً حيث قال: إنّه عرض لهم في الكلام حتّى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام الّتي تستحق أن تُكسر وأن تُهان غاية الإهانة.[1]

ويظهر من العلاّمة الطباطبائي انّ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ صدر عن جدّ لا عن مصلحة، فإنّ الأنبياء أجلّ من أن يكذبوا ولو لمصلحة.

قال: إنّ إخبارهعليه السلام بأنّه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم ومبني عليه، ونظرته في النجوم إمّا لتشخيص خصوص الوقت، نظير من به حمّى ذات نوبة يُعيّن وقتُها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم، وإمّا للوقوف على الحوادث المستقبلة الّتي كان المنجمون يرون أنّ الأوضاع الفلكية تدلّ عليها، وقد كان الصابئون مبالغين فيها وكان في عهدهعليه السلام منهم جمّ غفير.[2] ولا مانع من استكشاف بعض الحوادث عن الأوضاع الفلكيّة والاستدلال بها عليها، باتخاذها أمارة عليها لا مؤثرة، بل لا مانع من القول بكونها مؤثرة بإذن الله فتكون الدلالة من سنن الله، كما بيّن في محله.

ويظهر من قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أنّه أسرع إلى العمل خوفاً من أن تفوته الفرصة.

---

١. قصص الأنبياء لابن كثير: ١/ ١٧٨.

٢. الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ١٤٨.

ثم إن الخطاب في قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ يدلّ على وجود الطعام عند الأصنام لا أنّ الخليل حمل طعاماً إليها، كما مرّ في الرواية.

وهذه الحقيقة (أي تقديم الطعام للآلهة) كغيرها من الحقائق الّتي تعرّض لها القرآن الكريم، قد أقرّ العلماء بصحتها. قال المؤرخ والفيلسوف الفرنسي (وِل ديورانت)، وهو يتحدث عن آلهة بابل: وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة، فشادو لهم الهياكل وأمدّوها بالأثاث والطعام والعبيد، ثم قال: وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرابين... وكان أهم ما يجب أن يعمله البابلي التقيّ المتمسك بدينه أن يشترك في المواكب الطويلة المهيبة... وأن يقدّم الطعام والشراب للآلهة.[1]

ثم إن خطابهم لهم بقوله ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ صدر عن غيظ منه، مع علمه بأنّهم لا يأكلون ولا ينطقون وكأنّه قال: ما لكم لا تأكلون ولا تنطقون مع أنّكم آلهة بزعم عُبّادكم وانّكم قادرون مدبِّرون لأُمورهم، فلمّا لم يسمع جواباً منهم، عمد إلى ضربهم جميعاً بيمينه ، إلّا كبيراً لهم كما سيوافيك، وبذلك أنجز ما توعّد به أصنامهم بقوله: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

هذا ما نذكره سبحانه في سورة الصافات، وإليك ما ذكره في سورة الأنبياء.

***

يحكي سبحانه في هذه الآيات عن عزم إبراهيم القاطع على كيده للأصنام: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ وهنا نتساءل: هل قال

---

١ . قصة الحضارة: ٢ / ١١١ و ٢٢٢ و ٢٢٣، الفصل الرابع (آلهة بابل).

ذلك أمام قومه؟ الظاهر لا. لأنّهم عندئذٍ لا يتركونه في البلد خوفاً من كيده لها، بل لا يبعد أنّه قاله في نفسه، وكثيراً ما يخاطب الإنسان غيره في نفسه بل يتفوّه بلسانه ويقول: والله لأفعلن كذا في حقّكم مع أنّ المخاطب غائب لا يُرى ولا يَسمع... ثمّ إنّه وصف عمله بالكيد والمراد به التدبير الخفي بالنسبة إلى الأصنام: وفسّر كيده لهم بقوله: ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ**﴾ أي جعلهم قِطَعاً مكسورة إلاّ صنماً واحداً كبيراً استبقاه، لعلهم يسألونه عن حقيقة الحادث، فيعلمون (حيث لا ينطق) جهل من اتخذوه إلهاً،[١] أو يلصقون به (حين يجدونه سالماً) تهمة تحطيم سائر الأصنام.[٢]

ولمّا وجد القوم ما حلّ بأصنامهم، تساءلوا عن المتجرئ على هذا الفعل، و المرتكب للظلم لنَيْله من مقدّساتهم، فشهد بعضهم بأنّهم سمعوا إبراهيم يذكر الأصنام بسوء. وهذا يعني أنّه كان مظنّة لارتكاب هذا الفعل، ومن هنا طلبوا إحضاره في مجمع من الناس ليشهدوا استجوابه وإقراره بهذا الفعل، ويكسبوا بذلك الرأي العام في قتله وإعدامه.

فلما أُحضِر إبراهيم إلى المحكمة قالوا له:﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾.

فأجاب: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ**﴾.

ولم يكن إبراهيم جاداً ومُخبراً في قوله: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ**﴾ بل قاله على نحو إلزام الخصم لغاية إبطال إلوهيته، وهذا كثير الورود في المخاصمات والمناظرات، حين يطرح المناظر قضية غير مؤمن بها، ليتوسل بها إلى إنكار الخصم لها، فيثبت

---

١. انظر: مجمع البيان:٧/ ١٠٠.

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن :١٤/ ٢٩٩.

ما يريد إثباته.

هكذا كان المقام، فإنّ الخليل لما قال إنّ الفاعل هو الكبير، واستشهد (كما في الروايات) بكون القَدوم (الفأس) معلّقةً في رقبته، ودعاهم إلى استنطاق الأصنام المحطمة عن فعله، واجه إنكار القوم بأن يكون الكبير هو الفاعل لعدم قدرته على القيام بهذا العمل، وعجز الأصنام عن النطق، وعندئذٍ تمكّن إبراهيم من إقامة البرهان على إبطال عبوديتهم كما يحكي سبحانه ويقول: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ* فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ* أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ .

فلو لم يعرّف الكبير بأنّه الكاسر، لما أجابوه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾، وبالتالي لم يتمكن من التنديد بالقوم بقوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُم﴾.

ومن هنا يُعلم: أنّ ما روي عن أبي سعيد وابن عباس: انّ إبراهيم كذب ثلاث مرّات، غير صحيح، فقد رويا عن إبراهيم عليه السلام أنّه قال: إنّي كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، والله إن حاول بهنّ إلاّ عن دين الله:

١. قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

٢. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرهُم﴾.

٣. و قوله لامرأته حين أتى على الملك «أُختي» .[1]

---

١. سنن الترمذي: ٥/ ٣٠٨، برقم ٣١٤٨، مسند أحمد: ١/ ٢٨١.

إنّ الـرواية من الإسرائيليـات[١] التي تسرّبـت إلى كتب الحديث بمكـــر وخداع، وعصمـة الأنبياء تردّ الروايـة، ونسبة الكذب إلى الـراوي أهون بكثير من نسبته إلى إبراهيم الخليل الـذي اشترى رضا الله سبحانه باستعـداده لمواجهة النار الحارقـة، وفي ذيل الروايـة مـا يدلّ على أنّ زوجتـه «سـارة» كانت أكثـر غيرة من زوجها، حيث إنّها لم تكذب وقـالت: أنا زوجة إبراهيم لا أُختـه، فردّها الملك إلى إبراهيم ولامه على كذبه.

وهنا نكتة جديرة بالاهتمام وهي أنّ الحجّة الّتي ألقاها إبراهيم عليه السلام، صدمت القوم ، فعاد إليهم رشدهم قليلاً، وشعروا للحظةٍ أنّهم يعبدون ما لا يقدر على أقل شيء وهو الدفاع عن نفسه، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿**فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ**﴾، ومع أنّهم شاهـدوا الحق بوجدانهم وعاينوا البـاطل كذلك غير أنّهم داسوا على وجدانهم وتنكّروا لعقـولهم الّتي آبتْ إليهم قليلاً، ورجعوا إلى سجيّتهم في العناد، وفي تقليب الحقـائق، وإليه يشير قوله سبحـانه: ﴿**ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ**﴾.

والنكس عبارة عن قلب الشيء على رأسـه، ومنه نَكَسَ الولـدُ إذا خرجت رجله قبل رأسـه. والجملة كناية عن الـرجوع إلى الفتنة: يعني انقلبوا إلى المجـادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة إلى وجدانهم[٢]، وهذا يدلّ على انّ الإنسان ربما يدوس وجدانه ويغرّه ويقنعه بالتسويلات.

---

١. التوراة، سفر التكوين: ١٢ و ١٣، الاصحاح الثامن عشر.

٢. التفسير الأصفى: ٢/ ٧٨٥.

٥

إصدار الحكم بإحراق خليل الرحمن

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلى إِبْرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ .[١]

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ* فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.[٢]

***

عدل القوم عن الاحتجاج والمناظرة إلى معاقبة إبراهيم بأشد العقوبات، عقوبة لا يتصور فوقها عقوبة، حيث اتّفقوا على حرقه بالنار، فأصدرت المحكمة حكمها القاطع بإحراقه.

والعجب انّ الوثنيين عامّة شاركوا في إحراقه، وقد نقل المفسرون[٣] أنّ المرأة لتغزل الصوف وتشتري به حطباً، حتّى بلغوا بذلك ما أرادوا. ولأجل ذلك بنوا حائطاً من حجارة وملأوه ناراً وألقوه فيها، وإليه يشير سبحانه: **﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾**.

---

١. الأنبياء:٦٨ـ ٧٠.

٢. الصافات:٩٧ـ٩٨.

٣. راجع تفسير القرطبي:١٥/ ٩٨.

وجاء في الروايات [١] أنّهم لمّا أرادوا إلقاء إبراهيم في النار، لم يدروا كيف يلقونه حتّى توسلوا بالمنجنيق فوضعوه فيها ثمّ رموه.

وكانوا ينظرون إلى ألسنة اللهب كيف تأخذ إبراهيم وتحرقه، ولكنّهم فوجئوا بنجاة إبراهيم من النار، حيث جعلها الله سبحانه برداً **وسلاماً عليه لا** يصيبه من أذاها شيء. وليس هذا بأمر عسير على الله جلّت قدرته، **فالوجود كلّه** بيده، يحكم فيه كيفما شاء، وإليه تنتهي جميع الأسباب، **وهي** خاضعة لأمره وإرادته، **فقد** يُصبح الإنسان قرداً بقوله: ﴿**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[٢]. وأُخرى يجعل النار برداً وسلاماً أو روضة خضراء حسب ما ورد في الروايات. وهذه كرامة لإبراهيم من ربّه جزاء لإخلاصه وتسليمه له سبحانه في أُموره كلّها، وجهاده الدائب في طريق دعوته.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: لما أُجلس إبراهيم في المنجنيق وأرادوا أن يرموا به في النار أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته، ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. فلمّا طرحوه دعا الله فقال: يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فحسرت النار عنه وانّه لمحتبٍ ومعه جبرائيل عليه السلام وهما يتحدثان في روضة خضراء.[٣]

لقد أرادوا به كيداً **ولكن** الله سبحانه جعلهم الاسفلين، أي المقهورين حيث لم ينالوا ما **راموا. وكان** على القوم في هذه اللحظة الحاسمة الّتي تجلت فيها

---

١. راجع بحار الأنوار: ١٢ / **٢٣.**

٢. البقرة: ٦٥.

٣. مجمع البيان: ٧ / ٥٥. **والاحتباء:** هو من جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها. واحتبى بالثوب: اشتمل به.

الحقيقة بأوضح صورها أن يتركوا الوثنية ويعترفوا بوحدانية الله وربوبيته، ويتّبعوا رسالة نبيه إبراهيم الّتي تخرجهم من ذلّ طاعة غير الله إلى عزّ طاعته، ولكنّهم أصرّوا على جهلهم وعنادهم، فلم ير إبراهيم بُداً من الهجرة إلى بلاد أُخرى، وهي أرض الخيرات والبركات، أعني: أرض فلسطين، كما يقول سبحانه حاكياً عنه: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الّتي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾.[١]

٦

هجرته من أرض قومه

قد تعرفت على المرحلة الأُولى من مراحل حياة إبراهيم في أرض بابل وأنّه جاهد في سبيل هداية قومه، ودعاهم إلى انتهاج الصراط القويم بكلّ وسيلة، ولكنّهم قابلوه بالجفاء والإعراض والتهديد والإلقاء في النار، فعزم على مفارقتهم ليأسه من استجابتهم لدعوته، وقرّر الهجرة إلى أرض أُخرى، ربما يجد فيها أمنيّته، ولذلك خاطب قومه بعد أن أنجاه الله من شرّهم: ﴿**إِنّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[٢]، ولعلّ المراد من الهداية هي هداية الله سبحانه إيّاه إلى أرض يتمكن فيها من التبليغ وأداء الرسالة، فهاجر عليه السلام مع ابن أخيه لوط عليه السلام إلى أرض فلسطين المباركة كما يقول سبحانه: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الّتي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾.[٣]

---

١. الأنبياء:٧١.

٢. الصافات:٩٩.

٣. الأنبياء:٧١.

وجاء في بعض الروايات أنّ الطاغية نمرود أمر بنفي إبراهيم من بلاده، وأنّه قال: «إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضرّ بآلهتكم».[١]

٧

ولادة إسماعيل وإسحاق

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ* فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ* وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ* قَالَتْ يَا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيء عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.[٢]

﴿وَلَمّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كانُوا ظَالِمينَ﴾.[٣]

﴿الْحَمْدُللهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.[٤]

﴿فَبَشَّرنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ* فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَي إِنِّي أَرى فِي الْمَنَامِ

---

١. الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٣٠٧ـ٣٠٨، نقلاً عن روضة «الكافي».

٢. هود: ٦٩ـ ٧٣.

٣. العنكبوت: ٣١.

٤. إبراهيم: ٣٩.

إِنّي أَذْبَحُكَ فَانْظُـر مَاذا تَرى قَـالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَـا تُؤْمَرُ سَتَجِـدُني إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .[1]

﴿وَبَشَّرناهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّـالِحينَ* وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهما مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ .[2]

***

هاجر إبراهيم إلى أرض فلسطين وهو بعـد لم يُرزق ولداً ـ لا ذكراً ولا أُنثى ـ ولما ألقى عصى الترحـال في أرض فلسطين بشّره الله سبحـانه بـولادة ولـدين هما: إسماعيل الحليم و إسحاق العليم، إذ أنجبت (هاجـر) ولده إسماعيل أوّلاً، ثـمّ بعد فترة أنجبت (سارة) ولده إسحاق.

وقد استجاب الله سبحانه دعاءه، الّذي رفعه إليه تعالى مبتهلاً : **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّـالِحِينَ﴾**[3] فحبـاه الله سبحـانـه بهذين الـولـدين وهـو في كبر سنـه، فقال:**﴿الحَمْـدُللهِ الَّـذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾**.

وكان عليه السلام قد تزوج بـ(سارة) أوّلاً إلاّ أنّها كانت عـاقراً فلم يُرزقا ولداً حتى تقدّمت بها السنّ، ثمّ تزوج بجارية مصرية اسمها (هاجر) فرزق منها بإسماعيل.

ثمّ شاء الله سبحانـه أن يُبشّر (بواسطة ملائكته) إبـراهيم بأنّه سيرزق ولداً من سارة، رحمةً بأهل هذا البيت و إفاضةً لنعمه عليهم.

وهؤلاء الملائكة هم الرسل الذين أُرسلوا إلى إهـلاك قوم لوط، وقد نزلوا ـ و

---

١. الصافات:١٠١ـ١٠٢.

٢. الصافات:١١٢ـ١١٣.

٣. الصافات:١٠٠.

هم في مسيرهم إليهم ـ بيت إبراهيم في هيئة الآدميين، فحيّوا إبراهيم بالسلام، فردّ عليهم بمثله.

ولما حلّ هؤلاء المرسلون بيت إبراهيم؛ ظنّهم بشراً، فقام على عادته في إكرام الأضياف بتقديم الطعام إليهم، وكان عِجْلاً مشوياً، ولكنه رأى أيديهم لا تمتدّ إلى العجل، فأنكرهم وأضمر منهم خوفاً، حيث إنّ أهل ذلك الزمان كانوا إذا أكل بعضهم طعام بعض آمنه صاحبُ الطعام على نفسه وماله.[1] ولما رأى الملائكة ما به، كشفوا له عن الحقيقة، و﴿**قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ**﴾.

وكانت امرأة إبراهيم تسمع ما يجري من حديث بين زوجها والملائكة﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ**﴾ واختلف المفسرون في السبب الّذي أضحكها، فقيل: تعجباً وسروراً من البشارة بإسحاق، وقد هَرِما، وعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: فبشّرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة، وقيل: ابتهاجاً بقرب هلاك قوم لوط الملوثين، وقيل غير ذلك.

وقيل إنّ «ضحكت» هنا بمعنى «حاضت»، وإنّ الضَّحك ـ بفتح الضاء ـ هو الحيض، وعلى هذا لا يحتاج الكلام إلى تقديم وتأخير.[2]

وأثارت البشارة الّتي زفّتها الملائكة لامرأة إبراهيم بأن تلد إسحاق، وهي وزوجها في مثل هذه السن، أثارت عجبها(إذ ورد عليها ما لم تَجْرِ به العادة قبل أن تفكّر).[3]

---

١. وقيل في سبب خوفه منهم غير ذلك. انظر مجمع البيان:٥/ ٣٤١.

٢. وقال الشيخ محمد جواد مغنية: أمّا ضحكها فلكلّ حديث عندهن بشاشة، والله أعلم بالسبب الّذي أضحكها. التفسير الكاشف:٤/ ٢٤٩.

٣. التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ٣٣.

وهنا جاء تنبيه الملائكة لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ وهو الّـذي لا يُعجزه شيء، والقادر على إجـراء الأُمور على خـلاف العادة إذا اقتضت الحكمـة ذلك، وقد شمـل الله تعالى إبـراهيم وأهل بيته بلطفـه ورحمته وعنـايته بما أخلصـوا له في أقوالهم وأعمالهم، وبما تحمّلـوا من شدائد وآلام من أجل العقيـدة والرسالـة الإلهية المقدسة. وهـذه البشارة هي من شآبيب رحمته وفضلـه وبركته عليهم ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

٨

الخليل وبناء الكعبة

تعلّقت إرادة الله الحكيمة ببناء بيت يكـون مثابة للناس، وحرمـاً آمناً تُصان فيه الدمـاء والأموال، ويقصده النـاس في كـلّ سنـة من كلّ فـجٍّ عميق، فأوحى سبحانه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ببناء ذلك البيت في مكة المكرمة، فبناه عليه السلام بمعونة ولده إسماعيل عليه السلام فكانـا يرفعـان القواعـد من البيت داعين الله تعالى بقبـول هذا العمل. ولم يـزل هـذا البيت منذ بنـائه إلى يـومنـا هذا ملتقى الموحّـدين ومهـوى أفئدتهم، وقد شرّع سبحانه لزيارة بيته مناسك عبادية عظيمة.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.[1]

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّـرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُـودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

١. آل عمران:٩٦.

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.(١)

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(٢)

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.(٣)

***

ذكر المفسرون حول هذه الآيات قصة هجرة إسماعيل مع أُمّه إلى مكة المكرمة، ونحن نذكر هنا ما لا يخالف العقل، أو النقل الصحيح: كتاباً وسنّة.

روى القمي في تفسيره قال: إنّ إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غمّاً شديداً، لأنّه لم يكن لها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه، فشكا إبراهيم ذلك إلى الله عزّ وجلّ، فأمره: أن يخرج إسماعيل وأُمّه، فقال: يا رب إلى أي مكان؟ فقال: إلى حرمي وأمني، وأوّل بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم، وكان إبراهيم لا يمرّ بموضع حسن فيه شجر

---

١. الحج:٢٦ـ٢٧.

٢. البقرة:١٢٧ـ١٢٩.

٣. البقرة:١٢٥.

وزرع ونخل إلاّ وقال إبراهيم: يا جبرئيل إلى هاهنا، فيقول جبرئيل: لا، امض، امض، حتّى وافى مكة فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتّى يرجع إليها، فلمّا نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً كان معها فاستظلوا تحته، فلمّا سرحهم إبراهيم ووضعهم، أراد الانصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: يا إبراهيم أتدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الّذي أمرني ان أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم.[1]

ثمّ إنّ إبراهيم تركهم في هذا المكان المُقفر، امتثالاً لأمر الله، مستودِعاً إيّاهم الربّ الكريم الّذي لا يضيع من عاش في كنف رعايته وفضله ونعمته.

وكان إبراهيم يزور هذا المكان من حين إلى آخر إلى أن وافاه الخطاب ببناء البيت الحرام، وجعله موضعاً لعبادة الموحّدين، وإليه يشير سبحانه بقوله: **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْراهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**.[2]

أي وطّأنا وهيّأنا لإبراهيم مكان البيت، وعرّفنا له ذلك بما جعلنا له من العلامة، وأمرناه أن لا تعبد غيري وطهّر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان للطائفين والقائمين والرُّكّع السجود.

ولعل المراد بالقائمين المقيمين بمكة في مقابل الطائفين الذين يفدون إليه ويرجعون.

---

١. تفسير القمي: ١/ ٦٩ ـ ٧٠ في تفسير قوله سبحانه: ﴿طَهِّرا بَيْتِي لِلطّائِفين﴾.

٢. الحج: ٢٦.

والآية قد تُشير إلى وجود البناء قبل إبراهيم، حيث دلّه سبحانه على مكان البيت، وأمره بتطهيره. ويؤيد ذلك ما رواه زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: يا زرارة! بيت يحجّ إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاماً». [١]

ولعل المراد من أنّ البيت كان يُحجّ قبل آدم بألفي عام، أنّ الملائكة كانت تحجّه.

وجاء في «نهج البلاغة»: «ألا تَرَونَ أنّ الله سبحانه، اختبر الأوّلين من لدن آدم صلوات الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالَم، بأحجارٍ لا تضرّ ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع، فجعلها بيتَه الحرام، الّذي جعله للناس قياماً». [٢]

كما أنّه سبحانه يذكر كيفية بناء البيت بقوله: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾.

ففي الآية إشعار بأنّ إبراهيم وإسماعيل كانا يرفعان أُصول البيت ويُعليان أُسَسه الّتي كانت موجودة قبل ذلك.

هذا، وقد اختلفت أقوال المفسرين والمؤرخين في تاريخ بناء البيت الحرام، فذهب أكثرهم إلى أنّه بُني قبل إبراهيم عليه السلام بكثير، وأنّه عَرَضَ له الخراب، فجدّده هو وولده إسماعيل، وذهب بعضهم إلى أنّهما هما اللّذان شرعا في بنائه ولم يكن له وجود من قبل، بينما توقف آخرون، وتركوا الأمر إلى علاّم الغيوب.

١. الوسائل: ٨، الباب ١ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، الحديث ٢.

٢. نهج البلاغة: ٢٩٢، الخطبة ١٩٢ (وتسمّى القاصعة).

النداء العام لزيارة البيت

أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس ويُعلِمُهم بوجوب الحج، فكأنّه قال يا أيّها الناس انّ الله دعاكم إلى الحج فأجيبوا بلبيك اللّهم لبيك، في زمان النداء. ثمّ بشرّه سبحانه بأن يستجيب لندائه كثير من الناس، الذين سوف يأتون إليه من كلّ طريق بعيد، قال تعالى: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾.

والمراد بقوله: ﴿**رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ**﴾ أي يأتونك مشاة وركباناً على ضوامر من الخيل والإبل.

وقد وصف الله تعالى بيته الحرام بهذين الوصفين:

١. ﴿**مثابة للناس**﴾ حيث إنّ الناس يثوبون(يرجعون) إليه ويقصدونه كلّ عام.

٢. ﴿**وَأمناً**﴾أي مأمناً، فمن التجأ إليه لا يخاف على نفسه مادام فيه.

ثم عظّم منزلة إبراهيم، بأن أمر المسلمين أن يصلّوا عند مقامه بعد طواف الفريضة، والمراد هو المقام المعروف الّذي هو في المسجد الحرام، إذ جعل الله سبحانه مكان قدميه مصلّىً ومعبداً يُتبرك به، كما جعل المسعى معبداً لما مسته أقدام هاجر عندما طلبت الماء لولدها إسماعيل. ولو دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على جواز التبرك بالأمكنة الّتي مستها أبدان الأنبياء وأبنائهم، بل حتّى النساء المؤمنات كذلك.

وقد عدّ سبحانه مقام إبراهيم إحدى الآيات بقوله: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**﴾[1]. والضمير المجرور (فيه) يرجع إلى البيت المذكور

---

١. آل عمران: ٩٧.

قبله، أي في البيت ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ ودلالات واضحات ومنها مقام إبراهيم، فإنّ أثر قدميه في المقام آية بيّنة.

٩

الخليل والابتلاء العظيم

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ* فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ* سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .[١]

***

جرت سنّة الله تعالى على اختبار عباده من غير فرق بين طائفة دون طائفة، كاختبار الناس بعضهم بعضاً، ولكن الغاية من اختبار الله عباده غير الغاية من اختبار الناس، فإنّ الهدف من الثاني هو التعرف على ما لدى الممتحَن من القوة والاستعداد، واستعلام مقدار إحاطته بموضوع الامتحان، وهذا هو المعنى السائد في لفظ الامتحان بين الناس.

أمّا ابتلاؤه سبحانه لعباده، فهو ليس لأجل كشف الستر عن وجه الحقيقة،

---

١. الصافات:١٠١ـ ١١١.

لأنّه سبحانـه عالم بالسرّ والخفيّات ولا يعـزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وإنّما الغاية من ابتلاء عباده أحد أمرين:

الأوّل: البلـوغ بالإنسـان الممتَحَن إلى قمـة الكمال المعنوي، فقـد تكمن في صميم ذاته قـابلية للـوصول إلى الكمال، ولكنّهـا قابلية محضـة وقوة خـالصة، لا تنقلب إلى الفعليـة إلاّ إذا تعرضت للبـلاء والامتحـان، قال الإمـام عليعليه السلام وهو يفسّر قولـه تعالى: ﴿**وَاعْلَمُـوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَـةٌ**﴾[1]: ومعنى ذلك أنّـه يختبرهم بـالأمـوال والأولاد ليتبين الساخط لـرزقـه، والـراضي بقسمه، وإن كـان سبحـانه أعلم بهم مـن أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعـال الّتي بها يستحق الثـواب والعقاب.[2]

فقـوله: «لتظهـر الأفعال الّتي بها يستحق الثـواب والعقاب»، يشير إلى مـا ذكرنـا من أنّ الإنسان قـد تكمن في ذاته مـا يستحق به أحـد الأمرين خصـوصاً الثواب، فما لم يتعرض لـلامتحان يبقى ما يستحق به الثواب بصـورة القوة الصرفة ولا يُجزى به، وأمّا إذا تعرّض للابتلاء فإنّ القوة تخرج إلى عالم الفعلية ، الذي يظهر فيـه جمال المرء وكمالـه، أو يَبِين فيه خبثـه ودنـاءتُـه، ومن هذا القبيل كـان ابتـلاء إبراهيمعليه السلام حيث أمره سبحانه بذبح فلذة كبده وثمرة فؤاده، والإنسان يحب ثمرة وجوده حباً شديداً ولا يعدل به إلى غيره.

هذا من جانب ومن جانب آخر، فإنّ كمال العبد، هو فناؤه في حب خالقه وبارئه، وتجرّده عن حب كلّ شيء سواه، ولا يتجلّى الخلـوص إلاّ إذا تعرض العبد للاختبار ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾[3]، فثمّة من

---

١. الأنفال:٢٨.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار برقم ٩٣.

٣. العنكبوت:٢.

يسترسل مع أهوائه، ويتهالك على المال والجاه والمنصب وغير ذلك، فيُطغيه الترف، ويستبدّ به الغرور، وتصرعُه المطامع. وهذا يعني الفشل في الامتحان، والتسافل، والتردي في هوّة الشقاء والهوان والعصيان ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾.[١]

وهناك من يُسارع إلى طاعة الله، ويعمل ويتحرك في حدود ما يُرضي الله، (فلا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق)[٢]، ولا يريد علوّاً ولا فساداً في الأرض، و هذا يعني النجاح في الامتحان، والتكامل، والارتقاء في مدارج السعادة والهناء ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.[٣]

الثاني: تمييز الخبيث من الطيب، والمطيع الصادق عن المدّعي الكاذب، إذ طا لما يدعي إنسان أنّه مطيع لربه ومخالف لهواه، وربما يكون صادقاً، فإذا تعرّضا للامتحان، تميّز الصادق عن الكاذب، والمطيع عن العاصي، وإلى تلك الغاية يشير قوله سبحانه :﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.[٤]

ويقول في آية أُخرى :﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.[٥]

وقد امتحن الله سبحانه إبراهيم للغاية الأُولى ليرتقي به إلى قمة الكمال، وذلك بأن أمره بذبح ولده إسماعيل؛ الّذي بشّر به ووصفه بالحلم: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ

---

١. الحج:١٨.

٢. نهج البلاغة: ٣٠٣، الخطبة ١٩٣ (يصف فيها المتقين).

٣. آل عمران:١٨٥.

٤. الأنفال:٣٧.

٥. آل عمران:١٧٩.

بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[١]. وتوصيف الغلام بالحلم يدلّ على أنّه كان حليماً صابراً في طريق الابتلاء والامتحان.

ولما بلغ الغلام الحليم مبلغاً من العمر يسعى فيه لحوائج الحياة عادة، وراهق **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾**، خاطبه أبوه قائلاً: **﴿يَا بُنَيِّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾**، فالآية تدلّ على أنّ إبراهيم فهم من منامه انّه أُمر بالذبح[٢] فكأنّ الصورة العملية للذبح في المنام كانت إشارة إلى القيام بالذبح حتّى يتحقق ما رآه في المنام في الخارج ، ولذلك طلب من ابنه إبداء رأيه في ذلك، قائلاً: **﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾**، أي فكّر فيما قلت، وعيّن ما هو رأيك فيه.

وجاءه الردّ سريعاً: **﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** ولم يقل:«يا أبت اذبحني» إشارة إلى أنّه مسلّم لكلّ ما أُمر به أبوه سواء أكان ذبحاً أم غيره. كما أنّ قوله : **﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** نوع تطييب منه لنفس أبيه، ووعد منه بأنّه لا يجزع، فيثير عواطف أبيه.

وبهذا تمت الخطوات الأُولى لتنفيذ الأمر الإلهي بذبح إسماعيل بيد والده الكريم. وهذه لحظة حاسمة جدّاً، إذ قلّما يتّفق لإنسان مهما بلغ من الفضل والكمال أن يقوم بهذا الأمر بشجاعة وحماسة، وقلّما يتّفق لولد مهما بلغ من الصبر والحزم أن يسلّم نفسه للذبح والقتل عن إيمان ورباطة جأش.

ولكن شاء الله سبحانه أن ينال خليله إبراهيم هذه الكرامة، وأن يتقلد ولده

---

١. الصافات:١٠١.

٢. ذلك أنّ رؤيا الأنبياء تختلف عن رؤى الناس، فرؤياهم كلّها صادقة تخبر عن واقع كائن، كما هو الحال في رؤيا يوسف، ولذلك لما قصّها لأبيه يعقوب أمر الأب يوسف أن يكتم رؤياه، وقال: **﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾** يوسف:٥.

الحليم إسماعيل تلك الشهادة.

خرج الوالد والولد إلى منىٰ مستسلمَيْن لأمر الله سبحانه، فلما ألقىٰ إبراهيم ولده على شِقّـهِ، كما يحكي سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وأراد أن يذبحه، وافاه الخطاب﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ بإقدامك وعزمك على تنفيذ ما أمرنا به.

لقد أراد سبحانه أن يختبرهما بهذا الأمر الشاق، فلمّا امتثلا له، وبادرا إلى الطاعة، جازاهما سبحانه بأحسن الجزاء ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ، إذ كشف سبحانه عنهما هذه المحنة الشديدة بأن فدّى إسماعيل بذبح عظيم الشأن ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1] وكان ـ كما ورد في الأخبار[2] ـ كبشاً أتى به جبريل من عند الله فداءً لإسماعيل.

إنّ ما قام به إبراهيم بقي على جبين الدهر علامة مضيئة على إخلاصه وصفائه، وإلى ذلك يشير سبحانه بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾، أي أبقينا له ثناء حسناً وذكراً جميلاً عند الناس. ثمّ ختم سبحانه كلامه بالسلام على إبراهيم وبإسباغ صفة العابد المؤمن عليه: ﴿سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.[3]

الذبيح هو إسماعيل

ابتدأ سبحانه وتعالى قصة الذبح بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ وأدار الكلام حول هذا الغلام. وبعدما أتمّ قصة الذبح وأنهى الكلام فيها بقوله:﴿إِنَّهُ

---

١. الذِّبح (بكسر الذال): المهيّأ لأن يُذبح.

٢. راجع مجمع البيان:٨/ ٣٢٤؛ الميزان:١٧/ ١٥٣.

٣. الصافات:١٠٩ـ ١١١.

مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، شرع في ذكر البشارة لإبراهيم بإسحاق: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[1]

وهذا يدلّ على أنّ الذبيح هو الغلام الحليم، أعني: إسماعيل، وإنّما بشّره سبحانه بولادة إسحاق بعد الابتلاء بذبح الغلام الحليم. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الذبيح غير إسحاق، ولما لم يذكر القرآن لإبراهيم إلاّ ولدين، تعيّن أنّ الذبيح هو إسماعيل.

ويؤيد هذا ما ذكره الطبرسي في تفسيره، قال: روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرضي قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فسألني عن الذبيح؟ فقلت: إسماعيل واستدللت بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فأرسل إلى رجل بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنّه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده، فقال: إسماعيل، ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان من أمر الله فيه ما كان، فهم يجحدون ذلك ويزعمون انّه إسحاق لأنّ إسحاق أبوهم.

وقال الأصمعي : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق أم إسماعيل؟ فقال : يا أصمعي أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنّما كان بمكة إسماعيل، وهو بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة لا شكّ فيه .[2]

وروي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أنا ابن الذبيحين».[3] فبما أنّ لأبيه

---

١. الصافات:١١٢.
٢. مجمع البيان:٨/ ٤٥٣.
٣. السيرة النبوية:١/ ١٥٣.

عبـدالله مصيراً نظير مصير إسماعيل، وبما أنّ أحـدهما هـو أب والآخـر هـو الجد الأعلى له سمّى نفسه ابن الذبيحين.

١٠

خليل الرحمن

وطلب إراءة إحياء الموتى

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[١]

روى المفسرون أنّ إبراهيم رأى جيفـة تمزقها السباعُ فيأكل منهـا سباعُ البرّ، وسبـاعُ الهواء، ودواب البحـر، فسأل الله إبـراهيم فقـال: يـا رب قـد علمت أنّك تجمعها من بطون السباع والطير ودواب البحر فأرني كيف تحييها لأُعاين ذلك.[٢]

لا شكّ في أنّ إبـراهيم كـان قـويّ الإيمان بيـوم البعث وإحيـاء الموتى عن طريق العقل والـوحي ولم يتسرّب الشك إلى إيمانه قيـدَ شعرة، ولكن بما أنّ لليقين مـراتب مختلفة، فأين المشـاهدة بـالعين لحقيقةٍ مـا، من اليقين الحاصل بالبرهـان والدليل، فقـد طلب من الله سبحانـه أن يريـه كيفية إفـاضة الحيـاة على الأموات ليزداد يقينه ويرى بـأُمّ عينيه السرّ الإلهي في كيفية إحياء الموتى، حتّى ينقلب علم

١. البقرة: ٢٦٠.

٢. مجمع البيان: ٧/ ٣٧٢.

اليقين إلى عين اليقين.

وقد أشار سبحانه إلى مراتب اليقين في قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.[1]

استجاب الله طلبه، وأمره أن يأخذ أربعة طيور مختلفة الأجناس، ثم يُقطّعهنّ، ويفرّق أجزاءهنّ، ويضع على كلّ جبل منهنّ جزءاً، ثم يدعوهنّ، ففعل إبراهيم ذلك، ثم دعاهنّ، فاجتمعت أجزاؤهنّ، ودبّت فيهنّ الحياة، وعُدن إلى إبراهيم سعياً.

والمراد من قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي اقطعهنّ، أمّا تعديته بلفظ «إليك» فلأنّه يتضمن ــ مضافاً إلى التقطيع ـ معنى آخر وهو أمِلْهُنّ إليك. ولعل الغاية من تضمين الكلمة معنى الإمالة، التعرّف على شأنها لئلاّ يلتبس عليه الأمر بعد الإحياء.

نظرية المنار ونقدها

ومن الآراء الشاذة ما ورد في المنار ونسبه إلى أبي مسلم[2] المفسر الشهير وقال: ليس في الكلام ما يدلّ على أنّه فعل ذلك، وما كل أمر يُقصد به الامتثال، فإنّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر لا سيما إذا أُريد زيادة البيان، كما إذا سألك سائل كيف يصنع الحبر مثلاً؟ فتقول خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن حبراً.

---

١. التكاثر:٥ـ٧.

٢. محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم(٢٥٤ـ ٣٢٢هـ): عالم معتزلي، مفسر، كاتب. ولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي. له جامع التأويل، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك . الأعلام:٦/ ٥٠.

تريد هذه كيفيته، ولا تعني تكليفه صنع الحبر بالفعل. قال: وفي القرآن كثير من الأمر الّذي يراد به الخبر والكلام هاهنا مثل لإحياء الموتى. ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وآنسها بك حتّى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإنّ الطيور من أشد الحيوان استعداداً لذلك ثم اجعل كلّ واحد منها على جبل ثمّ ادعها فإنّها تسرع إليك، لا يمنعها تفرّق أمكنتها وبعدها من ذلك. كذلك أمر ربّك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين «كونوا أحياء» فيكونوا أحياء كما كان شأنه في بدء الخلق، إذ قال للسماوات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. هذا ما تجلّى به تفسير أبي مسلم وقد أورده الرازي مختصراً وقال:

والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة، وأنكر (يعني أبا مسلم) القول بأنّ المراد منه فقطّعهن.[1]

يلاحظ عليه: أوّلاً: أنّ الخليل طلب من الله سبحانه أن يُريه إحياء الموتى، وهذا التمنّي لا يتحقق إلاّ بما ذكره المفسرون من أنّه أخذ أربعة من الطيور فقطّعهن وجزّأهن وجعل على كلّ جبل منهن جزءاً ثم دعاهن فأتين إليه سعياً. وأمّا إذا أخذ أربعة من الطير ثم جعل كلّ واحد على جبل وهو حي فدعاهن فأسرعن إليه ولم يمنع تفرق أمكنتها وبُعدها من ذلك إلى آخر ما ذكره، فهذا لا يُحقّق طلب إبراهيم.

ثانياً: أنّ ما ذكره من أنّه جعل كلّ طير حي على كلّ جبل لا يناسب قوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ اجعل عَلىٰ كُلّ جَبَلٍ مِنْهنَّ جزءاً**﴾، فإنّ الجزئية حاكية عن تقطيع الطيور ومزج لحومها بعضها ببعض حتّى صار الكل شيئاً واحداً فجزأهن. والعجب انّه قال في تقرير النظرية: «ثمّ اجعل كلّ واحد منها على جبل» مع

---

١. تفسير المنار:٣/ ٥٥ـ ٥٦.

صريح القرآن ثم اجعل على كلّ جبل منهن جزءاً لا واحداً.

وأظنّ أنّ الّذي حمل صاحب المنار على التأويل البعيد و المتعسف للآية، هو إرضاء أو مجاملة المبهورين بالكشوف العلمية آنذاك، والذين ينكرون المعاجز والكرامات الّتي لا يدعمها العلم التجريبي. ومن هنا سعوا إلى إخضاع نصوص الوحي للحسّ والتجربة، وفهمها ضمن هذا الإطار في محاولة للتوفيق بينهما.

وهذا منحىً خطير، بعيد عن شأن المفسر الواعي الّذي يستلهم من القرآن ولا يحكم عليه ويتعلّم منه ولا يكون معلّماً له. فلو حاولنا تأويل كلّ القضايا الغيبية الواردة في القرآن الكريم وفق الاتجاه المذكور، لأدىٰ ذلك إلى طرح نصوص القرآن وظواهره، وهو ممّا لا يقول به من يلتزم بالقرآن الكريم ويتخذه دستوراً وإماماً.

١١

تنصيبه لمقام الإمامة

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.[١]

الآية المباركة تدلّ على أنّه سبحانه بعد أن امتحن إبراهيم بكلمات وابتلاه بها وخرج من هذا الامتحان موفقاً شامخ الرأس، تفضّل عليه بالإمامة ونصبه لهذا المقام، ثمّ إنّه عليه السلام طلب من الله سبحانه أن يمنّ بها على ذريته، فاستجاب الله

١. البقرة:١٢٤.

سبحانه دعوته لكن لغير الظالمين منهم.

وعندئذٍ يقع الكلام في الأُمور التالية:

١. ما هو المراد من الكلمات الّتي ابتلي بها إبراهيم؟

٢. ما هو المراد من إتمامها؟

٣. ما هو المراد من الإمام في قوله: للناس إماماً؟

٤. ما هو المراد من الظالمين الذين لا ينالهم منصب الإمامة؟

وبإيضاح هذه الأُمور الأربعة يتّضح معنى الآية.

١. الكلمات والابتلاء

الكلمات جمع الكلمة وهي ترادف اللفظ الموضوع، وربّما تطلق على الجملة، فيقال: لا إله إلاّ الله كلمة الإخلاص، يقول ابن مالك في الغنية: «وكلمة بها الكلام قد يُؤمّ»، وربما تستعمل في الأشياء الخارجية، ولذا سمّى الله سبحانه المسيح كلمة: ﴿**بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾[1]، كما أنّه سبحانه سمّى عالم الكون من جواهره وأعراضه كلمات: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾[2]، وربما تستعمل الكلمات في مورد التكاليف الّتي يؤمر بها الإنسان لغاية الامتحان، وهذا هو المراد منها في الآية المباركة وقد امتحن الله سبحانه الخليل بأوامر شاقة لا يقوم بها إلاّ الأمثل فالأمثل من الناس، فقد ابتلاه بالأُمور التالية:

١. ترك الوطن وإلقاء الرحل في دار الغربة لنشر الدعوة بعد إجماع قومه على

---

١. آل عمران:٤٥.

٢. الكهف:١٠٩.

إحراقه، وقد حكى سبحانه عنه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.[١]

٢. بعد أن استقر به المقام في دار الغربة ورُزق بولده إسماعيل، أمره الله سبحانه بإسكان أهله وولده بواد غير ذي زرع. فأسكنهم هناك، صابراً على لوعة فراقهم، طاوياً ضلوعه على لواعج الشوق إليهم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.[٢]

٣. أمره سبحانه بعمارة البيت ورفع قواعده وتطهيره: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[٣]

٤. أمره سبحانه بذبح ولده، فامتثل أمره، وعزم على تنفيذه برحابة صدر وتسليم مطلق لله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤]. وبما أنّ الاستسلام لأمر ذبح الولد والرضا به، يُعدّ من أقوى مظاهر الابتلاء، وصفه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.[٥]

بهذه المواقف والأعمال قامت الحجة على خلوّ قلب إبراهيم من كلّ شيء سوى حبِّه لله سبحانه وإيمانه به، ووفائه بما عهد إليه من أوامر وتكاليف.

٢. ما هو المراد من الإتمام؟

هذا كلّه حول الابتلاء وأمّا الإتمام فربما يطلق ويراد به ما يقابل النقص

---

١. الصافات:٩٩.

٢. إبراهيم:٣٧.

٣. البقرة:١٢٥.

٤. الصافات:١٠١ـ١٠٢.

٥. الصافات:١٠٥ـ١٠٦.

وأُخرى إبلاغ الشيء حدّ الكمال، يقول سبحانه: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.[١]

وعلى ضوء ذلك فالمراد من إتمام الكلمات هو القيام بها حق القيام، وأداؤها على أحسن وجه، كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[٢]، أي تمّم وأكمل ما امتحن به ، ويؤيد ذلك أنّ الفاعل في وفّى (هو إبراهيم) كما أنّ الفاعل في أتمهنّ(هو إبراهيم).

٣. ما هو المراد من الإمام؟

الإمام في اللغة كما ذكر صاحب القاموس: ما يتعلّمه الغلام كلّ يوم من رؤوس الأقلام. وما امتثل عليه من إمام ودليل، وخشبة يسوّى عليها البناء.[٣] وهذه العبارة من صاحب القاموس توصلنا إلى المعنى الأصيل لهذا اللفظ، وهو أنّ الإمام عبارة عن كلّ شيء يتّخذه الإنسان مثالاً لعمله ودليلاً لفعله ويطبّق فعله وعمله على ذلك المثال والدليل.

هذا هو المعنى الأصلي لهذه الكلمة، وعلى هذا الأساس استعملت في القرآن المجيد في الموارد التالية بما أنّها من مصاديق ذلك الجامع:

أ. التوراة إمام: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾.[٤]

ب. الطريق الّذي تمشي عليه القوافل إمام: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾.[٥]

---

١. المائدة:٦.
٢. النجم:٣٦ـ ٣٧.
٣. القاموس المحيط: مادة «أمّ».
٤. هود: ١٧.
٥. الحجر:٧٩.

ج. قادة الفكر والانحراف أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ﴾.[1]

فالمعنى في الجميع واحد، وهو الدليل الّذي يُهتدى به، والمثال الّذي يمتثل به، وإن كانت التطبيقات مختلفة، فالتوراة إمام، لأنّها يقتدى بها؛ وطريق القوافل إمام، لأنّ القوافل تتّخذه دليلاً وتمشي عليه؛ وقادة الكفر بل جميع القادة أئمّة، لأنّ المقتدين يتّخذونهم مثالاً في الحياة ويمشون على آثارهم حتّى أنّ الأنبياء جميعهم أئمّة بهذا المعنى، فإنّ عملَ وقولَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتقريره تتّخذ مثالاً ودليلاً يُسار على ضوئه.

وهذا ما قلنا من أنّ معنى الإمام في الذكر الحكيم لا يختلف عن المعنى الّذي نصّت عليه الكتب اللغوية حتى الإمام في الآية المباركة، فقد استعمل فيها الإمام بالمعنى اللغوي لا غير، وهو الدليل والمثال والأُسوة والمقتدىٰ، غير أنّ ما يجب التدبّر فيه هو الوقوف على الملاك الّذي جعل به الخليل عليه السلام إماماً، فهل هو لأجل كونه نبياً أو رسولاً أو خليلاً، أو كونه مفترض الطاعة، أو غير ذلك من الملاكات المختلفة الّتي تُصحّح كون الإنسان إماماً؟

ما هو الملاك في إمامة الخليل عليه السلام؟

إذا كان الإمام بمعنى الأُسوة والمقتدىٰ فيجب أن نقف على ما هو السبب من تخصيص الإمامة بالخليل دون من تقدمه من الأنبياء أو عاصره. وقد اختلفت كلمة المفسرين في بيان ذلك الملاك، وسوف نسردها هنا مع التحليل.

---

١. القصص:٤١.

الملاك الأوّل: الملاك هو النبوة

ذهب غير واحد من المفسرين ومنهم الرازي في مفاتيح الغيب إلى أنّ الإمامة هي النبوة.[١]

وهذا هو أيضاً مُختار صاحب المنار قال: الإمامة هنا عبارة عن الرسالة وهي لا تنال بكسب الكاسب وليس في الكلام دليل على أنّ الابتلاء كان قبل النبوة.[٢]

وكي نتوصل إلى حقيقة الأمر، نشير إلى مراحل حياة إبراهيم الّتي عرضها القرآن الكريم، والّتي تساهم في إلقاء الضوء على هذا الموضوع.

١. كان عليه السلام صاحب ذرية، عندما تفضّل عليه سبحانه بالإمامة، بشهادة أنّه طلبها لبعض ذريته ﴿**قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾، وهذا يعني أنّه كان صاحب ذريّة عند نصبه إماماً.

٢. انّه لم يُرزق بولديه إلاّ بعد أن هاجر من بلاده إلى الأرض المباركة، وأصبح شيخاً كبيراً، بدليل قوله: ﴿**اَلْحَمْدُ للهِ الّذي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾.[٣]

٣. انّه كان نبيّاً قبل هجرته من بلاده، حيث ناهض فيها المشركين، وحطّم أصنامهم، وتحمّل الصعاب والآلام في سبيل دعوتهم إلى التوحيد ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً* إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً**﴾.[٤]

---

١. مفاتيح الغيب: ١/ ٤٩٠.
٢. المنار: ١/ ٤٥٥.
٣. إبراهيم: ٣٩.
٤. مريم: ٤١.

وبملاحظة هذه النقاط، يُعلم أنّه قد خُصّ بالإمامة بعد فترة طويلة من نبوّته، وبعد مسيرة حافلة بالأحداث والابتلاءات.

وبهذا يتبيّن أنّ تفسير الإمامة بالنبوة غير صحيح.

الملاك الثاني: كونه أُسوة لمن بعده

إنّ الله سبحانه بعث الخليل بشريعة لم تُنسخ برحيله، بل أُمر المبعوثون من بعده بالسير على ضوئها، وبذلك صار إماماً للناس باعتبار تبعيّة أنبيائهم له. وهذا مقام شامخ تبوّأه الخليل، باستحقاقه ولياقته.

ويؤيد ذلك انّ الله سبحانه وصف كتاب موسى إماماً باعتبار أنّ الأنبياء الذين بُعثوا بعده كانوا يعملون بشريعته ويتّبعون كتابه وأحكامه، يقول سبحانه: **﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾**.[1]

توضيح الآية: انّه سبحانه يصف المؤمنين بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنّهم آمنوا بدعوة الرسول الخاتم بدلائل تدلّ على صحة دعوته. وهذه الدلائل تتلخص في أُمور ثلاثة:

الأوّل: نفس القرآن الكريم، وإليه يشير قوله سبحانه: **﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾**، والمراد من البينة هو القرآن. فتحديه بالقرآن آية كونه من جانب الله سبحانه.

الثاني: **﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾**، أي الله يشهد بصحة نبوته، فلو كان الضمير في «منه» عائداً إلى الله كما مرّ، فالمراد به جبرئيل لأنّه يتلو القرآن للنبي.

---

١. هود:١٧.

الثالث: ﴿**وَمِنْ قَبْلِهِ**﴾ أي قبل القرآن، ﴿**كِتَابُ مُوسَى**﴾ يشهد على صدق نبوته، لأنّ موسى الكليم بشّر بنبوته في التوراة.

وأمّا سرّ كون كتاب موسى إماماً فلأجل انّ التوراة يُؤتم بها في أُمور الدين، ورحمة ونعمة من الله تعالى على عباده. فالذين بعثوا بعد الكليم، كانوا يسيرون على ضوء التوراة في كافة المجالات، فلو وُصِف كتابُ موسى بالإمامة فصاحب الكتاب أيضاً إمام لمن بعده، يُؤتّم به في الأقوال والأفعال.

ومع ذلك كلّه فلم يوصف المسيح ولا إنجيله بالإمامة، ولعلّ الوجه انّه لم يكن صاحب شريعة مستقلة بل كان مأموراً بالعمل بالتوراة ، غير أنّه ربما يُحِلّ لهم بعض ما حُرّم عليهم كما يقول سبحانه: ﴿**وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾.[١]

وهناك احتمال آخر وهو أنّه سبحانه لم يذكر إمامة المسيح وكتابه لأجل أن طرف الخطاب هم اليهود، وهؤلاء لم يكونوا مؤمنين با لمسيح.

وبذلك يعلم أنّ النبي الخاتم أيضاً إمام، لأنّ شريعته عالمية، وقد أُمر الإنسان بالعمل بها إلى يوم القيامة، فهو إمام للناس بأقواله وأفعاله وكتابه، وإن خُتمت به النبوة وليس بعده أيّ نبي يأتمُّ به في كتابه وسنّته، لكنّه إمام باعتبار دوام شريعته إلى يوم القيامة. وعلى كلّ تقدير فهذا مقام عظيم يناله الأفضل فالأفضل من الأنبياء العظام، ولا شكّ أنّ الخليل رُزق هذا المقام واختُص به بعد اختبارات وامتحانات أهّلته للصدارة والإمامة. ولعلّ هذا الوجه حول تفسير الإمامة أفضل من الوجه الأوّل.

---

١. آل عمران: ٥٠.

ولو أردنا أن نلخص هذا الوجه فنقول: المراد بالإمام هم الأنبياء أصحاب الشريعة المستقلة المعبّر عنهم في مصطلح المتكلمين بأُولي العزم.

سؤال وإجابة

يلاحظ على هذه النظرية أنّه لو كان ملاك الإمامة كون النبي في القمة بالنسبة إلى سائر الأنبياء أو من يُؤتم به إلى يوم القيامة لانحصر مصداقه بالأنبياء الخمسة أو الأربعة (أُولي العزم)، ولكن القرآن الكريم يصف جمعاً من الأنبياء بالإمامة وليس لهم هذا الشأن، قال تعالى: **﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الّتي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ* وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾**.[1]

وهذا يعرب عن أنّ الإمامة في القرآن الكريم تهدف إلى معنى آخر يشمل هؤلاء الذين لم يكونوا في القمة من النبوة، حتّى يكونوا أصحاب شريعة وكتاب يأتم بهم المبعوثون من بعدهم.

الملاك الثالث: كونه مفترض الطاعة

هذه النظرية تتلخص في أنّ المقصود بالإمام في هذه الآية هو الحاكم السائد على المجتمع، والآخذ بيد الأُمّة إلى الكمال في الحياة الفردية والاجتماعية، فيجب على الأُمّة امتثال أوامره وتوجيهاته في الحقول السياسية والاجتماعية والقضائية والعسكرية. وهذا المنصب غير منصبَيْ النبوة والرسالة، فإنّ منصب النبوة يتلخّص في كون الإنسان متصلاً بالله تعالى متلقياً عنه الوحي ومتحمّلاً عنه

---

١. الأنبياء: ٧١ـ٧٣.

النبأ، كما أنّ منصب الرسالـة يتلخّص في إبلاغ ما أُمر به للناس، فمقـام النبوة هو مقام تلقّي الـوحي والاطلاع عليه كما أنّ مقام الـرسالة هو مقـام الإبلاغ والبيان، فمن صار نبيـاً فرسـولاً ـ ما لم يكـن إماماً ــ ليس له أمـر ولا نهي ولا سيطرة على الناس، وإنّما شأنـه التعليم والتبيين، وفي الآيات التاليـة يتجلىّ معنى النبوة أولاً والرسالة ثانياً، قال سبحانه: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾[١]، وقال: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾.[٢]

وعلى ضوء ذلك فلو بلّغ النبي ما شرع الله سبحانه لهم من الصلاة والصوم والحجّ والزكـاة فهم مطيعون لله دون أن يكـون هناك إطاعـة للرسـول، ولو نسبت الإطاعة إلى الرسولﷺ فهو بضرب من المجـاز، يقول سبحـانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾.[٣]

هذا إذا قصّرنا النظر على مجاليَْ النبوة والرسالة، ولكن عندما يُلبسه الله ثوب الإمامة وينصّبه لذلك المقام، يكـون عندئذٍ صاحب رأي وعزم وأمر ونهي، وقائداً للأُمّة، نافذاً حكمه في الحقول المختلفة سيـاسياً وعسكرياً وغيرها، وعند ذاك يقوم بوظائف الإمامة من نصب القضاة والحكام و إجراء الحدود، وحفظ الثغور، والأمر بالجهـاد في سبيل الله إلى غير ذلك ممّـا يقوم بـه ساسة البـلاد والعباد، وهـذه هي الإمامـة الّتي وهبها الله سبحـانه لقليل من الأنبيـاء وفي مقدمتهم ــ بعد الخليل ـ موسى وعدد ممّن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل، والنبي الأكرم ﷺ على ما مرّ.

دلّ القرآن الكـريم على أنّه سبحـانه آتى آل إبراهيم أُمـوراً ثلاثـة: الكتاب والحكمة والملك العظيم. قال سبحانه:﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ**

---

١. الغاشية:٢١ـ ٢٢.
٢. المائدة:٩٢.
٣. النساء:٦٤.

﴿فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾.[١]

والكتاب والحكمة واضحان، فالكتاب رمز الوحي والنبوة، والحكمة هي السنّة وجوامع الكلم. وإنّما الكلام في «الملك العظيم» الّذي أعطاه الله سبحانه المصطفَيْن من آل إبراهيم من غير فرق بين ولد إسماعيل وأخيه إسحاق.

فباقتران هذه الآية الّتي أخبر فيها سبحانه أنّه أعطى آل إبراهيم الملك العظيم بآية الابتلاء، الّتي استجاب فيها سبحانه دعاء إبراهيم في أن يَهبَ المصطفين من ذرية إبراهيم الإمامة، يتبيّن انّ الإمامة الموهوبة لهم (الّتي دللنا انّها غير النبوة والرسالة) هي نفس «الملك العظيم» الّذي يدلّ ظاهر الآية على أنّه غير النبوّة والرسالة، لعطفه على الكتاب والحكمة اللّذين يعدّان رمز الوحي ونزوله والاتصاف بالنبوة.

ولا يصحّ حمل الملك العظيم على النبوة أو الرسالة للاستغناء عنهما بما تقدّم من إيتاء الكتاب والحكمة، كيف؟ ونزول الكتاب والحكمة دليل على كون المُنزَل عليه نبياً، يأتيه الوحي بلا واسطة فلا حاجة لتكراره مجدّداً، ولذلك اقتصرت بعض الآيات على ذكر الكتاب والحكمة عندما يكون الهدف بيان منصب النبوة والرسالة دون الإمامة، قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾[٢]، فالآية تهيب ببني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث بعث فيهم الأنبياء والرسل، كما امتنّ سبحانه على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[٣]، إلى غير ذلك من

١. النساء:٥٤.

٢. البقرة:٢٣١.

٣. النساء:١١٣.

الآيات الّتي وردت فيها هاتان الكلمتان.

وإن شئت قلت: إنّ قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١] تدلّ على أنّه سبحانه أعطى منصب الإمامة لإبراهيم وبعض ذريته.

كما أنّ قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[٢]تدلّ على أنّه سبحانه أعطى آل إبراهيم بعد الكتاب والحكمة، الملك العظيم، فباقتران الآيتين نخرج بهذه النتيجة: انّ الإمامة المعطاة لآل إبراهيم هي الملك العظيم فيتحدان حقيقة ومصداقاً، فإذا كان ملاك الإمامة في الذرية هو كونهم ذوي ملك عظيم، فيصبح ملاكها في نفس الخليل أيضاً ذلك.

ثمّ إنّ هناك آيات تدلّ على أنّه سبحانه تفضّل بالملك على أولاد إبراهيم، نظير:

١. يوسف عليه السلام، حيث يشكر الله سبحانه، ويقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾.[٣]

فالمراد من الملك في هذه الآية هو الملك العظيم في الآية السابقة لها، ومرجعهما إلى رئاسة المجتمع في عامة الحقول.

٢. داود عليه السلام، امتنّ الله سبحانه عليه بقوله: ﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.[٤]

---

١. البقرة:١٢٤.

٢. النساء:٥٤.

٣. يوسف:١٠١.

٤. البقرة:٢٥٢.

وقال أيضاً في شأنه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.[١]

٣. سليمان بن داود﷤، حباه الله بالمُلك استجابة لدعائه الّذي قال فيه: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.[٢]

٤. طالوت، وهو من بني إسرائيل، جعله الله ملكاً عليهم لكي يقاتل جالوت، قال سبحانه مخاطباً إياهم: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[٣]

وعلى ضوء هذا فالإمامة الموهوبة من الله سبحانه لإبراهيم هي الرئاسة العامة في الدين والدنيا، ثمّ إنّ إبراهيم طلب من الله أن يهبها لبعض ذريته، فاستجاب له سبحانه، ووفى بوعده، إذ وهبها لذريته الصالحين، وقد ذكر تعالى أسماءهم في القرآن، مثل يوسف وداود وسليمان، ولعل هناك ملوكاً آخرين من صلب إبراهيم تولّوا الملك ودبّروا أمور أُممهم، ولم يذكرهم القرآن.

والفارق كبير جداً بين من يهبه الله المُلك ويجعله ملِكاً، فيقيم العدل، ويحكم بالقسط، ويشيع الأمن والسلام، ويصلح في الأرض، وبين من يسعى إلى الملك بكلّ وسيلة، وينتهز كل الفرص ــ مهما كانت ـ للوصول إلى غاياته، فيستبدّ، ويستأثر، وينشر الظلم والفساد، وهؤلاء هم المعنيّون بقول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.[٤]

---

١. ص:٢٠.
٢. ص:٣٥.
٣. البقرة:٢٤٧.
٤. النمل:٣٤.

ولعلّ الـوجه في أنّـه سبحانه ذكـر «القُدّوس» بعـد أن ذكر«المَلِك» كـأحد أسمائه إلى أنّ مُلكه سبحـانه غير ملك غيره، والغير إذا لم يكـن معصومـاً لا يخلو عملـه من ظلم وتعدٍ، بخـلافه سبحـانـه، فإنّه أجلّ من أن يظلم أو يعتـدي على أحد.

١٢

مناجاة إبراهيم وأدعيته

ذكر القرآن الكريم نماذج رائعـة من ابتهالات المنيب الأوّاه إبراهيم عليه السلام إلى ربّه العليّ الكريم، وهي غنية بمعانيها ومعطياتها وأهدافها السامية. ونودّ أن نشير هنا إلى فائدتين مهمتين، يمكن استخلاصهما من الخط العام لأدعيته عليه السلام، وهما:

١ . معرفة طبيعة أُسلـوبه في الدعاء والمناجاة والتـذلّل لله سبحانه، لترسُّمه والسير على ضوئه.

٢ . طرح المعـاني والأهداف الكبيرة في الـدعاء، ورفع الإنسـان إلى مستوى المسؤولية والاهتمام بـالقضايا الكبرى الّتي تواجهه في حـاضره ومستقبله وفي دنياه وآخرته.

وسوف تتضح لنا هاتان الفائدتان من خلال عرض أدعيته عليه السلام:

أ. **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَـهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُـمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾**.[1]

١ . البقرة:١٢٦ .

إنّه يدعو الله تعالى أن يمنّ على هذا البلد بنعمتين عظيمتين: سيادة الأمن والسلام فيه، وتمتُّع أهله بالخيرات.

ولا شكّ في أنّ هاتين النعمتين ضمانة لاستقرار الحياة ونمائها وازدهارها.

وتتجلّى لنا أهميتهما أكثر إذا ما ألقينا نظرة على الشعوب المضطهدة اليوم، والّتي فقدت أمنها وسلامها، وشاع فيها الخوف والذعر، وأدمنت الفقر والحرمان، بسبب الظلم والقهر والاستغلال الّذي يمارسه المستبدّون وأصحاب الامتيازات، والحروب الّتي تشنّها الطغاة والمستكبرون لتحقيق مآرب شيطانية تختفي خلف شعارات برّاقة وكلمات مزخرفة.

ب. ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.[١]

تتجلّى في هذا الدعاء الروح الإيمانية والإخلاص في العمل والانقياد المطلق لمن بيده أزمّة الأمور ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾.

كما يتجلّى لنا الهمّ الكبير الّذي يحمله إبراهيم وولده إسماعيل تجاه الأجيال اللاحقة، وهما ينظران من وراء ستر شفيف إلى مستقبلها الّذي يدعوان الله أن يكون زاهراً في ظل الهداية الربّانية، وتزكية النفوس من الشرك والآثام.

وقد تحقّقت هذه الدعوة ببعثة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الّذي هدى الله به

---

١. البقرة:١٢٧ـ١٢٩.

الناس من الضلالة، وأنقذهم من الجهالة.

قال الإمام علي عليه السلام: «إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله لإنجاز عِدَته، وإتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماتُه، كريماً ميلاده. وأهلُ الأرض يومئذٍ مِللٌ متفرّقةٌ، وأهواءٌ منتشرةٌ، وطرائق مُتَشَتِّتةٌ، بين مُشبِّهٍ لله بِخَلْقِهِ، أو مُلحدٍ في اسمِهِ، أو مشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة».(١)

ج. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾.(٢)

﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ* إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.(٣)

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.(٤)

تشيع هذه الباقة من الأدعية أجواءً معطرة تشفّ فيها الروح، وتسمو فيها النفس، ويطمئن القلب، حيث الارتباط القوي بالله، والشعور بوجوده في كلّ شيء، والاستعانة به في كلّ الأُمور. فهو العالم بالسرائر والخبير بالضمائر، والمحيط بكلّ شيء علماً. إليه المنتهى، وعليه يُعرض الخَلق، فالسعيد منهم من أتى الله بقلب سليم، (والشقيّ من انخدع لهواه)(٥) و اغترّ بأمواله وبنيه.

---

١. نهج البلاغة: ٤٤، الخطبة(١).

٢. إبراهيم: ٣٨.

٣. الشعراء: ٨٧ـ ٨٩.

٤. الممتحنة: ٤.

٥. نهج البلاغة: ١١٧، الخطبة ٨٦.

خلاصة قصة إبراهيم عليه السلام

ولد إبراهيم عليه السلام في مجتمع، يعكف فيـه أفراده على عبـادة الأصنام، وعبـادة الكواكب، وفي بلـد (بابل) ينتشر فيـه الشرك في كلّ زاوية من زوايـاه، ودخل كلّ بيت حتّى بيت أبيه آزر.

وكان إبراهيم ذا ملكات عالية واستعـدادت فطرية متميزة، تسامى بها على مجتمعه، فلم يتأثر بعقائده وطقوسه، بل نشأ منذ نعومة أظفاره وهو يمقتها ويُزري عليها، وقد علم الله منه ذلك، فآتاه رشده، وزاده بصيرة في رؤيته، فأخذ يحاور أباه آزر بشأن الأصنام، وقدّم له أفكاراً واضحة عنها، لا لَبْس فيها ولا تعقيد ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً**﴾ كاشفاً له عن حقيقة الأصنام، داعياً إياه إلى سبيل الرشاد، معلّلاً ذلك بقوله:﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَـاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَـوِيّاً**﴾، ويواصل حـواره معه بأسلـوب كله رفق وحنان، قائلاً له﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً**﴾، ولكن «آزر» أعـرض عن هذه الـدعـوة، إذ بينـه وبينها حجـاب غليظ من الجهل و التقليد، ولم يتحـرك قلبه لهذه العاطفة، بـل جابه إبراهيم بقسـوة وغلظة وصَلَف، قائلاً له: ﴿**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً**﴾.

لم يتخلّ إبراهيم عن مسؤوليته تجاه أبيـه، ولم يزل يطمع في هدايته و إنقاذه من وهدة الضلال، فخاطبه بقوله: ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَـأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّـهُ كَانَ بِي**

حَفِيّاً﴾.

ولمّا أحسّ منه الإصرار على الضلال، أعلن البراءة منه، ضارباً المثل الأعلى في إخضاع عاطفته وتوجيهها بما يخدم رسالته الإلهية.

ودارت حوارات بين إبراهيم وقومه الذين كانوا يلهجون بذكر الأصنام وتقديسها، وحاول أن يبصّرهم بحقيقة الأصنام، فخاطبهم بقوله: **﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾**. إنّهم يعلمون أنّها لا تملك من ذلك شيئاً، فبماذا يجيبون وليس عندهم دليل أو برهان على إثبات ربوبيّتها؟ إذن لابدّ من إحضار الجواب الّذي ما فتىء يردّده أسلافهم، والّذي يشطبون به على عقولهم **﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾**.

وهنا انتفض إبراهيم، وراح يقرع أسماعهم بقوة، غير هيّاب ولا وَجِل، لعلّهم يستفيقون من غفلتهم **﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**: إنّ كثرتكم وامتداد وجودكم في أعماق التاريخ لن يجعلكم محقّين، مادمتم تؤمنون بعقيدة فاسدة.

ثمّ أخذ يلفت أنظارهم إلى حقيقة الربّ الذي ينبغي أن يُطاع ويُعبَد، إنّه الخالق المقتدر المالك لأزمّة الأُمور **﴿الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾**.

واتّبععليه السلام في تزييف عقيدة عبدة الأجرام السماوية أُسلوباً حكيماً، أظهر فيه إقراره بعقيدتهم في كونها أرباباً، لكسب ثقتهم، واستدراجهم إلى استماع حجته في بيان فساد تلك العقيدة. تطلّععليه السلام إلى السماء، فرأى الأجرام الثلاثة (أحد الكواكب، والقمر، والشمس) كلاً في وقت بزوغه، فقال مجاراةً لهم: **﴿هَذَا رَبِّي﴾** فلمّا أفلت هذه الأجرام، **﴿قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾**، فالمدبّر من لا ينقطع فيضه

وعطاؤه، وعندئذٍ توجّه إلى الربّ الّذي يستحق العبادة، وهو الخالق البارئ المصوّر، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

استنفد إبراهيم كلّ أساليب الحوار مع قومه في دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، وكأنّه كان ينفخ في رماد، ولذا قرّر النزول إلى الساحة، ومواجهتهم ببرهان عملي فيه الكثير من الجرأة والشجاعة والتحدي. انتهز عليه السلام فرصة غيابهم عن البلد، ودلف إلى هيكلهم الّذي نُصبت فيه آلهتهم المزعومة، وطفق يضربهم جميعاً (باستثناء كبير لهم لغاية يرومها) حتّى جعلهم قطعاً متناثرة.

ولما قدم القوم، ورأوا ما حلّ بأصنامهم، راعهم ذلك، ووجهوا الاتهام إلى إبراهيم لعلمهم برأيه فيهم، فأُحضر عليه السلام، واستُجوب أمام الجموع، فقال: قد فعل ذلك كبير الأصنام، وأضاف بقصد إلزامهم الحجة: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

صُدم القوم بهذه الحقيقة، فاعترفوا ــ تحت تأثير هذه الصدمة ـ بخطئهم وجهلهم، ثم عادوا إلى مكابرتهم وعنادهم، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

كان إبراهيم ينتظر منهم إقرارهم هذا، فقال مندّداً بهم ومُعنّفاً: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

لم يجد القوم ما يسترون به ضعفهم أمام هذا البرهان القاطع، إلاّ أن يلجأوا إلى القوة في التعامل مع إبراهيم، فأمروا بإحراقه، ولكنّ الله تعالى أنجاه من النار، قائلاً لها: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

وكان المَلك في عهد إبراهيم (وهو نمرود، كما في التفاسير) يدّعي الربوبية، فناظره إبراهيم في ذلك، قائلاً له ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فقال الملك مُغالطاً ومموِّهاً ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وذلك ـ كما جاء في الروايات ـ بأن آخذ رجلين محكومين بالقتل، فأقتل أحدهما، وأُطلق الآخر. لم يضيّع إبراهيم وقته في كشف هذا التمويه والخداع، بل جابهه بهذا البرهان الساطع، قائلاً له: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، فدهش الملك، ولاذ بالصمت.

عزم إبراهيم على مفارقة قومه بعد يأسه من استجابتهم لدعوته، فهاجر إلى الأرض المباركة (فلسطين)، وظلّ يدعو فيها إلى الله سبحانه إلى أن تقدّمت به السنّ، ثمّ جاءته البشارة بولادة إسماعيل، ثمّ البشارة الأُخرى بولادة إسحاق.

وقام عليه السلام بأمر من ربّه بإسكان ولده إسماعيل و أُمّه (هاجر) في أرض مكة(وهي أرض جرداء)، وعاد هو إلى موطنه (فلسطين)، ثمّ أخذ يتردد إليهم بين الفينة والأُخرى إلى أن أوحى الله إليه ببناء أوّل بيتٍ للناس، وجعله مثابةً لهم، يعبدون فيه الله وحده، ويأمنون فيه على حياتهم وأموالهم، فبناه عليه السلام بمشاركة ولده إسماعيل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

ثمّ جاءه الأمر الإلهي (في رؤيا رآها) بذبح فلذة كبده إسماعيل، فلم ينكص ولم يتأخر، بل استقبل هو وابنه إسماعيل هذا الأمر الخطير برحابة صدر وإيمان وتسليم مطلق لله تعالى، وأسرعا إلى تنفيذه، فلما ألقاه على الأرض، ليباشر عملية الذبح، جاءه النداء الإلهي أن كُفّ عن ذلك، فقد فدينا ابنك بذِبح عظيم، وكذلك يجزي الله المحسنين.

اتّسم إبراهيم عليه السلام بصفات جليلة ومزايا سامية، إذ استسلم لله في كلّ شؤونه، وعمل لمرضاته، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، واصطفاه للرسالة،

فعاش همّها بكلّ كيانه، ورفعه درجات، واتخذه خليلاً لسلامة قلبه ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وحلمه وكثرة رجوعه إلى الله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ووفائه بعهده ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، وكان أُمّة في فضائله وعلمه ويقينه وجهاده وصبره وتضحياته، ولذا استحق مقام الإمامة الرفيع ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾.

١٣

الدروس والعِبَر

في قصة إبراهيم العديد من الدروس والعبر، الّتي تُثري تجربة الإنسان الرسالي، وتضيء له طريق سيره إلى الله، وإليك جانباً منها:

١. إنّ السجايا الكريمة والخصال الحميدة الّتي تحلّى بها إبراهيم، والمنزلة السامية الّتي تبوّأها عند الله وعند الناس، هي من ثمار علاقته الصادقة مع الله، ومسارعته إلى طاعته وامتثال أوامره ونواهيه، وتحرّكه في نطاق مرضاته، واستشعار وجوده وهيمنته في كلّ ما يصدر عنه من قول وفعل وما يتّخذه من موقف.

ومن أهمّ الأحداث الّتي يتجلّى فيها تفانيه في ذات الله، هو إقدامه على ذبح مهجة قلبه إسماعيل عن رضاً وتسليم مطلق، طاعةً لله وامتثالاً لأمره، وتعبيراً عن التضحية بأعز شيء على قلبه في سبيل مبدئه.

وهذا درس بليغ للقادة والزعماء وأصحاب المسؤوليات الكبيرة الذين يسارعون إلى تلبية رغبات أبنائهم وأحبّائهم، ويحرصون على إرضائهم على حساب رسالتهم وأهدافهم الّتي ينبغي عليهم تحقيقها، بل قد يخضعون لأفكارهم

وتوجّهاتهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

٢. مارس إبراهيم عليه السلام خلال مسيرته في الدعوة إلى الله سبحانه أساليب متعددة في الحوار والمناظرة، وهي تُنبئ عن ذكائه في اختيار الأُسلوب الّذي ينسجم مع طبيعة الموقف، وخصوصية الطرف الّذي يدور معه الحوار، كما تُنبئ عن سعة معلوماته ومعارفه الّتي يستند إليها في بيان أفكاره وإثباتها، وفي نقد آراء ومعتقدات الآخرين، ودحض شبهاتهم ومفترياتهم.

والإنسان العامل في سبيل الله ، أحوج ما يكون اليوم إلى ابتكار أساليب جديدة في حواراته ومناقشاته، وإلى التزوّد من العلم اكتساب الثقافة في مختلف المجالات، ليصبح مؤهّلاً لخوض هذا الميدان بحكمة وقوة، خصوصاً ونحن أمام غزو ثقافي سافر، وشيوع مختلف التيارات الفكرية والمذاهب الفلسفية.

٣. إنّ المتبنّي لبعض الأفكار والعقائد الباطلة بدافع الجهل والغرور أو التقليد أو المصلحة الضيقة، لا ينفع معه كلّ برهان وحجة ودليل، وإذا ما أُفحم في موقفٍ ما، واضطرّ للإقرار بخطئه في لحظة اصطدامه بقوة الحقيقة، فإنّه لا يلبث أن يعود إلى سجيّته في العناد والمكابرة، وإنكار الحقيقة. وهذا ما حدث لقوم إبراهيم الذين قرع أسماعهم بهذه الحجة ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ مشيراً إلى أصنامهم المحطّمة، فرجعوا إلى أنفسهم قليلاً واعترفوا بأنّهم ظالمون بعبادتهم لها، ولكنّهم نُكسوا بعد ذلك على رؤوسهم، وعادوا إلى ضلالهم.

ومن هنا يجب عدم التسرّع في الاطمئنان إلى الأشخاص الذين يبدون موقفاً أو رأياً صائباً في بعض الأحايين، أو يعترفون بخطئهم أو يتراجعون عن بعض أفكارهم في لحظة مواجهة الحقائق الدامغة، كما ينبغي التريّث في إسباغ صفة الفضيلة عليهم، إلاّ إذا حصل اليقين بصدق ودوام هذا الموقف و الاعتراف و

التراجع، عبر متابعة أفكارهم ومواقفهم لفترة طويلة وفي ظروف مختلفة.

وممّا يصب في هذا الاتجاه قول الشاعر المفلق أبي فراس الحمداني رحمه الله وهو يخاطب الحكام العباسيّين:

باؤوا بقتل الرضا[1] من بعد بيعته

وأبصروا بعضَ يومٍ رُشْدَهم وعَموا

يا عُصبة شَقِيتْ من بعد ما سعدتْ

ومعشراً هلكوا من بعد ما سَلِموا

٤. أبدىٰ إبراهيم وهو يضطلع بمسؤولياته في الهداية والإرشاد و الدعوة إلى الحقّ والخير، أبدىٰ شجاعة فريدة، وبسالة نادرة في مواجهة قوى الشرك والضلال والانحراف، ولم يُبالِ جَمعَهم وكيدهم وطغيانهم، فقد تحدّى قومه المشركين في أعزّ مقدّساتهم الّتي صنعتْها أوهامُهم، وراح يحطّمها بيمينه، كما أنّه لم يخشَ مقابلة ملكهم الجبار الّذي ادّعى الربوبية، والتصدّي لمناظرته وتزييف ادّعائه.

والسرّ في هذه الجرأة والشجاعة، هو إيمانه العميق بالله، وتوكّله عليه، وثقته به وبرسالته، ويقينه بصحة موقفه، وإعراضه عن الدنيا وزخرفها.

٥. لا يتورّع الطغاة حين يعجزون عن مواجهة الرساليين وأصحاب المبادئ الحقة، لا يتورّعون عن ممارسة القمع والظلم و القهر، واستخدام أبشع وسائل القتل والتنكيل. وهذا ما تُبرزه لنا هذه القصة، حيث صدر الحكم على إبراهيم

---

١. الإمام علي بن موسى الرضاﷺ، عُيّن ولياً للعهد في زمن المأمون العباسي، ثمّ سُقي السمّ، فمات شهيداً غريباً في طوس، وذلك في سنة (٢٠٣هـ).

بإحراقه، فبنوا له بنياناً وسعّروا فيه النيران، وألقوه فيها، ولكن الله تعالى أنجاه منها بقدرته.

وفي هذا اليوم[1] الذي نكتب فيه هذه الكلمات، تجسّدت روح الشرّ لدى الطغاة بأبشع صورها، إذ هاجمت الطائرات الإسرائيلية أحد المباني في بلدة (قانا) بجنوب لبنان، كان قد احتمت به العائلات الهاربة من جحيم قذائفهم الّتي تدمّر المنازل وكلّ شيء منذ تسعة عشر يوماً بدعمٍ مباشر من أمريكا، وقد راح ضحيّة هذا العمل الإرهابي والجريمة المروّعة نحو (٦٠) شخصاً، نصفُهم من الأطفال، كما أصيب العشرات بجروح.

ومن مهازل الدهر أنّ هذا يحدث في ظل سعي أمريكا إلى إقامة ما يُسمى بـ(الشرق الأوسط الجديد) وتحت غطاء نشر الديمقراطية.

وأتساءل: ألم تستطع كلّ هذه القرون المتمادية بين عصر إبراهيم وعصرنا هذا، ترويض النزعة الشريرة لدى سفاكي الدماء؟ وهل ذهبت هدراً كلّ جهود المصلحين ورجال التربية، ونحن نرى العالم يضج بالظلم والفساد والإرهاب؟ وهل بقي ظِلٌّ ـ ولو محدود ـ لشعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان؟! إنّ هذه الأسئلة المنطلقة من أفواه المظلومين والمضطهدين، ستبقىٰ دون جواب إذا استمرت في طرق أبواب قَلْعتيْ الأقوياء المستبدين: مجلس الأمن، والأمم المتحدة، ولم تستمد جوابها من عزيمة الأحرار وإرادتهم وانتفاضتهم.

٦. بلغ إبراهيم عليه السلام من حيث الكمالات النفسية إلى درجة أن جعل الله سبحانه موطئ قدمه موضعاً للعبادة، قائلاً جلّ من قائل: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾، بل جعل مواطئ أقدام زوجه (هاجر) محلاً للعبادة والطاعة لله،

---

١. يوم الأحد ٤ رجب ١٤٢٧هـ المصادف ٣٠ تموز ٢٠٠٦م.

حيث إنّ المسعى هو خطواتها المتلاحقة الّتي سعت بها إلى طلب الماء لصغيرها إسماعيل.

٧. جرت سنة الله تعالى على العناية بعباده المؤمنين و إنقاذهم من الشدائد، فإبراهيم عليه السلام الّذي وهب قلبه لله، قد ترك زوجه وصغيرها في وادٍ مقفر لا ضرع فيه ولا زرع، استجابة لأمر الله، وطبيعة الحال كانت تشير إلى هلاكهما، ولكنّ الله سبحانه نظر إليهما بعين رأفته، وأمدّهما برعايته وفضله.

٨. انّ إبراهيم عليه السلام بنى البيت الحرام، تأدية لوظيفته الرسالية، ولم يُبال بما يأتي به المستقبل، وما يسعى إليه المشركون من جعله مأوىً لأصنامهم. فالرجل الرسالي ينجز مهمته الرسالية، ويوكل المستقبل إلى الله سبحانه.

القصص القرآنية

٧

إسماعيل الذبيح عليه السلام

ورد اسم إسماعيل في القرآن المجيد اثنتي عشرة مرّة[١]، مقروناً بالمدح والثناء، وبيان بعض خصائصه وشمائله، فقد منّ الله عليه بالهداية إلى الصراط المستقيم، واجتباه للنبوة من أجل دعوة الناس إلى التوحيد، وإرشادهم إلى الخير والفلاح، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾[٢]، وقوله: ﴿**وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾[٣]، كما أسبغ عليه القرآن الكريم صفات الصبر والحلم والصلاح.

وكان عليه السلام باراً بأبيه إبراهيم، مشاركاً له في إنجاز أعماله الرسالية، مقتفياً شريعته، سائراً على نهجه، صابراً على الأذى في سبيل الله. حمله أبوه وهو طفل صغير، وأسكنه هو وأُمّه (هاجر) في وادٍ غير ذي زرع (وادي مكة). فنشأ هناك

---

١. انظر: البقرة:١٢٥، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠؛ آل عمران:٨٤؛ النساء: ١٦٣؛ الأنعام:٨٦؛ إبراهيم:٣٩؛ مريم:٥٤؛ الأنبياء:٨٥؛ ص:٤٨.

٢. النساء:١٦٣.

٣. البقرة:١٣٦.

متحمّلاً آلام الغربة والوحشة، ومصاعب الحياة ومرارة العيش.

ولمّا أوحى الله إلى إبراهيم ببناء البيت الحرام، شمّر هو وولده إسماعيل عن ساعدَيْ الجدَ، وطفقا يرفعان من قواعده، حتّى أتمّا بناءه، وقد عهد إليهما تعالى أن يطهّراه من كلّ ما لا يليق به، وأن يدعوان الطائفين والعاكفين والركع السجود إلى زيارته وارتياده.

وقد مضى في قصة إبراهيم، ذكر الموقف الرائع لإسماعيل، والمعبّر عن شجاعته النادرة، وإيمانه العميق، وإخلاصه الشديد، وبصيرته النافذة، إذ جاد بنفسه لله، راضياً بقضائه، مطمئناً إلى مشيئته وحكمته، ولم يتردد في تسليم رقبته لأبيه الّذي أُمر بذبحه، ولكن الله تعالى أنجاه من القتل، وفداه بذِبْح عظيم بعد أن ظهر كمال إخلاصهما لله، وبان جوهرهما ومعدنهما الحقيقي.

وثمّة آيتان وُصف فيهما إسماعيل بأنّه صادق الوعد، آمر بالصلاة والزكاة، مرضيٌّ عند ربّه، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً** ﴾[1]، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ المراد بإسماعيل هنا ـ كما في سائر الآيات ـ هو ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولو أُريد به غيره في هاتين الآيتين، لكان الأنسب التصريح بالتعدّد والتغاير.

وقيل إنّ المذكور في هاتين الآيتين، هو غير المذكور في سائر الآيات، وإن هذا ـ كما ورد في بعض الروايات[2] ـ هو إسماعيل بن حزقيل.

يُشار إلى أنّ القرآن الكريم أثنىٰ على إسماعيل هذا بعد الثناء على

---

١. مريم: ٥٤ـ ٥٥.

٢. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٦٤ـ ٦٥.

موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾[١]، ولعلّ هذا يُعدّ قرينة على أنّه بُعث بعد موسى وأنّه من أنبياء بني إسرائيل.

ويمكن أن يقال في هذا الشأن إنّ القرآن المجيد لا يراعي الترتيب الزماني عند ذكر أسماء الأنبياء، وإنّ ذكرهم يأتي في إطار غرضٍ معين يستهدفه القرآن.[٢]

---

١. مريم: ٥١ـ٥٥.

٢. انظر على سبيل المثال سورة ص، حيث جاء ذكر الأنبياء المتأخرين زمنياً مثل داود وسليمان وأيوب، قبل الأنبياء المتقدمين زمنياً مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب(الآية ٤٥).

إسحاق بن إبراهيم عليه السلام

رُزق إبراهيم عليه السلام أيّام شيخوخته بولده إسحاق من زوجه (سارة) بعد أن اعتزل قومه المشركين، وهاجر إلى الأرض المباركة (فلسطين). وهو أصغر من أخيه إسماعيل.

وقد جاء اسم إسحاق في الكتاب المجيد سبع عشرة مرّة[١]، مشفوعاً بالتبجيل والتكريم، مع بيان بعض فضائله وسماته.

كان عليه السلام من الصالحين، الذين أخلصوا لله في أقوالهم وأفعالهم، وآثروا الآخرة، ولم يركنوا إلى الدنيا، فأتمّ الله نعمته عليه كما أتمّها على أبيه إبراهيم، واختاره للنبوة ، فأدّى ما عليه، وسار على ملة أبيه، واتّبع شريعته، ولم يزغ عنها.

وإليك بعض الآيات الواردة في شأن إسحاق عليه السلام:

---

١. انظر: البقرة:١٣٣، ١٣٦، ١٤٠؛ آل عمران:٨٤؛ النساء:١٦٣؛ الأنعام: ٨٤؛ هود:٧١؛ يوسف:٦ و ٣٨؛ إبراهيم:٣٩؛ مريم:٤٩؛ الأنبياء:٧٢؛ العنكبوت:٢٧؛ الصافات:١١٢ و ١١٣ و ص:٤٥.

﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنا صالِحِينَ﴾.[١]

﴿فَلَمّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنا نَبِيّاً﴾.[٢]

﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصارِ* إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرى الدّارِ* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ﴾.[٣]

وقد مضى في قصة إبراهيم عليه السلام التحقيق في أنّ الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، كما تزعم التوراة المتداولة، وكما ورد في بعض الروايات الّتي تعتبر من الإسرائيليات الّتي بثّها كعب الأحبار وغيره في أوساط المسلمين.

١. الأنبياء:٧٢.

٢. مريم:٤٩.

٣. ص:٤٥ـ ٤٧.

القصص القرآنية

٩

النبي لوط عليه السلام

في أرض المؤتفكات

كان لوط عليه السلام (وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، كما في كتب الأنساب وغيرها) قد آمن بدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام الّـذي بُعث في أرض بابـل(العراق)، ثمّ رافقـه في هجرته إلى الأرض المباركة(فلسطين)، قال تعالى: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.[١]

ولكنّه ـ أي لوط ـ استقرّ في بلاد الأردن، وأقام في إحدى مدنها الّتي تسمّى (سدوم) كما يقول المؤرخون والمفسّرون.

قال المسعودي: وأرسـل الله لوطاً إلى سدوم وقراهـا الخمس، وهي: صبغة، وعمرة، و إدماء، وصبوغ، وبالع.[٢]

---

١. العنكبوت:٢٦.

٢. نقله السيد عبدالصاحب الحسني العاملي في كتابه «الأنبياء: حياتهم ـ قصصهم» ص ١٥٨.

وقد عبّر القرآن المجيد عن قرىٰ قوم لوط بـ(المؤتفكات)[١]، و بـ(المؤتفكة).[٢]

يُشار إلى أنّ القرآن المجيد ذكر اسم لوط (٢٧)مرّة[٣]، وأشاد بشخصيته، وما انطوت عليه نفسه من صفات غرّاء ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ* وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٤]

كما تعرّض إلى جهاده ودوره الرسالي في أُمّته، ودعوتهم إلى الإيمان بالله وطاعته، وتحذيرهم من مغبّة الإمعان في الفساد واقتراف الفاحشة النكراء الّتي ابتدعتها نفوسهم المريضة.

أهمّ المحاور في قصة لوط عليه السلام

١. ممارسة القوم للخبائث، وإنكار لوط عليهم.

٢. معارضة قومه له.

٣. نزول ملائكة العذاب وطمع القوم بهم.

---

١. الآية ٧٠ من سورة التوبة، والآية ٩ من سورة الحاقة. والمؤتفكات: المنقلبات على وجهها، من ائتفكت الأرض إذا انقلبت.

٢. الآية ٥٣ من سورة النجم.

٣. الأنعام:٨٦؛ الأعراف:٨٠؛ هود:٧٠، ٧٤، ٨٠، ٨١، ٨٩؛ الحجر:٥٩، ٦١؛ الأنبياء:٧١، ٧٤؛ الحج:٤٣؛ الشعراء:١٦٠، ١٦١، ١٦٧؛ النمل:٥٤، ٥٦؛ العنكبوت:٢٦، ٢٨، ٣١، ٣٣؛ الصافات:١٣٣؛ ص :١٣؛ ق:١٣؛ القمر:٣٣، ٣٤؛ التحريم:١٠.

٤. الأنبياء:٧٤ـ٧٥.

٤. إسراء لوط مع أهله في غسق الليل.

٥. توقيت نزول العذاب.

٦. كيفية إهلاكهم.

٧. الدروس والعبر.

وإليك بيان هذه المحاور على حسب ترتيبها.

١

ممارسة الخبائث

زاول قوم لوط أقبح الأعمال وأشنعها، بعد أن نضب ماء وجوههم، إذ كانوا يقطعون الطريق على المارّة، ويمارسون معهم عمليات السلب والشذوذ الجنسي، ويتعاطون في مجالسهم كلّ منكر ورذيلة وفساد.

وإليك الآيات الواردة في هذا المضمار.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَتَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عٰادُونَ﴾.[1]

﴿وَلُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ مٰا سَبَقَكُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِينَ﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.[2]

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾.[3]

***

لم يركّز القرآن الكريم على الجانب الاعتقادي لقوم لوط، ولم يتطرّق إلى نوع المعبودات الّتي كانوا يقدّسونها، بل ذكر بإيجاز دعوة لوط إيّاهم إلى تقوى الله وطاعة نبيه الّذي يحرص على هدايتهم، ولا يبغي على ذلك منهم أجراً، وهذا هو شعار كلّ الأنبياء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاٰ تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ* أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ﴾. ويوحي قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى تكذيبهم بدعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك، لأنّها دعوة المرسلين جميعاً.

ولكن القرآن الكريم اهتمّ كثيراً بذكر الخبائث الّتي كانوا يعملونها، لا سيما تلك الفعلة الشنعاء الّتي كانوا يقترفونها دون حشمة وحياء، وذلك لشيوعها

---

١. الشعراء: ١٦٠ـ ١٦٦.

٢. الأعراف: ٨٠ـ ٨١.

٣. العنكبوت: ٢٨ـ ٢٩.

فيهم، ولكونها تشكّل حالة مرضية خطيرة، تصيب المجتمع بالصميم، فتفقده كلّ معاني الطهر والعفاف والكرامة والفضيلة، وتدفع به نحو الهاوية والدمار.

والخبائث الّتي كانوا يقترفونها، وهي:

١. الشذوذ الجنسي.

٢. قطع الطريق على المارّة ليرتكبوا معهم الفاحشة.

٣. ارتكاب القبائح والمنكرات علانية في نواديهم، حيث لا يرون في ذلك سوءاً ولا قبحاً، وإلى هذه الأُمور الثلاثة يشير لوط عليه السلام في قوله: **﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾**.

لقد جرت سنة الله سبحانه على استمرار وجود هذا الإنسان على وجه الأرض إلى يوم القيامة، وهذا لا يتأتّى إلاّ من خلال ميل الجنس البشري إلى الجنس الآخر، والارتباط معه بعقد الزواج المعروف. وهذا أمر فطري تعارف عليه البشر.

وأمّا إطفاء الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق، فهو يضادّ حكمة خلق الذكر والأُنثى، ويؤدي بالنسل البشري إلى الانقطاع، مضافاً إلى ما فيه من آثار نفسية وصحية سيئة، كشف عنها العلم، أخطرها مرض عوز أو نقص المناعة المكتسب (الإيدز) الذي يهاجم فيه (فيروس) هذا المرض كريات دم بيضاء معينة، ممّا يؤدي إلى تحطيم الوظيفة الطبيعية في جهاز المناعة. ويعتبر الاتصال الجنسي بصورة أساسية السبب الرئيسي لانتقال الفيروس، ويكون احتمال الانتقال أكبر في اللواط (الشذوذ الجنسي)، كما يؤدي الزنا دوراً كبيراً في انتقال (الفيروس)، وغالباً ما يقود هذا المرض في نهاية المطاف إلى الموت.[1]

---

١. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٣/ ٤٥٧.

والعجب أنّ بعض المفكّرين في الدول الغربية ومجالس التشريع فيها (كمجلس العموم البريطاني)[1]، قد أضفوا على هذه الفاحشة النكراء الصبغة الشرعية والقانونية، ووضعوا لذلك حدوداً وقوانين، وهم في الوقت نفسه يدّعون التقدمية، ويتّهمون الآخرين بالتأخّر والوحشية. وعلى هذا يركز لوط عليه السلام في خطابه لقومه: ﴿**أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ * وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ**﴾.[2]

فالغريزة الجنسية نعمة من الله سبحانه لكلّ إنسان، ليصون بها نسله ووجوده في المجتمع، وقد جعل الله هذه الغريزة في الزوجين المتخالفين في الجنس، فإعمالها في الجنس الموافق، انحراف عن الفطرة وصرف للنعمة في غير موردها، والّتي يعبّر عنها بالإسراف، يقول سبحانه: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**﴾.[3]

ويظهر من قوله تعالى: ﴿**ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ**﴾ أنّه ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، وربما يُفسر قوله بأنّهم كانوا يفعلون ذلك بالغرباء لا بغيرهم، وهؤلاء الذين كانوا يرتكبون تلك الجريمة من قوم لوط وصفهم نبيهم بقوله: ﴿**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُون**﴾ أي متجاوزون للحدود الّتي تقرّها العقول والشرائع، وقوله: ﴿**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**﴾ إلى غير ذلك من التنديدات الواردة في الكتاب العزيز.

إنّ عدم نجاح لوط عليه السلام في ردعهم عن اقتراف هذا العمل الشائن، يكشف

---

١. أقرّ هذا المجلس في عام (١٩٦٧م) حقّ ممارسة هذه الرذيلة، الّتي تعبّر عن انحطاط النفوس، وانحراف الطبائع.

٢. الشعراء: ١٦٥ـ١٦٦.

٣. الأعراف: ٨١.

عن تحوله إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة، وإلى مرض وبيل سرى في نفوسهم إلى حدٍّ، لم يَعُد يُجدي معه أي علاج سوى إزهاق تلك الأنفس الملوّثة بالأرجاس.

٢

معارضة القوم لنبيّهم لوط عليه السلام

﴿وَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[١] .[٢]

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ .

﴿قَالَ إِنّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ .[٣]

﴿فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلى الْقَومِ الْمُفْسِدِينَ﴾ .[٤]

قام النبي لوط عليه السلام بمهمّته الرسالية على أتمّ وجه، حيث وعظ قومه وحاورهم ونصح لهم ونهاهم عن ارتكاب المعاصي، وخوّفهم من بأس الله تعالى وعذابه.

---

١. الأعراف: ٨٢.

٢. وجاء في سورة النمل الآية ٥٦ بتفاوت يسير وهو ﴿ولماكان﴾ بدل ﴿وما كان﴾.

٣. الشعراء: ١٦٧ـ١٦٨.

٤. العنكبوت: ٢٩ـ٣٠.

ولكنّهم لم يأبهوا له ولم يـرتدعوا، فلما ألحّ عليهم بالعظـات والإنذار، اتخذوا منه هذين الموقفين:

١. الاستخفاف بإنـذاره وتخويفه، قائلين: ﴿**ائْتِنَا بِعَـذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.

٢. تهديده بالنفي والإبعاد من بلدهم، كما يحكي سبحانه ذلك بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾.

ماذا أراد قوم لوط من قولهم إنّ لوطاً ومن آمن معه أُناس يتطهرون؟

فهل المراد انّهم يتحرّجون عن إتيان الرجـال شهوة دون النساء، فعابوهم بما يجب أن يُمدحوا به، أو المراد أنّهم يتنزهون عن أفعالهم وطرائقهم.

إنّ ردّهم هذا ــ على كلّ تقديـر ـ يعرب عمّا أصـاب فطرتهم الإنسـانية من تشويه وانحراف، حيث أصبح العمل القبيح عندهم حسناً فعابوا لوطاً ومن آمن معه باجتنـابهم ذلك، وقد يبلغ الجهل بالإنسان إلى مستـوىً، يُصبح عنده العمل القبيح حسناً والحسن قبيحاً، وهذا المستـوى الهابط هو الّذي يُلحق الإنسان بشرّ الدوابّ، كما يقـول سبحانـه: ﴿**إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللهِ الصُّـمُّ الْبُكْمُ الَّـذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾.[1]

وهناك حديث طريف مرويّ عن النبيّ الأكرمﷺ يتحدث فيه عن درجات فساد النساء والشبـاب، فيقول مخاطباً أصحابـه: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهـوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسـول الله؟! فقـال: وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمـرتم بـالمنكـر ونهيتم عن

١. الأنفال:٢٢.

المعروف؟ فقيل لـه: يا رسـول الله ويكون ذلك؟! قـال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً.(١)

فإذا اختلّت المقـاييس والموازين عنـد الإنسـان إلى هـذه الـدرجـة، فبطن الأرض خير له من ظهـرها، وموته أجـدى من حياته. وقد تجلى هـذا الاختلال في المقـاييس والإصرار على ارتكـاب المعـاصي في قوم لـوط، الـذين فُقـد أي أمل في إصلاحهم، ولـذا دعاعليه السلام ربّـه مستنصراً، وقـال: ﴿ **رَبِّ انْصُرْنِي عَلى الْقَـــومِ الْمُفْسِدِينَ**﴾.

واستجاب الله سبحانه دعوته، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأهلكهم جميعاً ودمّر بلادهم تدميراً، كما سنبيّنه في المحور التالي.

٣

نزول الملائكة، وطمع القوم بهم

قضت مشيئته سبحـانه وتعالى بتطهير الأرض من الفاسقين، الـذين أمعنوا في ارتكـاب الفواحش، ولم يبـق بصيص من الأمل في انتشالهم مـن هذا الـوحل، ولذا أرسل مـلائكةً على هيئة رجال لإبلاغ أمـر الانتقام منهم، فنزلـوا أوّلاً ضيوفاً على إبراهيم الخليلعليه السلام، وإنباؤه بمهمّتهم، ثمّ انطلقـوا إلى لوطعليه السلام، فلمّا سمع بهم قومـه، هُرعـوا إلى بيته، بغيـة قضاء أوطـارهم المنكرة منهم، فـاجتهدعليه السلام في إقناعهم بـالعدول عن هذه الفكـرة بمختلف الأساليب، فلم يُفلح ، وأصرّوا على

---

١. الوسائل:١٦/ ١٢٢، الباب١ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث١٢.

تنفيذها، فطمسَ الله أعينهم فلم يبصروا طريقهم إليهم، ثمّ أخذهم بعذاب بئيس، انطوت به صفحة حياتهم الّتي سوّدوها بفعل الخبائث.

وإليك الآيات الّتي تتحدّث عن هذا الجانب من القصة:

***

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هٰؤلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاٰ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِيدُ﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.[1]

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَومٌ مُنْكَرُونَ﴾.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنٰاكَ بِمَا كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

﴿وَأَتَيناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾.[2]

﴿قَالَ إِنَّ هٰؤلاءِ ضَيْفِي فَلاٰ تَفْضَحُونِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَلاٰ تُخْزُونِ﴾.

﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

---

١. هود: ٧٧ـ ٨٠.

٢. الحجر: ٦١ـ ٦٤.

﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ﴾.[١]

والكلام في هذه الآيات يتضمن أربعة أُمور:

١. تضايق لوط من ضيوفه.

٢. اطّلاع قومه على ضيوفه.

٣. أساليب لوط عليه السلام في زجر قومه عن نياتهم الفاسدة.

٤. إصرار قومه على نياتهم. وإليك التفصيل:

الأمر الأوّل: إنّ استقبال الضيف بوجه مشرق وصدر رحب والسرور بلقائه، من شِيَم الكرام وسيرتهم وفي طليعتهم الأنبياء عليهم السلام، ولكن لوطاً ساءه مجيء ضيوفه، وتبرّم بهم، وتوقّع أن يكون يومه هذا شديداً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

ووجه ذلك واضح، وهو خوفه من أن يعتدي عليهم قومه ويفضحونه فيهم باغتصابهم قهراً.

ولمّا رأى الضيوف ما يعانيه لوط من حرَج شديد بسبب عجزه عن حمايتهم من قومه، أعلموه بحقيقتهم، وقالوا له: ﴿لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.[٢]

وفي آية أُخرى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.[٣]

مشيرين إلى أنّهم لا يصلون إلى من في بيتك من الملائكة.

---

١. الحجر:٦٧ـ ٧١.

٢. العنكبوت:٣٣.

٣. هود:٨١.

الأمر الثاني: أعني اطّلاع قومه على وجود الضيوف في بيته و إسراعهم إليه، فيذكره سبحانه بقوله: ﴿**وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**﴾.[1]

وفي آية أُخرى :﴿**وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[2] أي يبشر بعضهم بعضاً.

الأمر الثالث: وهو أساليب لوط في زجر قومه عن التطاول على ضيوفه، فقد ذكرها سبحانه في آيات عديدة.

فتارة يُلين معهم الكلام قائلاً:﴿ **إِنَّ هٰؤُلاءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ**﴾، فالتطاول عليهم إهانة لي واعتداء على كرامتي.

وأُخرى يستنجد العقلاء منهم، فيقول:﴿ **أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ**﴾ ،أي أليس في جملتكم رجل قد أصاب الرشد فيعمل بالمعروف وينهى عن المنكر ويزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم.

وثالثة: يتمنى أن تكون له منعة وقدرة وجماعة وعشيرة يتقوى بها على هؤلاء المتجاوزين فيدفعهم عن ضيوفه كما يقول: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾[3]، والمراد من الركن هو العشيرة الّتي تنصر أعضاءها وأفرادها.

ورابعةً: يحاول أن يعيدهم إلى الفطرة السليمة، ويُرشدهم إلى الأُسلوب الصحيح في إطفاء شهواتهم العارمة، فعرَض عليهم نكاح بناته والاقتران بهنّ، وكان هذا آخر حلقة من حلقات دفاعه عن ضيوفه.

وقد اختلف المفسرون في واقع هذه البنات، فهل عرض عليهم بناته لصلبه

---

١. هود: ٧٨.

٢. الحجر:٦٧.

٣. هود: ٨٠.

أو أراد النسـاء من أُمتـه، لأنّهن كـالبنـات لــه، فإنّ كلّ نبي أبٌ لأُمّتـه وأزواجـه أُمّهاتهم.

فسواء قصـد بناتـه هو أو نساء أُمتـه، فقد أراد مسّهنّ عن نكـاح لا سفاح فحاشا نبيّ الله عن ذلك، لأنّ السفـاح لا طهارة فيه أصلاً وقـد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الـزِّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَـةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[١]. وهو يقـول في المقام «هـنّ أطهر» وصيغـة التفصيل مجرّدة عن التفضيل، لأنّ المراد أنّ النكاح طهـر، دون غيره، مثل قول يوسف عليه السلام: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[٢]، أي هذا محبـوب دون الآخر.

وقد يُطرح هنـا سؤال وهو أنّ ظاهـر قوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يهرَعونَ إِلَيْهِ﴾ أنّ القوم أسرعوا إلى بيته، وكلّ يأمل أن ينال حاجته منهم ، فكيف يمكن لهؤلاء جميعاً نيل حاجتهم من ضيوفه، وهم قليلون بلا شك؟

يمكن أن يـراد بأهـل القـريـة رؤسـاؤهم، وإنّما عبّر عنهم بأهـل القـريـة لمظاهرتهم لهم، حتّى يتم مرادهم.

وبذلك يعـرف الجواب عن سبب عرض بنات لوط عليهم، فإنّ بنـاته كنّ محدودات العـدد، فكيف يقتنـع بهن أهل القـريـة وهـم جمع كثير؟ والجواب هـو الجواب عن السؤال الأوّل، وهو أنّ الغاية هو نكاح الرؤساء المحدّدين، لا كلّ من يعيش في القرية.

ويمكن أن يُجاب عن السـؤال الثاني بأنّ المراد من البنـات هـو نساء أُمّتـه وهن كثيرات.

---

١ . الإسراء:٣٢.

٢ . يوسف:٣٣.

إلى هنا تم الكلام في الأمر الثالث.

الأمر الرابع: وهو إصرار قومه على نياتهم الفاسدة، ويتمثّل في موقفهم من الحلّ الّذي قدّمه لهم نبيّهم ومن مناشداته لهم بالإقلاع عن هذه النية. لقد لخّصوا جوابهم عن كلّ ذلك بوجهين:

الأوّل: ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

هذا المنطق المعوَجّ ليس بغريب على قوم لوط بعد أن تدنّست نفوسهم، ومرضت قلوبهم، وفسدت ضمائرهم. لقد منعناك من إقامة العلاقات مع الناس ومعاشرتهم، ومن استقبال الضيوف وإيوائهم وحمايتهم. فلم تفعل ذلك؟

وهكذا تنقلب المقاييس في نظر هؤلاء المنكوسين، ويتحوّل كلّ شيء إلى ضدّه.

فالقبحُ حُسْنٌ، والظلام ضحىً والنَّحسُ سَعْدٌ، والعمىٰ بصرُ[١]

الثاني: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.[٢]

كان هذا جوابهم عما دعاهم إليه لوط من النكاح المباح، ولعلّ المراد من الحقّ هو الحاجة، أي ما لنا في بناتك من حاجة، وكلّ ما ليس للإنسان فيه حاجة فكأنّه لا حقّ له فيه.

وقيل: المراد بالحقّ، هو الحظّ والنصيب دون الحقّ الشرعي أو العرفي، أي لا رغبة لنا فيهنّ لأنّهن نساء، ولا ميل لنا إليهنّ.[٣]

إنّ جوابهم هذا يكشف عن أنّ هذا العمل المُنكر كان متفشّياً فيهم،

---

١. البيت للمرحوم السيد محمد جمال الدين الهاشمي.

٢. هود: ٨٠.

٣. الميزان في تفسير القرآن: ١٠/ ٣٤٠.

ومألـوفاً لديهم إلى درجـة غدا فيـه واقعاً ينبغي أن تُقـام عليه المقـاييس والموازين الاجتماعية الجديدة!!

٤

إسراء لوط مع أهله في غسق الليل

لقد أتمّ النبي لوط عليه السلام الحجة على قومه المنحرفين الذين حاولوا أن يتطاولوا على ضيوفه، ولكنّهم لم يكترثوا له، وأصرّوا على القيام بأفعالهم المنكرة.

ومن هنـا استحقّوا العـذاب الّـذي يطهّر الأرض مـن هذا الكيـان المَسخ، فبعث سبحانـه إلى لوط ملائكـة على صورة البشر، وإنباؤه بالأمـر الإلهي القاضي بإهـلاك قـومـه الفـاسقين وقطع دابـرهم. وإليك الآيـات الّتي تستعـرض هـذا الموضوع:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.[1]

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ* وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ

١. هود:٨١.

مُصْبِحِينَ﴾.[١]

اقتضت إرادته سبحانه بإهلاك قومه المسرفين الخارجين عن الفطرة الإنسانية المنهمكين في الشهوات الحيوانية، وبما أنّهم كانوا يعيشون مع لوط وأهله في منطقة واحدة، فقد أمر الملائكة لوطاً بالخروج مع أهله عن المنطقة، على أن لا يلتفت أحدٌ منهم إلى خلفه، فإنّ العذاب سيصيب القوم كلّهم بما فيهم امرأة لوط الكافرة الخائنة، وإلى ذلك أشار سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.[٢]

فالملائكة يوصون لوطاً بالأُمور التالية:

١. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيلِ ﴾، أي سر بأهلك بعد ما يمضي أكثر الليل وتبقى قطعة منه.

٢. ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُم﴾، أي اقتف إثرهم وكن وراءهم لتكون عيناً عليهم، فلا يتخلّف أحد منهم.

٣. ﴿لاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾، أي لا يلتفت أحد منكم إلى ما وراءه من المدينة ، وهذا كما يقول القائل: امض لشأنك ولا تعرّج على شيء، وعلى ذلك يكون تأكيداً للأمرين السابقين، والظاهر أنّ المراد هو السرعة في المشي لقرب نزول العذاب والالتفات إلى هذا الطرف وهذا الطرف يورث التأخير.

٤. ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: أي اذهبوا إلى الموضع الّذي أمركم الله بالذهاب إليه.

ثمّ أخبر الرسل لوطاً بأنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين؛ أي أنّه تعالى

---

١. الحجر:٦٥ـ٦٦.

٢. الحجر:٦٥.

سيستأصل هـؤلاء المفسـدين عن آخرهم وقت الصبـح، فقولـه مصبحين بمعنى وقت دخولهم في الصبح.

وعلى كلّ تقدير، فقد تضـافرت الآيات على هـلاك امرأة لـوط، ففي سورة هود: ﴿**إِلاَّ امْـرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَـا مَا أَصَـابَهُمْ**﴾[1]، وفي آيـة أُخـرى: ﴿**إِنّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَاتَكَ كانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾[2]، وفي آية ثالثة: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُما فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾.[3]

كلّ ذلك يدلّ على أنّ المصـاحبة الظاهرة لا تؤثـر في نجاة الشخص حتّى وإن لامس جسده جسد النبي المعصوم، وإنّما تؤثر فيما لو كان بينهما صلة معنوية ورابطة روحية، فمجرد المصـاحبة لا يكفي ما لم يكن هناك إيمان وعمل كما أنّها لا تؤثر في نجاة الإنسان ولا تجعل الإنسان معصوماً من الذنب.

نعم لصحبة الكرام فضـلاً عن صحبة الأنبياءعليهم السلام شرف وكرامـة بشرط أن يكون المصاحب مستعـداً روحياً وأخلاقياً للاستضاءة بنـور المصاحب والاستنارة بهدايته.

وكنا قد ألقينـا مزيداً من الضوء على هذا الموضوع (الصحبـة) عند دراستنا لقصة نوحعليه السلام(فقرة: قاعدة ربانية).

---

١. هود:٨١.

٢. العنكبوت:٣٣.

٣. التحريم:١٠.

٥

وقت نزول العذاب

اهتمّ سبحانــه ببيان تفاصيل هـلاك قوم لوط وبيان وقت حلـول العذاب، وذلك من خلال الآيات التالية:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.[1]

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.[2]

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾.[3]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.[4]

اتّفقت الآيات على أنّ العذاب عمّهم صباحاً، عند بزوغ الشمس، فمعنى قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي حال كونهم داخلين في الصبح، ومعنـى قوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت شروق الشمس.

---

١. هود: ٨١.

٢. الحجر:٦٦.

٣. القمر:٣٨.

٤. الحجر:٧٣.

٦

كيفية إهلاكهم

استعرض القرآن الكريم بشيء من التفصيل العقاب الّذي حلّ بقوم لوط، وبيّن نوع العذاب الّذي هلكوا به، وذلك من خلال الآيات التالية:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ﴾.[1]

﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.[2]

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنا عَالِيَها سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾.

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.[3]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.[4]

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.[5]

---

١. الأعراف:٨٤.

٢. الشعراء:١٧٣.

٣. هود:٨٢ـ ٨٣.

٤. الحجر:٧٣ـ٧٥.

٥. الذاريات:٣٣ـ ٣٤.

﴿إِنّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ﴾.[١]

لقد أهلكهم الله تعالى بأسباب مختلفة مترتبة، وهذه الأسباب عبارة عن:

١. الصيحة.

٢. قلب القرية، وجعل أسفلها أعلاها.

٣. الإمطار بالحجارة.

وفي بعض الآيات جاء: ﴿رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾، كما سيوافيك.

و إليك تفصيل هذه الأسباب.

السبب الأوّل: الصيحة

أخذتهم الصيحة السماوية أي الصوت الشديد، كما يقول سبحانه:﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

وقيل: إنّ كلّ شيء، أُهلك به قوم فهو صيحة.

وتلتهم آية أُخرى وهي:

السبب الثاني: قلب القرية أسفلها أعلاها

ولعلها كانت بحدوث خسف في أرضهم على نحو قلبت فيه القرية فصار أسفلها أعلاها وهم يحاولون الخروج من بيوتهم، فتتبعهم آية تالية وهي:

السبب الثالث: الإمطار بالحجارة

قال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ﴾.

---

١. القمر: ٣٤.

وقال سبحانه: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ**﴾.

وهذه الآيـات تحكي عن نزول المطر، ولكن هل هو المطـر العادي أي الماء، أم هـو الـرجم؟ إنّ الآيـات الأُخرى تـرفع هـذا الإبهام عن وجـه هـاتين الآيتين، وتصرّح بأنّـه كان مطـر الـرجم، فالله سبحـانـه أهلكهم في النهـاية بحجـارة من سجيل، كما قـال تعـالى: ﴿ **وَأَمْطَـرْنَا عَلَيْهَـا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُـودٍ**﴾. وقال أيضاً: ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ** ﴾ إلى هنا تبين أنّهم أُهلكوا بالرجم.

وقد تكفّلت الآيات الأُخرى ببيان ماهية هذا الرجم، إذ جاء وصفه فيها بأنّه كان حجـارة من سجيل أو حجارة مسـوَّمة، كما يقول سبحـانه: ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ** ﴾، وفي آية ثالثة: ﴿**لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَـارَةً مِنْ طِينٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**﴾، وعبّر في آية أُخـرى بالحصـب وقال: ﴿**إِنّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً**﴾.

قال بعض المفسرين: والصـورة الّتي يرسمها السياق هنا بهذه النـازلة الّتي أصابت قوم لـوط، أشبه شيء ببعض الظواهر البركـانية الّتي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها، ويصاحب هذا حُمم وحجارة ووحل.[١]

ويستفاد من بعض الآيـات أنّه سبحانـه أنزل عليهم رجزاً من السمـاء كما يقول: ﴿**إِنَّـا مُنْـزِلُـونَ عَلَى أَهْلِ هٰـذِهِ الْقَـرْيَـةِ رِجْـزاً مِنَ السَّمـاءِ بِمَـا كـانُـوا يَفْسُقُونَ**﴾[٢]، وما الرجز إلاّ العذاب ويكفي في صدقه إخافتهم بصيحة، وقلب الأرض بهم، وإمطارهم بـالحجارة. ولعلّ الأخير هو المصـداق لقوله: ﴿**رِجْزاً مِنَ السَّماءِ**﴾.

---

١. في ظلال القرآن: ١٢/ ٦٠.

٢. العنكبوت: ٣٤.

ثم انّه سبحانه يذكر بأن في مصير لوط عبرة للمعتبرين، فإنّ التاريخ كتاب اعتبار وتجربة يتكلم مع الإنسان بلسان خاص وإلى هذه يشير سبحانه بقوله: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾[١].

ثم إنّه سبحانه يخص هذه العبرة بطائفتين هما:

١. المتوسمون.

٢. المؤمنون.

يقول سبحانه عن الأُولى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ والمراد بهم هم الذين رزقوا ذكاءً وفراسة، كما ورد «اتقو فراسة المؤمن فانّه ينظر بنور الله»[٢] وإلى ذلك يرجع قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٣].

ويقول عن الثانية: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤].

ويدلّ بعض الآيات على أن آثار قوم لوط كانت شاخصة في طريق أهل مكة وعندما يذهبون إلى الشام للتجارة، قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ**﴾[٥]، أي أن مدينة لوط كانت واقعة في طريق مسلوك يسلكه الناس في حوائجهم فينظرون إلى آثارها ويعتبرون بها، لأن الآثار الّتي يستدل بها قائمة ثابتة فيها.

---

١. الذاريات: ٣٧.

٢. الكافي: ١ / ٢١٨، باب أنّ المتوسمين الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه هم الأئمة، الحديث ٣.

٣. العنكبوت: ٣٥.

٤. الحجر: ٧٧.

٥. الحجر: ٧٦.

خلاصة قصّة لوط عليه السلام

انفتح قلب لـوط عليه السلام على الإيمان، و استجـاب لـدعــوة (عمّـه) إبـراهيم الخليل عليه السلام، الذي بُعث في بلـده (أرض بابل)، ثمّ هاجر معـه إلى الأرض المباركة (فلسطين) بعد أن ضـاق بإبراهيم قـومُه الـذين ناهضـوه بشدّة ، وحكمـوا عليه بالموت حرقاً.

أقام لوط عليه السلام في مـدينة (سـدوم) إحدى مـدن الأردن(كما يقول المؤرّخـون والمفسّرون)، وكان قد شاع بين أهلها ارتكاب الموبقات، وممارسة الفاحشة الّتي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وهي: إتيان الرجال شهوةً من دون النساء.

اضطلع عليه السلام بمسؤوليتـه الإلهية، مُصـارحاً قـومه: ﴿**إِنّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**﴾، منادياً بشعار الأنبياء، الّذي يُعرب عن الإخلاص والتفاني لرسالاتهم: ﴿**وَما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعالَمِينَ**﴾.

والمعضلة الكبرى الّتي كانت تواجهه عليه السلام في طريق دعوته وإصلاحه، هي تلك الخبائث الّتي كا نوا يعملونها، والفاحشة المنكرة الّتي كانوا يقترفونها. ومن هنا كرّس أكثر جهوده لمعالجة هذه الظـاهرة الّتي أصبحت مرضاً وبيلاً متفشياً فيهم، يُنـذر بتفكّك المجتمع وانهيار أُسسـه ودعائمـه في كافـة المجالات، ولكنّ القـوم تجاوزوا كلّ الحدود الّتي تقرّها العقول والشرائع، ولم يكترثوا لمواعظه ونصائحه بأن لا يذَروا ما خلق لهم ربُّهم من أزواج، ولم يعبأوا بتحذيراتـه وإنذاراته، بل قالوا له

جهلاً وعناداً ﴿ائتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وهكـذا زيّنت لهم أنفسهم المريضـة هـذه القبائح، فـألِفوهـا وأنسـوا بها، وصارت الدعوة إلى الانتهاء عنها دعوةً غريبة لا ينبغي لها أن تعيش في هذا البلد، ذي المقـاييس الجديـدة!!! ولـذا ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، و﴿قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ولمـاذا؟ ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

لقـد بالغ النبي لـوط عليه السلام في إرشـاد قـومه والنصيحـة لهم و إلقـاء الحجج عليهم، ولكنّهم لم يعبـأوا بكلّ ذلك، بل تمادَوا في غيّهم، وعنـدئذٍ حقّت كلمـة العذاب بتطهير الأرض ومن عليها من هؤلاء الفجرة، فأرسل سبحانه إلى لوط عليه السلام ملائكة على هيئة البشر، لإبلاغـه بهذا الأمر الإلهي، فلما سمع بهم القوم هُرعوا إلى بيته عليه السلام وهم في سكرتهم يعمهون، وراحـوا يتهدّدونه في ضيوفه الكرام، ممّـا يؤكد إصرارهم على القيـام بهذه الفاحشة النكـراء حتّى الساعـات الأخيرة الّتي سبقت حلول نقمة الله تعالى عليهم.

شعر عليه السلام بحرج شديد تجاه ضيوفه(الذين لا يزال يجهل حقيقتهم) ، وطفق يناشد هؤلاء المفسدين بكلّ أُسلوب، لصرفهم عن تنفيذ نواياهم الفاسدة، مخاطباً إياهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم﴾... ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾... ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

ولكن، أنّى يستجيب له من صُرع عقله تحت وطأة الشهوة العارمة؟

لقد دفع بهم هـذا العُرام إلى الردّ عليـه بوقـاحة وصَلَف: ﴿أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِين﴾!!!

لم يُفلح لوط عليه السلام في مدافعة هؤلاء السفهاء، وهو يعلم أنّه لا يملك جناحاً

ينهض به، وعندئذٍ قال متمنّياً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

في هذه اللحظة العصيبة، أبان الضيوف عن حقيقتهم، و ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وتُرجم هذا الوعد بأن طمسَ الله أعينَ هؤلاء الفاسقين، فتبدّد شملهم.

ثمّ أمر الملائكةُ لوطاً بأن يغادر المكانَ ليلاً هو وأهلُه إلاّ امرأته الكافرة، لأنّ العقاب الصارم سيحلّ بقومه صباحاً: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.

وما أن بزغت الشمس حتّى صُبّ عليهم العذاب صبّاً، فقُلبت ديارهم وجُعل عاليها سافلها، وحُصبوا بحجارة من طين ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٧

الدروس والعبر

١. إنّ المجتمع الّذي يتمادىٰ في ممارسة الشهوات واتّباع الأهواء (كقوم لوطعليه السلام)، يُحرِق مواهبَ أبنائه وطاقاتهم وقدراتهم الخلاّقة، ويُخمد جذوة هممهم في التطلّع إلى الرُّقيّ والرفعة في شتى مجالات الحياة، ويدفع بهم إلى الانسياق وراء الأُمور التافهة، والأشياء الرخيصة، ويُغلق عليهم منافذ التفكير في تسخير هذه الطاقات فيما يعود عليه وعليهم بالنفع والخير والرفاه.

٢. إنّ الأعمال السيئة الّتي يقوم بها بعض الأفراد، قد تستشري في المجتمع

بأكمله وتُصبح ظـاهرة عامة فيـه، ومرضاً مستعصياً ينهش روحـه، وحينها يعجز أطباء النفوس عن معالجته ودرء خطـره، مهما أُوتوا من علم وحكمة، وتميّزوا به من صدق و إخلاص.

ومن هنـا تتأكـد الحاجـة إلى وضع حلـول مناسبـة لمعـالجة الانحـرافـات السلـوكيـة لـدى بعض الأفـراد قبل أن يتّسع مـداهـا في المجتمع، و إلى اتخاذ إجـراءات رادعـة، تعمل على استئصالها أو تقليصهـا ومحاصرتها في دائرة ضيّقـة، وعدم السماح لها بأن تُمارس في الهواء الطلق.

ومن الـوسائل النـاجعـة في هذا المجـال، هي تفعيل دور الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر بين الناس، وتنميـة الشعور بـالمسؤوليـة تجاه قضايـا المجتمع ومصالحه العامة.

٣. إنّ المجتمع الّذي يألف مساورة الأعمال القبيحة، ويأنس بحياة اللهو و العبث، ولا يكترث إلاّ للـرغائب التـافهة... هـذا المجتمع سوف تنعـدم لديـه المقاييس الصحيحة، وتبرز بـدلها مقاييس أُخرى خاطئـة، يحكم بها على القضايا المختلفة بصورة مقلوبة، الأمر الّذي يُفقده الكثير من المكاسب والمغانم الحقيقية في المجـالين المادي والمعنوي، ويُفضي بـه إلى التصـدّع والانهيـار وملاقـاة مصيره القاتم.

ولا غـرابة في مثل هـذا المجتمع أن تصبح الشجـاعـة والإقدام فيـه تهوّراً، والجُبن والاستسـلام تعقـلاً، والركـون إلى الظـالم واقعيةً، و التملّق لبـاقـة وحسن سياسة، والطهر والعفاف تشدّداً وانغلاقاً، والفسق والفجور تحضّراً وانفتاحاً.

اقرأ معي هاتين الآيتين، لتدرك مستوى الانحدار الذي يصل إليه المجتمع عند ضياع الموازين الصحيحة:

﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾!!
﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾!!

٤. إنّ الأمراض النفسية والخلقية شأنها في المعالجة شأن الأمراض الجسمية، فإذا ما أُصيب ـ مثلاً ـ جزء من أحد أعضاء الإنسان بمرض ما، فإنّ علاجه قد يتم باستئصال ذلك الجزء، وأمّا إذا استفحل المرض وسرى إلى العضو كله، فإنّ الأطباء لن يجدوا مناصاً من بتره أو استئصاله ليضمنوا بذلك سلامة الجسم بأكمله.

والمجتمع الّذي تتفشى فيه الأمراض النفسية والخلقية ويُصاب بكلّ كيانه، ويتلاشى الأمل في إصلاحه، فإنّ الحكمة تستدعي محوه من خارطة الوجود، لأنّ بقاءه يؤثر سلباً على باقي المجتمعات ويصيبها بالعدوى. ومن هنا استأصل سبحانه قوم لوط، ولم يُبق أحداً منهم، لئلاّ يؤثر على سائر الأقوام.

النبي شعيب في مَدْيَن

يعدّ النبي شعيب أحد أنبياء الله الذين أُرسلوا لنشر عقيدة التوحيد ومكافحة الفساد، ويمكن التعرف على حياته وخصائصه بالطرق التالية:

أوّلاً: زمانه

يظهر من القرآن الكريم أنه أُرسل بعد إبادة قوم لوط، بشهادة أنّ قصته عليه السلام قد وردت بعد قصة لوط عليه السلام في أربعة مواضع منه، تضمّنتها الآيات التالية:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ* وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً...﴾.[1]

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ* وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً...﴾.[2]

---

١. الأعراف: ٨٤ـ ٨٥.

٢. هود: ٨٣ـ ٨٤.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ* وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ* وَإِنْ كَانَ أَصْحابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾.[١]

والمراد بأصحاب الأيكة هم قوم شعيب.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعقِلُونَ* وَإِلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً...﴾.[٢]

يُشار إلى أنّ الآيات (في المواضع المذكورة) الّتي سبقت الحديث عن قوم شعيب، تتعلق بقوم لوط وهذا يومئ إلى التوالي بين القصتين وبين النبيَّيْن.

ثانياً: مكانه

دلّت الآيات السابقة على أنّهعليه السلام بعث في مدين، وهي اسم المنطقة الّتي كان شعيب يعيش فيها، ويقال: إنّها اسم عشيرته وقبيلته أيضاً.

قال ياقوت الحموي: مدين ـ بالفتح ثم السكون ـ مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القُلزم بينهما ست مراحل، وهي أكبر من تبوك.

ويظهر من كلماتهعليه السلام انّ قومه كانوا قريباً من قوم لوط حيث إنّه كان يحذّرهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط، ويقول: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.[٣]

ثالثاً: قبيلته

بما أنّ مدين قريبة من تبوك فيظهر أنّ قبيلته كانت من العرب، ولذا فهو

---

١. الحجر:٧٥ـ٧٨.

٢. العنكبوت:٣٥ـ٣٦.

٣. هود: ٨٩.

أحد أنبياء العرب الذين بعثهم الله سبحانه لهداية الناس، وقد روي عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: «لم يبعث الله عزّ وجلّ من العرب إلاّ خمسة، هوداً وصالحاً وإسماعيل وشعيباً ومحمداً خاتم النبيين صلوات الله عليهم، وكان شعيب بكّاءً».[1]

رابعاً: أصحاب الأيكة هم أصحاب شعيب

قال سبحانه بعد ذكر قصة لوط:﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ* فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾.[2]

والأيكة: الشجر الملتفّ الكثيف، وأصحاب الأيكة[3] هم قوم شعيب، كانوا في بقعة كثيفة الأشجار. وقيل: إنّهم طائفة من قومه أُرسل إليهم بعد هلاك أهل مدين بالصيحة، وإنّهم ـ أي أصحاب الأيكة ـ هلكوا بالظُّلّة واحترقوا بنارها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُما لِبِإمامٍ مُبِينٍ﴾ معناه إنّ مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة بطريق يُؤمّ ويُتّبع ويهتدىٰ به، وسمّي الطريق إماماً لأنّ الإنسان يؤمّه.[4]

---

١. بحارالأنوار:١٢/ ٣٨٥.

٢. الحجر:٧٨ـ٧٩.

٣. قال ابن كثير: ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أنّ أصحاب الأيكة أُمّة أُخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف. قصص الأنبياء:٢١٣.

٤. مجمع البيان:٣/ ٢٤١.

خامساً: خصائص شعيب وقومه

أمّا خصائصه فقد كان رسولاً أميناً، قاصداً للإصلاح كما يذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.(١)

وقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.(٢)

أمّا خصائص قومه فكانت متمثّلة في جانبين:

١. عبادة الأصنام.

٢. التطفيف في المكيال والميزان.

يقول سبحانه على لسان شعيب: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾(٣) مشيراً إلى الأوّل، وقال: ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾.(٤)

محاور دراسة قصة شعيب عليه السلام:

١. أُصول دعوته.

٢. أُسلوب دعوته.

٣. موقف قومه من الدعوة.

٤. إبادتهم ونزول العذاب.

---

١. الشعراء:١٧٨.

٢. هود:٨٨.

٣. الأعراف:٨٥.

٤. هود:٨٤.

١

أُصول دعوة النبي شعيب عليه السلام

﴿وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدينَ﴾ .[١]

﴿وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدينَ* بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ .[٢]

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ

---

١. الأعراف: ٨٥ـ٨٦.

٢. هود: ٨٤ـ٨٦.

عَلى رَبِّ الْعَالَمينَ* أَوْفُوا الكَيْلَ وَلاٰ تكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ* وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقيم* وَلاٰ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاٰ تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدينَ* وَاتَّقُوا الّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوّلينَ﴾ .[١]

﴿وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَومَ الآخِرَ وَلاٰ تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.[٢]

***

يشترك جميع الأنبياء في أُصول خاصة كالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والإيمان بيوم القيامة إلى غير ذلك من الأُصول المشتركة بين عامة الشرائع.

ومع ذلك، فإنّ كلّ نبي قد امتازت دعوته بصفة تتعلّق بالفساد الّذي خصّ مجتمعه.

وها نحن نذكر أُصول دعوة النبي شعيب من غير فرق بين ما يشارك سائر الأنبياء أو ما يختص به:

١ . الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك

ركّز الأنبياء في دعوتهم على توحيد الله ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، وأخصّ بالذكر توحيد عبادته، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوت﴾[٣]، فلذلك نرى أنّ النبي شعيباً يدعو إلى التوحيد في العبادة، فيقول:﴿يا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبّكُمْ﴾ والمراد

---

١. الشعراء:١٧٦ـ ١٨٤.

٢. العنكبوت:٣٦.

٣. النحل:٣٦.

من البينة المعجزة الشاهدة بصحة نبوته، وظاهر الآية أنّه دعاهم إلى الأُصول بعد أن أتاهم بالمعجزة، ويحتمل أن يراد به المستقبل القريب تنبيهاً على تحقّق وقوعه، كما حكاه الله سبحانه عن موسى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرائيلَ * قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيةٍ فَأْتِ بِها﴾[1] فيكون معنى قوله: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُم﴾ قد أُعدّت لأن تجيئكم البيّنة.

٢. الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

اقترنت دعوة الرسالات السماوية إلى الإيمان بالله بالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، لأنّ الإيمان بالله حتى مع توحيده ذاتاً وعبادة لا يحقق بمفرده مفهوم الدين إلاّ إذا اقترن بالإيمان باليوم الآخر، ومن هنا نجد شعيباً يضم إلى دعوته بالتوحيد الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ويقول: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَومَ الآخِر﴾.[2]

ولقد تكررت الدعوة إلى الإيمان بالله منضمةً إلى اليوم الآخر في كثير من الآيات، وهو أوضح دليل على أنّ الإيمان بهما عماد الدين وأساسه.

٣. حفظ الحقوق في المعاملات

إنّ حفظ الحقوق في المعاملات من شُعَب القسط الذي أُمر الأنبياء بالقيام به، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلنا بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.[3]

---

١. الأعراف:١٠٥ـ١٠٦.
٢. العنكبوت:٣٦.
٣. الحديد:٢٥.

وفي هذا الإطار أمر النبي شعيبعليه السلام قومه بإيفاء الكيل والمنع عن البخس ويقول: ﴿فَأَوفُوا الكَيلَ وَالْميزان وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشياءَهُمْ﴾والكيل هو المكيال كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزداد كَيْلَ بَعير﴾ أي مكيال بعير، فالجملة الأُولى أي ﴿أَوفوا الكَيل وَالمِيزان﴾ تعود إلى حفظ حقوق المشتري، لأنّ التطفيف هو تنقيص المكيال والميزان وهو لصالح البائع وضرر المشتري وإن كان في الحقيقة ضرراً على المجتمع وسبباً للفساد.

﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشيَاءَهُمْ﴾ وهذه الجملة تفيد غير ما تفيده الجملة المتقدّمة فلابدّ أن تكون راجعة إلى حفظ حقوق البائع، وذلك بالبيان التالي:

قال في اللسان: البخس هو النقص بالتعييب أو التزهيد أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزييد في الكيل والنقصان منه.

فإذا كان هذا هو معنى البخس فهو من جانب المشتري، حيث يريد بتزهيده وتعييبه المبيع أن يخدع البائع ويشتريه بأقل من ثمنه.

ويشهد على ما ذكرنا من أنّ البخس هو صيرورة البائع مغبوناً، قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[1] أي باعوه دون قيمة أمثاله، وتساهلوا في ثمنه لأنّهم حصّلوه بغير عوض ولا كلفة.

٤. النهي عن الإفساد في الأرض

هذا هو الأصل الرابع لدعوة النبي شعيبعليه السلام قال: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ أَصْلاحِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾ .

فظاهر الآية هو النهي عن كلّ ما يفضي إلى الفساد في الأرض من غير فرق

---

١. يوسف: ٢٠.

بين التطفيف في المكيال أو البخس في الأشياء أو غير ذلك من المعاصي والذنوب فيما يتعلق بحقوق الله أو حقوق الناس.

فقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن نفع هذا التشريع سيعود على الجميع إذا كانوا مؤمنين بدعوته.

ثمّ إنّه علل نهيه عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أن ما تجمعونه بالتطفيف إنّما هو متاع زائل، وما أدعوكم إليه، حظٌّ باقٍ غير زائل، باق في الدنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا، فلأنّ رعاية القسط في المعاملة أساس الحياة، وأمّا في الآخرة فلأنّ الجزاء الأُخروي فيض دائم وعطاء متواتر، قال سبحانه: ﴿وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيرٌ مَرَدّاً﴾.[1]

٥. النهي عن صدّ الناس عن الإيمان

ثمة أُناس يتخذون عقائد ومناهج معينة في حياتهم، تتحقق في ظلّها مصالحهم الشخصية ومنافعهم الذاتية، ويخشون من أية دعوة إلى الإصلاح، تعمل على تغيير الأوضاع السائدة الّتي اكتسبوا فيها مكانة زائفة ومنافع باطلة. ومن هنا يسعى هؤلاء إلى مواجهة الأشخاص الذين يستجيبون لتلك النداءات الخيرة والدعوات الصالحة، ويمارسون معهم سياسة المكر والتشويش والترغيب والترهيب، لصرفهم عن اتّباع السبيل الأقوم، ولا يحترمون حقّهم في اختيار العقيدة الّتي يقتنعون بها ويؤمنون بها عن دليل وبرهان.

وهذه الأساليب سلكها الجاحدون من قوم شعيب مع المؤمنين منهم، فنهاهم نبيّهم عليه السلام عن ذلك، قائلاً لهم ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ

---

١. مريم:٧٦.

عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾.

والضمير(الهاء) في ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يرجع إلى السبيل، أي تطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشُّبه، أو وصفها للناس بأنّها معوجّة.[1]

هذه هي الأُصول الأساسية لدعوة شعيب عليه السلام.

٢

أُسلوب دعوته عليه السلام

﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.[2]

﴿قالَ يا قَومِ أَرأَيْتُمْ إِنْ كُنْت عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَني مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾.[3]

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَليلاً فَكَثَّرَكُمْ...﴾.[4]

﴿وَيا قَومِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقي ان يُصيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَومَ نُوحٍ أو قَومَ هُود أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَومُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيد﴾.[5]

﴿وَاسْتَغْفروا رَبّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِنَّ رَبّي رَحيمٌ وَدُود﴾.[6]

﴿إِنّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَومٍ مُحيط﴾.[7]

---

١. تفسير البيضاوي:١/ ٣٤٩.
٢. الأعراف:٨٥.
٣. هود:٨٨.
٤. الأعراف:٨٦.
٥. هود:٨٩.
٦. هود:٩٠.
٧. هود:٨٤.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرسلت بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.[1]

﴿وَمَا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[2]

استعان شعيب عليه السلام في هداية قومه بالأُمور التالية:

١ . الاعتماد على الدليل والبرهان

اعتمد شعيب في تبليغ دعوته على البينة التي أُريد بها في المقام المعجزة قال:﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وذلك لأنّ البينة هي ما يتبيّن به الشيء، والإعجاز يبين حقيقة الدعوة وانّه صادق في دعوته وإخباره عن الله، وقد مرّ في الفصل السابق أنّ الأنبياء على صنفين: قسم منهم تقترن دعوته بالمعجزة، وقسم آخر تتأخر بينته عن دعوته حيث يأتي بالمعجزة بعد طلب الناس، ولعلّ النبي شعيب من الصنف الأوّل حيث يقول: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وفي آية أُخرى قال:﴿ يا قَومِ أَرأَيْتُمْ إِنْ كُنْت عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾[3]، أو الصنف الثاني لاحتمال أنّ مراده هو إعداده لإتيان المعجزة.

٢ . التذكير بنعم الله سبحانه

ذكّر النبي شعيب قومه بنعم الله سبحانه التي تفرض شكر المنعم وإطاعته، ومن هذه النعم تكثير عددهم، وجعلهم أُمّة بعد أن كانوا معشراً بتهيئة

---

١. الأعراف:٨٧.

٢. الشعراء:١٨٠.

٣. هود:٨٨.

الأسباب الّتـي أدّت إلى كثرة المواليد فيهـم وقلة الـوفيات ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُـمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ**﴾.

وقيل: إنّه تعالى كثّرهم بالغنى بعد الفقر، أو بالقدرة بعد الضعف، ووجهه أنّهم كانوا فقراء وضعفاء فهم بمنزلة القليل في قلّة الغناء.[1]

ولا ريب في أنّ الأُمّة الكثيرة العدد أو الّتي تمتلك أسباب الغنى والقوة، هي أُمّـة مُهابـة، لا يلحق بها ظلم أو ضيم من سائر الأُمم، وتعيش في أمن واستقـرار وسعادة، وهذه نعمة كبرىٰ تستوجب الحمد والثناء لمفيض النّعم.

٣. التذكير بمصير المفسدين

في حياة الأُمـم السابقـة عبر ودروس، والله سبحانه بـا لمرصاد للمفسـدين والظا لمين، وهنا يـذكّر شعيب قومه بمصير الأُمم السـابقة، ويقول: ﴿**لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصيبكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَومَ نُوحٍ أَوْ قَـومَ هُودٍ أَوْ قَومَ صالِحٍ وَما قَوم لُوط مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**﴾[2]، فلا تغرّنكم القوة والمنعـة التي تتمتعون بها فسوف يحاسبكم الله بها في الدنيا قبل الآخرة، قال الإمام علي عليه السلام: «ولئن أُمهِلَ الظالمُ فلن يفوته أخذه، وهو له بـا لمرصاد على مجاز طريقه، وبمـوضع الشَّجى من مَساغ رِيقه».[3] فقوله: ﴿**لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي**﴾ أي لا تحملنكم عـداوتي على مخالفـة ربّكم فيصيبكم من العذاب مثل ما أصاب قوم نوح من الهلاك بـالغرق أو قوم هود بالريح العقيم أو قوم صـالح بالـرجفة، والحال أنّ قوم لـوط منكم ليس ببعيد، وهل أراد بـه القرب

---

١. التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٤٦٤.

٢. هود: ٨٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٩٧، ص ١٨٧.

الزماني أو أراد القرب المكاني حيث إنّ دارهم كـانت قريبة من دارهم، ولعلّه أراد به كليهما أي القرب مكاناً وزماناً، أي أنّ زمانكم قريب من زمانهم ودياركم قريبة من دارهم، يقـول بعض المفسرين[1]: إنّ ديـار مـدين عند عقبـه «أيلـة» مجاورة «معان» مما يلي الحجاز وديار قوم لوط بناحية الأُردن إلى البحر الميت، وكان مدين بن إبراهيم عليه السلام ـ و هو جد القبيلة المسمّاة باسمه ـ متزوجاً بابنة لوط.

٤. التبشير والتحذير

الرسـالة الإلهيـة رسالة واقعيـة تنطلق في أهدافهـا وأساليبهـا من نظرتها إلى الإنسان وما يعتمل في نفسه من أحاسيس ومشاعر، وما ينتابه من خوف أو رجاء. ومن هنـا اعتمدت أسلـوب التبشير والتحذيـر في دعوتـه إلى الحق والخير وتجنّب الباطـل والشر، لأنّ التبشير وحده يفتح للنفس رغبـاتها ومشتهياتها ويـدفعها إلى التجرّؤ والانسيـاق وراء المحرّمـات، والتحذيـر وحده يُغلق على النفس مطـالبها الأساسية، ويبعثها على القنوط والشعور بالحرمان.

وفي إطـار هـذين الأُسلوبين، يـأتي حديث النبي شعيـب مع قومـه فتـارة يأمـرهم بالاستغفـار ويقول: ﴿وَاسْتَغْفِـروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُـوبُـوا إِليـهِ إِنَّ رَبِّي رَحيمٌ وَدُود﴾.[2] وأُخرى يحذرهم من عـذاب الله سبحانه في الآخرة بقـوله: ﴿إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَومٍ مُحيط﴾.[3]

---

١. راجع تفسير السمرقندي:٥٤٦، وتاريخ ابن خلدون:٢/ ٨١، القسم الأوّل.

٢. هود:٩٠.

٣. هود:٨٤.

٥. الدعوة إلى نبذ التنازع

مارس النبي شعيب عليه السلام مع قومه أساليب متعددة في حواره معهم، وألقى عليهم مختلف الحجج و البراهين في تأييد رسالته وتـزييف عقائدهم وتقاليدهم، وحـذّرهم وأنـذرهم، ولما خـاب رجـاؤه في اجتـذابهم إلى روضـة الإيمان والعمل الصالح، خاطب المؤمنين برسالتـه والرافضين لها بترك التنازع ونبذ القهر والأذىٰ، وانتظـار أمـر الله تعالى للفصل بينهـم، وهو تعـالى خير الحاكمين، إذ لا جـور ولا محاباة في قضائه ﴿وَإِنْ كٰانَ طائِفَـةٌ مِنكُمْ آمنُوا بِالّذي أُرسلتُ بِهِ وَطائِفَـةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّىٰ يَحْكُم اللهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمين﴾.

وهذا الخطاب يحمل في طيّاته تحذيراً لخصوم الرسالة ، ودعوةً إلى الكفّ عن ممارسة الضغوط على المؤمنين، و إلقاء الشُّبَه عليهم.

٦. الإخلاص في الدعوة

إنّ من أهمّ ما يميّـز الأنبياء هـو أنّ دعوتهم كانت خـالصة لله سبحـانه لا يطلبون عليهـا أجراً ولا مالاً، ولا يستهدفـون من ورائها مصالح ذاتيـة ومكاسب شخصية، وهـذا ما يجعلهم عليهم السلام ـ مـن هذه النـاحية ــ فوق الشكـوك والشبهات والاتهامات، ويجعل رسالتهم أدعى للقبول والإيمان بها عند ذوي النفوس السليمة والقلوب الواعية، قال شعيب عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿وَما أَسـأَلكُمْ عَلَيْهِ مِـنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلى اللهِ رَبِّ الْعالَمين﴾.

٣

موقف قومه من الدعوة

﴿قالُوا يَا شُعَيْبُ ما نَفقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُولُ وَإِنّا لَنَرَاكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾.[١]

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.[٢]

﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبينَ﴾.[٣]

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قَالَ أَوَ لَوْ كُنّا كَارِهِينَ﴾.[٤]

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا مَا نَشاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.[٥]

قد تعرّفت على أُسلوب دعوة شعيب وانّه استخدم أُسلوباً عقلانياً أوّلاً وعاطفياً ثانياً، وكان يترقّب أن يؤثّرا في قومه، ليصدهم عن الشرك والتطفيف في

---

١. هود:٩١.

٢. الشعراء:١٨٥.

٣. الشعراء:١٨٦.

٤. الأعراف:٨٨.

٥. هود: ٨٧.

المكيـال، والتبخيس في الأموال غير أنّ مـوقف قـومه من دعـوتـه اتّسم بالـرفض والعداء وتوجيه الاتهامات و إثارة الشبهات. و يبرز هذا الموقف في الأُمور التالية:

أ. ادّعاء الغموض في مضمون الدعوة.

ب. ضعف المكانة الاجتماعية لشعيب.

ج. الاتهام بأنّه مُسحّر.

د. انّ البشرية لا تناسب الرسالة.

هـ. التهديد بالنفي.

و. رفض الدعوة الّتي تصادم عقيدة الآباء، وتنهى عن الكسب الحرام.

و إليك دراسة هذه الأُمور واحداً بعد الآخر.

أ. ادّعاء الغموض في مضمون الدعوة

من الناس مَن يتخـذ أهواءه وميولـه مقياساً لقبول الشيء ورفضـه، فهو لا يؤمن أو لا يريد أن يؤمن بشيء لا يوافق أغـراضه وميوله، مهما قام عليه من دليل وبرهـان، ولذا يسعى إلى ردّه بأعذار واهيـة لا يقبلها العقلاء ولا وجـدان المعتذر نفسه، وأوضح مثال لـذلك قوم شعيب، الذين وصفـوا دعوتهعليه السلام بالغموض في المضمون: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُولُ**﴾ مع أنّهعليه السلام لم يدعهم إلاّ إلى ركنين واضحين محدّدين هما:

١ . نبذ الشرك.

٢ . التحذير من الفساد المالي.

والحقّ أنّهم يـريـدون بهذا العـذر الـواهي الإبقـاء على الأوضـاع كما هي، رافضين أي تغيير فيهـا يـؤدي إلى فقـدان مصـالحهم الـذاتيـة، وكأنّهم يقـولـون

لشعيب: دَعْنا وشأنَنا، فكلامك في غير محلّه، ولا طائل من ورائه، فنحن مصرّون على عقيدتنا وسوء استغلالنا للأموال.

ب . ضعف المكانة الاجتماعية

لقد أعرض قوم شعيب عن رسالة نبيّهم عليه السلام ، قائلين له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ وكأنّ سموّ المكانة الاجتماعية آية كون الدعوة صادقة.

وبما أنّ الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض نرى تلك الذريعة قد وردت في حوار فرعون مع موسى رافضاً دعوته لأجل هذه السمة، قال: ﴿يٰا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْر وَهٰذِهِ الأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذا الَّذي هُوَ مَهين﴾[1] مع أنّ الشرط الأساسي في صحة الدعوة كونها مقرونة بالبرهان، موافقة للفطرة سواء أكان الداعي قوي المنزلة أو ضعيفها.

ج. الاتّهام بأنّه مُسحَّر

إنّ اتّهام الأنبياء بأنّهم قد سُحروا حتّى اختلّت عقولهم، سبيل كلّ معاند لا يقدر على ردّ دعوتهم عليهم السلام بالدليل والبرهان والمنطق. وبما أنّ الأنبياء كانوا نقيّو الثوب، ولم يجد المخالفون لهم عيباً في صحائف حياتهم لجأوا إلى اختلاق هذا النوع من الاتهام الذي يقبله عوام الناس بلا دليل. ولم يسلم شعيب عليه السلام من هذا الاتهام، إذ قال له قومه: ﴿إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِين﴾ الذين سُحروا كثيراً حتّى غلب على عقلهم.

---

١. الزخرف: ٥١ـ ٥٢.

د. البشرية لا تناسب الرسالة

إنّ الاعتراض على الأنبياء بالبشرية كالاتهام بأنّهم مسحورون أو مجانين، هو الطريق الّذي يلتجئ إليه المعاند العاجز عن مقابلة الدليل بالدليل، والمنطق بالمنطق، مع أنّ الوحدة في الجنس ضرورية في المُرسَل والمُرسَل إليهم.[١]

هـ. التهديد بالنفي

من الأساليب التي استخدمها قوم شعيب لصدّه عن الدعوة هو تهديده ومن آمن به بالإخراج والإبعاد من القرية التي كانوا يعيشون فيها، وقد خيّروهم بين الخروج من القرية أو العودة إلى ملة الشرك طوعاً أو كرهاً كما يقول سبحانه: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا**﴾.

وهذا هو الذي أجاب عنه شعيب على وجه التفصيل، وسنتطرق إليه في آخر هذا الفصل.

و. رفض الدعوة الّتي تصادم عقيدة الآباء، وتنهى عن الكسب الحرام

دعا النبي شعيب عليه السلام قومه إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك، وإلى مراعاة حقوق الناس في أموالهم، فلا يُنقصونها عند الكيل والوزن، فردّ عليه الطغاة المترفون بسخرية واستهزاء، و﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ...**﴾ أي أنّ في دعوتك ما

---

١. مرّ الكلام عن هذا الاعتراض في قصص: نوح وهود وصالح عليهم السلام، فراجعه إن شئت مزيداً من التوضيح.

يسبّب تسفيه الآباء في عقيدتهم ومنهجهم، والإنسان الرشيد لا يسفّه آباءه وأجداده، كما أنّ قولهم ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ يدلّ على أنّ الصلاة ليست مجرد شعيرة تعبّر عن الارتباط بين العبد وربّه، بل تقتضي مراعاة العدل والأمانة والنزاهة عند تحصيل الأموال وكسبها، فقوله: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَموالِنا ما نَشاءُ﴾ عطف على ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنا﴾ أي أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا، فتكون النتيجة ترك عبادة آبائنا وترك فعل ما نشاء في أموالنا من البخس والتطفيف.

ثمّ حاولوا صرفه عن الدعوة بشيء من الرشوة وذلك بإثبات هاتين الصفتين له: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ انّه يقبح بك وأنت الحليم الرشيد أن تندفع إلى إبداء مثل هذا الأمر الّذي يدلّ على السَّفه والطيش، كيف تأمرنا بترك تقاليدنا الّتي ورثناها عن الآباء؟! وكيف تسلبنا حريتنا في التصرف بأموالنا كيف نشاء، وقد رسخَ حلمُك وتكامل رُشدُك؟![1]

إلى هنا تم ذكر نقودهم وردود فعلهم لدعوة شعيب وأكثرها واهية إلاّ أنّه عليه السلام قد مرّ عليها مرور الكرام، وأجاب فقط عن أمرين منها:

١. تخييرهم له بين أمرين: رفض التوحيد أو الخروج من القرية.

٢. حكمهم عليه بالرجم لولا تكريم رهط شعيب.

أمّا الأوّل فأجاب عنه بقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّانَا اللهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُود فِيها إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبّنا﴾ ففي هذا الجواب إشارات إلى أُمور منها:

---

١. يذهب السيد الطباطبائي إلى أن وصف شعيب عليه السلام بالحلم والرشد من قِبَل قومه لم يكن على سبيل التهكّم والاستهزاء ـ كما هو عليه كثير من المفسرين ـ بل هو على سبيل الإثبات والتأكيد، ليكون أبلغ في ملامته والإنكار عليه. الميزان في تفسير القرآن: ١٠/ ٣٦٦.

١. انّ الرجوع من التوحيد إلى الشرك والتديّن به افتراء على الله سبحانه.

٢. انّ الرجوع إلى الشرك رجوع إلى الهلكة وقد نجّانا الله منها فهل يلقي العاقل نفسه في الهلكة.

ثمّ إنّ شعيباً واتباعه استثنوا، بقولهم : ﴿**إلاّ أن يشاء الله ربّنا**﴾، وليس معنى ذلك أنّه سبحانه ربما يشاء الشرك لعباده، بل المراد هو أنّ ثباتنا على التوحيد وعدم الرجوع عنه كلّه بفضل من الله ولولا فضله ومشيئته يضلّ كلّ إنسان.

وأمّا جواب شعيب عن الأمر الثاني، فهو قوله: ﴿**أرهطي أعزّ عليكم من اللهِ واتّخذتموه ورائكم ظهرياً إنَّ رَبّي بِما تَعْمَلُونَ مُحيط**﴾، وفي الجواب تقريع للقوم وانّهم كيف يقولون ذلك، فالله أعز من الرهط لا العكس، فالعزة لله سبحانه وعزة غيره نابعة من عزته، فأنتم قد جعلتم طاعة الله وراء ظهوركم والله عالم بما تعملون.

٤

إبادتهم ونزول العذاب

﴿وَ يا قَومِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنّي مَعَكُمْ رَقيب﴾[1].

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ﴾[2].

---

١ . هود: ٩٣.　　٢ . الشعراء: ١٨٧.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾.[2]

﴿وَلَمّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾.[3]

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.[4]

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِين﴾.[5]

﴿فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾.[6]

قد بلّغ شعيب رسالة الله سبحانه إلى قومه ونصحهم، ولم يعبأ بتُهمهم ولا بتهديداتهم، ولكنّه بعدما يئس من إرشادهم وهدايتهم، أنذرهم بالعذاب فقال: ﴿اعْمَلُوا عَلىٰ مَكانَتِكُمْ إِنّي عامِلٌ﴾ أي اعملوا على حالتكم هذه، والمكانة هي الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل ما، كما ﴿إِنّي عامِلٌ﴾، بما أمرني ربي، فهو عليه السلام يقول لهم قد مُكّنتم في الدنيا من العمل، كما مُكِّن غيركم ممن عمل بطاعة الله، وسترَون منزلتكم من منزلته. وهذا في الواقع تهديد في صورة الأمر. لكن ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين يتبين المخطئ من المصيب والجاني على نفسه من

١. الشعراء:١٨٩.

٢. الأعراف:٩١، والعنكبوت:٣٧.

٣. هود:٩٤.

٤. هود:٩٥.

٥. الأعراف:٩٢.

٦. الأعراف:٩٣.

الناصح﴿مَنْ يَـأْتِيهِ عَـذابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي يهينـه ويفضحـه ويظهـر الكـاذب من الصادق ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيب﴾، أي انتظروا ما وعـدكم ربّكم من العذاب كما أنّي معكم منتظر حلول العذاب بكم.

ومع ذلك كلّه فهؤلاء المغفّلون لم ينتبهوا من نومتهم وغفلتهم، وأصرّوا على السخرية والتكـذيب، وقالوا: ﴿فَـأَسْقِـطْ عَلَيْنـا كِسَفـاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[1]

والكِسَف جمع كِسْفـة وهو القِطَع مـن السماء فطلبوا منـه أن يسقط عليهم السماء قطعة بعـد قطعة، وهـذا يدلّ على شـدّة طغيانهم الـذي بلغ بهم درجة أن يختاروا كيفيـة العذاب، ولكنّ الأمـر لله وحده، يعـذّبهم كيف يشاء، قـال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوم عَظِيمٍ﴾والظلة ـ كما يقول المفسرون ـ هي السحـابة التي استظل بها قوم شعيب من حرٍّ أصـابهم، فأمطرت عليهم ناراً، فأحرقتهم جميعاً.[2]

وقد عبّر القـرآن الكريم في آيـات أُخرى عن نـوع العذاب الّـذي أصابهم بـ(الصيحة) و(الرجفة) ، اللتين تركتهم صرعىٰ منكبّين على وجوههم(جاثمين).

وقـد مضىٰ تفسير هذه المعـاني في قصة صـالح عليه السلام مع قـومه الذيـن جاء التعبير عن نهايتهم شبيهاً بالتعبير عن نهاية قوم شعيب عليه السلام.

نجاة شعيب والمؤمنين من العذاب

جرت مشيئـة الله تعالى الحكيمـة العادلة عنـد إبادة أي قـوم لطغيانهم على

---

١. الشعراء:١٨٧.

٢. انظر مجمع البيان:٤/ ٢٠٢.

إنقاذ نبيهم والمؤمنين به، وهـذه هي إحدى الأُمور الخارقة للعـادة، ولذلك يحكي سبحانه عن إنقـاذ شعيب والمؤمنين معه وهلاك الآخرين من قـومه، قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَـهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ .

وبـذلك تحقّق الـوعـد الإلهي وإنّ للبـاطل جـولـة وللحق دولـة، وهـؤلاء المكذبـون لأنبياء الله ورسلـه كانت لهم جولـة وصخب وهياج ولكن بعـد أن نزل العذاب أصبحوا وكأن لم يكونوا شيئـاً مذكوراً، قال سبحانه ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها﴾ وغني في المكـان إذا أقام بـه على وجه الاستغنـاء به عن غيره واتخاذه وطنـاً ومأوى يأوي إليـه. ومعنى الآية: كأن لم يقيمـوا فيها، ﴿أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِـدَتْ ثَمُودُ﴾ بُعداً منصوب على كـونه مفعولاً مطلقاً كـ«تباً له» أو «سحقاً» والبعد كنـاية عن التحقير، الملازم لكراهية الشيء كأنّـه يريد أن لا يراه، وقد شبّه بُعـدهم ببعد ثمود خاصة، لأنّهم أُهلكوا بالصيحة كما أُهلكت ثمود مثل ذلك مع الرجفة.[1]

خطاب شعيب لقومه

بعـد أن سقط القـوم صرعى في أمـاكنهـم بسبب هـول العـذاب، أعـرض شعيب عنهم إظهاراً لكراهته إياهم وخاطبهم بقوله: ﴿يا قَوْمِ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ ولكن لم تؤمنوا﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا، وقد نزل بكم البلاء فاستوجبتم ذلك بجنايتكم على أنفسكم﴿ فَكَيْفَ آسىٰ﴾ وأحزن ﴿عَلىٰ قَوْمٍ كـافِرِينَ﴾، وفي الآيـة دلالـة على أنّ الأنبيـاء ربما يتكلمـون مع الموتىٰ بعـد هـلاكهم وإبـادتهم، والدليل على أن تكلّم شعيب مع قـومه كـان بعد نزول العـذاب ووقوعهم صرعىٰ

١. التبيان:٦/ ٥٧.

على الأرض هو تخلل الـ«فاء» حيث قال: ﴿فَتَولّى عنهم﴾ الدالّ على الترتب، وقد مرّ نظير ذلك في قصة ثمود.

خلاصة قصّة شعيب عليه السلام

كـانـوا في عيشٍ خَضِل: نمتْ أعـدادُهم وعظمت قـدراتُهم واتّسعت أرزاقُهم، ولكنّهم كفروا بأنعم الله تعالى بـالإقامة على الشرك، والتمادي في الفساد، و التنافس في الكسب الحرام. أُولئك هم (أصحاب الأيكة) أو (مَدْيَن)[1]، القبيلة الّتي تنتسب إلى مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام (كما يقول المؤرخون والمفسرون).[2]

بعث الله تعـالى فيهم نبيّـاً منهم ﴿وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخَـاهُمْ شُعَيْباً﴾، وأيّده بآية بيّنـة، فدعـاهم إلى عبـادة الله وحده، ونعىٰ عليهم سـوء استغـلال أموال النـاس والتجاوز على حقـوقهم، وقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاٰ تكُـونُوا مِنَ الْمُخْسـِرِينَ* وَزِنُوا بِـالْقِسْطـاسِ الْمُسْتَقِيم* وَلاٰ تَبْخَسُـوا النّـاسَ أَشْيَـاءَهُمْ وَلاٰ تَعْثَـوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لافتاً أنظارهم إلى الثروة التي يتمتعون بها ﴿إِنّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فلا مُسوِّغ لاقتحام الطرق الدنيئة لتنميتها، مذكّراً إيّاهم بأنّ الرزق الطيب خير وأبقىٰ ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أطلق نـداءاته هـذه، وقـرنَها بالعمل، وتنـاهىٰ عن الأعمال المنكـرة قبل أن ينهىٰ عنهـا، ولم يضع في حسـابه التلبُّس بها، مستهدفـاً من وراء ذلك الإصـلاح الشامل للمجتمع، مستمداً العون من ربّه لإنجاز أهدافه ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ

---

١. وقال المفسرون و المؤرخون: إنّ (مدين) اسم قرية شعيب عليه السلام أيضاً.

٢. راجع التبيان: ٤/ ٤٦١ و ج٦/ ٤٧.

إِلَىٰ مـا أَنهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيـدُ إِلاّ الإِصْـلاح مَا استَطَعْتُ وَمَـا تَـوفِيقي إِلاّ بِاللهِ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

اجتهد عليه السلام في إرشادهم والنصيحـة لهم بأبلغ حجّة وأسطع بـرهان وألطف أُسلوب، منطلقاً في ذلك من قاعدة أمانته على الرسالة، وإخلاصه لها، وبُعده عن أية مآرب شخصية **﴿إِنّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُـوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلىٰ رَبِّ الْعالَمينَ﴾** .

ولكنّهم أعـرضوا عن ذلك كلّـه، ووقفوا منـه موقفاً صـارماً، مـردّدين نفس الكلمات السمجـة الّتـي فـاهَ بها أسـلافهم مـن المشركين الطغـاة **﴿إِنَّما أَنْتَ مِـنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾**، **﴿وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ﴾** .

وعبّروا عن مكابرتهم وصدودهم عن الحق بهذا الادّعاء **﴿يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُولُ﴾** فلُذْ بالصّمت، فلا جدوىٰ من كلامك الّذي يُفقدنا ـ إذا أخذنا به ـ امتيازاتنا الذاتية.

وراحوا يتساءلون في سخرية واستهزاء **﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا﴾** والّذي أصبح فينا سنّة جارية **﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا مَا نَشاءُ﴾** من ضروب الكسب والتعـامل، الّتي تعبّر عـن ذكـائنـا ومهـارتنـا في تحصيلهـا وإربائها؟! **﴿إِنّكَ لأَنْتَ الحَليمُ الرَّشِيدُ﴾** فكيف تطلق مثل هذه الأقـوال البعيدة عن الحِلم والرُّشْد؟!

وتوالت الضغوط على شعيب عليه السلام، وهدّدوه في حياته قائلين: **﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُـكَ لَرَجَمْناكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنـا بِعَزِيزٍ﴾**، وسعَوا إلى التضييـق عليه، بإرعاب أصحابـه المؤمنين به وإثارة الشبهات بينهم لصرفهم عنـه، فخاطبهم عليه السلام بقوله: **﴿وَلاَ تَقْعُـدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُـوعِـدُونَ وَتَصُـدُّونَ عَـنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِـهِ**

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾.

ثم تصاعدت وتيرة الضغوط على النبي شعيب وعلى أتباعه، ووضعوهم بين خيارين: الإخراج من البلد، أو الرجوع إلى دين آبائهم.

وقف شعيب عليه السلام إزاء هذه الاتهامات والتهديدات موقف الشجاع الحكيم، وردّ على بعض التّهم وأعرض عن بعض، مذكّراً إياهم بالقوة الحقيقية الّتي ينبغي أن يرهبوها، وهي قـوّة الله المحيط بكلّ شيء علماً، مشيراً إلى نعمة الهداية إلى الحق الّتي منّ بها سبحانه عليه وعلى الذين آمنوا معه، قائلاً: **﴿قَدِ افْتَرَيْنا عَلى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّانَا اللهُ مِنْها﴾**.

لم تجد كلّ هذه الحوارات والاحتجاجات والإنذارات آذاناً صاغية منهم، وعند ذاك خاطبهم عليه السلام بقوله: **﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكانَتِكُمْ﴾** فقد آيست من استجابتكم لدعوتي **﴿إِنّي عامِلٌ﴾** بما أمرني ربّي. ثم حذّرهم من حلول نقمة العزيز الجبار بهم، قائلاً: **﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ﴾**.

ثمّ حقّت عليهم كلمة العذاب بكفرهم وعتوّهم **﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾** وخرّوا على وجوههم صرعى خاسئين، وكأنّهم لسرعة زوالهم لم يقيموا في هذه الديار ولم يعمروها **﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها﴾**.

وفي نهاية المطاف، وقف شعيب بعد أن أنجاه سبحانه هو والذين آمنوا معه برحمة منه، وقف عليه السلام على جثثهم الهامدة، وهو يستذكر جهوده الضائعة فيهم، قائلاً: **﴿يٰا قَوْمِ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾** ولكنكم ارتضيتم لأنفسكم هذا المصير المُخزي **﴿فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كافِرينَ﴾**.

الدروس والعبر

١. انّ الرسالات السماوية كما تهتم بالجانب الروحي، فإنّها تهتم أيضاً بالجانب الاجتماعي، وتضع الحدود والضوابط الّتي تحكمه، وتؤكّد على الترابط الوثيق بينهما، وتأثير كلّ منهما على الآخر.

وفي قصّتنا هذه (قصة شعيب(عليه السلام)) نرى الدعوة إلى عقيدة التوحيد وتقوى الله تعالى تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى ترك الغش في الكيل والوزن، وإيفائهما بالقسط، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وتجنّب الفساد في الأرض.

وتبرز هذه العلاقة بين الجانبين في الخطاب الموجّه من مَدْيَن إلى نبيّهم، حيث ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا مَا نَشاء**﴾ .

ولا شكّ في أنّ الرسالة الخاتمة، هي أشمل الرسالات الإلهية، إذ تناولت كافة المجالات الّتي تخصّ الإنسان، وعالجت جميع شؤونه وحاجاته.

٢. إنّ الحرص على تكثير الأموال وحيازتها لا يقف عند حدّ، وإنّ حاجة الإنسان ليست هي الدافع وراء ذلك، بل البُعد عن القيم الروحية والمسؤولية الأخلاقية، هو الّذي يفتح طموحاتها المجنّحة، وعندئذٍ يسترقّها الطمع، وتطلب ما تجد وما لا تجد، وتقتحم الموانع والحواجز في سبيل اصطياد المزيد من الفرص الّتي تتيح لها الثراء والغنى الفاحش، دون أن تكترث لزفرات الآخرين وآهاتهم بما يصيبهم من ظلم وحرمان، ودون أن تعبأ بما تتركه أساليبهم الماكرة في الكسب من

آثار سلبية على المجتمع وأمنه وصفائه، وعلى قيم العدل والخير والإنصاف.

وقد تجلّى هذا الحرص، والغش والاحتيال في التعامل في قوم شعيب عليه السلام، فعلى الرغم من غضارة عيشهم، فإنّ نفوسهم الطامعة سوّلت لهم التلاعب بالمكاييل والأوزان، والاعتداء على حقوق الناس، والإفساد في الأرض، الأمر الذي عرّضهم لسخط العزيز الجبار وغضبه، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يقيموا فيها ولم يكنزوا الثروات والأموال.

٣. إنّ الأنبياء عليهم السلام هم الأُسوة والقدوة في الاستقامة وإقران القول بالعمل، فلا ينكرون منكراً إلّا وقد تناهَوا عنه، ولا يأمرون بمعروف إلّا وقد سبقوا إليه، منطلقين في ذلك من دوافع ذاتية وفطرية، صقلها عمق الإيمان بالله تعالى والإخلاص له والذوبان فيه والخشية منه والثقة بما وعد عباده المؤمنين.

وهذا هو النبي شعيب عليه السلام يضرب المثل الأعلى في الالتزام برسالته الإصلاحية الداعية إلى الإنصاف في التعامل و التنزّه عن الغشّ في المكاييل و الأوزان واحترام حقوق الناس. ومن هنا صارح قومه بسلامة مسيرته ومواقفه، ووضوح أهدافه الّتي لا يشوبها هوىً ولا مصلحة ذاتية، قائلاً لهم: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾.

وهذا الدرس ينبغي أن يتمثّله المصلحون والرساليون، وأن يضعوا نصب أعينهم قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»[1]، وقوله: «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه و إلّا ارتحل عنه»[2]، فالمفاهيم والأفكار والنظريات مهما كانت صائبة وصادقة، فإنّها لا

١. نهج البلاغه: ٤/ ٧٩ برقم ٣٣٧.

٢. نهج البلاغه: ٤/ ٨٥ برقم ٣٦٦.

تؤثر التأثير المرجوّ لها ما لم تُقرن بالتجسيد والتطبيق والممارسة.

٤. إنّ دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى أن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وإن كانت تتعلق بوجوب تحرّي العدل عند تقويم الموزونات، إلاّ أنّه يمكن الاستفادة من هذه الضابطة وتعميمها على مجال أوسع وأُفق أرحب، يتمثل في السعي إلى أن نزن ونقوّم كلّ عمل وكلّ جهد يبذله الإنسان وفي كافة مجالات الحياة، وفق مقاييس العدل والإنصاف، لأنّ ذلك يعتبر الضمانة الأكيدة لتجنب الظلم، ووضع الأشياء في غير موضعها، وما يبعثه ذلك من آثار سلبية ومشاعر سيئة تُخمد المواهب والطاقات الفاعلة وتصدّ عن العطاء، وتهدّد العلاقات الاجتماعية والأواصر الإنسانية بالصميم.

٥. إنّ التهديد بالنفي الّذي تعرّض له شعيب عليه السلام من مستكبري قومه، هو نتيجة طبيعية لشعورهم بالعجز عن مقارعة الحجة بالحجة، والمنطق بالمنطق.

ولا ريب في أنّ المستكبرين في كلّ زمان ومكان يخشون من تأثير الدعوة الخيرة والكلمة الصادقة الّتي يطلقها المصلحون والخيّرون، وعندما تتعثّر أساليبهم الماكرة في ثنيهم عن مواصلة مسيرتهم، لم يجدوا بدّاً من استعمال القوة لإبعادهم عن الساحة، وخنق أصواتهم، حفاظاً على مصالحهم غير المشروعة، ووجاهتهم المزيفة.

يعقوب عليه السلام

هو يعقـوب بن إسحاق بن إبـراهيم الخليل عليه السلام، ويسمّى أيضـاً إسرائيل، وإليـه يُنسب جميع أنبياء بنـي إسرائيل. وقد ذُكـر في القـرآن باسم يعقـوب ست عشرة مرة[١] وباسم إسرائيل مرتين.[٢]

إنّ قسماً من حياة يعقوب يتـداخل مع حياة ابنه يوسـف، وبما أنّنا سنتطرق بالتفصيل الوافي لقصة يوسف، لذا فسوف نختصر الكلام هنا، ببيان ما لا نذكره هناك.

١. يذكر سبحانه أن نبيّـين كريمين قد وصّيا أولادهما بالتوحيد ونبذ الشرك، قال سبحانه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُـوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُـمْ مُسْلِمُونَ﴾[٣]. والضمير في«بها» يـرجع إلى ملة إبـراهيم وهي

---

١. البقـرة:١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، آل عمـران:٨٤؛ النسـاء:١٦٣؛ الأنعـام:٨٤؛ هـود: ٧١؛ يوسف:٦، ٣٨، ٦٨؛ مريم:٦، ٤٩، الأنبياء:٧٢؛ العنكبوت:٢٧؛ ص : ٤٥.

٢. آل عمران:٩٣؛ مريم:٥٨.

٣. البقرة:١٣٢.

التوحيد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[١]، أي لا يرغب عن ملّة إبراهيم ويتركها إلاّ من جهل أنّها ـ أي نفسه ـ مخلوقة لله يجب عليها عبادته، أو استخف بها وامتهنها.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر وصية يعقوب لبنيه، ويقول: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.[٢]

وقد ذكر المفسرون أنّ اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألست تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فنزلت الآية المباركة بأنّه ما أوصى إلاّ بالتوحيد الّذي هو ملّة آبائه كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وعُدّ إسماعيل أباً للتغليب ولأنّ العم بمنزلة الأب.[٣]

٢. يصفه سبحانه بالعلم الّذي علمه الله سبحانه دون أن يتعلم من الناس، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.[٤]

٣. يظهر من بعض الآيات أنّ إسرائيل حرّم على نفسه بعض الطعام كما يحكي عنه سبحانه ويقول: ﴿كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَني إِسْرائِيلَ إِلاّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.[٥]

---

١. البقرة:١٣٠.

٢. البقرة:١٣٣.

٣. تفسير الجلالين:٢٠.

٤. يوسف:٦٨.

٥. آل عمران:٩٣.

تدلّ الآيـة على أنّ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل قبل أن تنـزل التوراة على مـوسى، ولكنّهـا حين أُنـزلت، تضمنت تحريـم بعض مـا كـان حـلالاً لبني إسرائيل.

كما أنّ إسرائيل، في الـوقت الّذي لم يُحرّم فيـه شيء على بني إسرائيل، حـرّم على نفسه بعض الطعام.

وأمّا ما هو الطعـام الذي حرّمه على نفسه، وما الـداعي لذلك فقد اختلف المفسرون فيه.[1] ولعل الداعي هو الزهد في اللذائذ.

إلى هنا تـم ما يمكن بيـانه هنا ويـأتي بعض ما لـه صلة بحياتـه في الفصل الآتي.

---

١. مجمع البيان: ١/ ٤٧٥ (ط. صيدا).

القصص القرآنية

١٢

يوسف بن يعقوب عليه السلام

ورد اسم يوسف عليه السلام في القرآن الكـريم سبعاً وعشرين مرة، كلّهـا في سورة يوسف، باستثناء مرتين اثنتين ورد فيهما اسمه في سورة الأنعام[١]، وسورة غافر.[٢]

إنّ خصائص يـوسف ومنـزلته عنـد الله وعند النـاس واضحة لمن تـدبر في آيات سورة يوسف، ونحن في غنى عن سرد شيءٍ منها في هذا المقام، غير أنّا نذكر أُموراً تمهيدية لما نسرده من قصة يوسف:

١. كان عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، وسلسلة نسبه كالتالي:

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

وأمّا يعقوب فيقع في رأس السلسلة، فهو أبو أنبياء بني إسرائيل.

٢. يستفاد من سـورة غافـر أنّ يوسف عليه السلام نال مقـام النبوة عند إقـامته في مصر، وبُعثَ لهدايـة النـاس من الشرك إلى التـوحيـد، ولكن النـاس لم يكترثـوا

---

١. الآية: ٨٤.

٢. الآية: ٣٤.

لـرسالتـه، قـال سبحـانه وهـو يخاطب بني إسرائيل من قـوم مـوسى عليه السلام: ﴿**وَلَقَدْ جَـاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْـلُ بِالْبَيِّنَـاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّـا جَاءَكُمْ بِـهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**﴾.[١]

٣. من خصائص قصة يوسف انّها عُـرضت في القرآن مرة واحدة وبجميع حلقاتها على خلاف سائر القصص الّتي تكرّر عرض كثير منها في القرآن الكريم، موزّعـة حلقاتها على أكثـر من سورة منـه، مع التأكيـد على (أنّه ما مـن قصة ، أو حلقة من قصة قد تكرّرت في سورة واحدة، من ناحية القَدْر الّذي يُساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنّه حيثما تكرّرت حلقة كان هنـالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار).[٢]

ولعلّ الوجه في إيراد قصة يوسف مكتملة، هو أنّ الاعتبار بها رهن الاطلاع عليها وقراءتها كاملة في وقت واحد.

٤ . إنّ الله سبحانـه أسمى قصة يـوسف بـ:«أحسن القصـص»، لأنّها جزء من القـرآن وهـو بجميعــه أحسن القصص، قـال الإمـام علي عليه السلام: «إنّ أحسـن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع التذكّر، كتابُ الله عزّ وجلّ».[٣]

وبعبــارة أُخــرى: إنّ قصص القــرآن من جهــة حسن النظم وإعجــاز الأُسلوب، ومـا تتضمنها من العبر والحكم من أحسن القصص، فهـو أحسن من كلّ ما يقصّه القاص في غير القرآن الكريم.

٥. إنّ الغرض الأساسي من هذه القصة ـ كسائر قصص الأنبياء ـ هو إبراز

---

١. غافر:٣٤.

٢. في ظلال القرآن:١/ ٦٤.

٣. نور الثقلين:٢/ ٤٠٩.

مسألـة العقيدة والإيمان بـالله تعـالى، ودورها في صيـاغـة الأفكار و التصـورات، وتأثيرها في السلوك والعمل والموقف، وتبيان الثمار الطيبة الّتي يُجنيها المؤمن المتقي الـواقف عند حـدود الله، والكشف عن مصير الجاحـد الضالّ الحائر عن طـريق الهدى، فالنجاة والفوز للأوّل، والهلاك والخسران للثاني.

وثمة مقاصد أُخرى ولفتات وعظات تتضمنها القصة، ولكنّها لا تخرج عن إطار الغرض المذكور، بل تزيده وضوحاً ورسوخاً.

٦. نزلت سورة يوسف بمكة قبل هجرة النبيﷺ إلى يثرب، وليس لإنسان أن يتهم النبي الأكـرم بـالأخـذ عـن التـوراة إذ لم يكن في مكـة قط، لا يهودي ولا مسيحي حتّى يقال بأنّ النبيﷺ قد تعلـم تلك القصة منه، إذ انّ معقـل اليهود كان يثرب، ومـا والاها، فهذا الأمر صار بنفســه معجزة وبرهاناً لنبـوته، إذ انّه سرد قصة يوسف كاملة نقية وسالمة ممّا لا يصح نسبته إلى المعصوم.

٧. جـاءت قصة يـوسف في التـوراة والذكـر الحكيم وعنـد المقارنـة يتجلى للقارئ انّ القرآن لم يتأثـر بها قيد شعرة، إذ فيها من الأباطيل مـا لا يصدقه العقل ولا يدعمه البرهان ولذلك صار القرآن مهيمناً على الكتب السماوية.[1]

١. انظر المائدة:٤٨.

مراحل حياة يوسف عليه السلام

سنـدرس في ظل الآيات القـرآنيـة الكريمـة حيـاة يوسف ضمن مـراحل مختلفة، ولكلّ مرحلة محطات، يكمل بعضها بعضاً. و إليك تلك المراحل:

الأُولى: حياته في صباه: بين حب الأب وحسد الإخوة.

الثانية: في بيت عزيز مصر.

الثالثة: حياته في السجن وخروجه منه.

الرابعة: انتخابه للوزارة.

المرحلة الأُولى:

١

حياته في صباه: بين حب الأب وحسد الإخوة

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[1]

نقف هنا عند المحطة الأُولى من المرحلة الأُولى في حياة يوسف عليه السلام، وفيها تظهر طبيعة الجوّ العائلي الّذي كان يعيش فيه، والّذي تقاسَمَه نوعان من المشاعر: مشاعر الحب والعطف و الشفقة والحنان الّتي كان يغمره بها أبوه النبيّ المُخلَص لله تعالى، ومشاعر الغَيْرة والبغض والحسد الّتي كانت تعتمل في نفوس

١. يوسف: ١ـ٦.

إخوته تجاه أخيهم الصغير بسبب هذا الحبّ الأبوي.

كما تظهر في هذه المحطة ملامح شخصية يوسف، وتكوينه النفسي والروحي منذ صغره، إذ رأى في منامه ـ وهو لا يزال صبيّاً ـ رؤيا عجيبة، وصفها لأبيه بقوله: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.[1]

أدرك الأب المؤمن الحنون مغزىٰ هذه الرؤيا، وما سيكون لهذا الصبيّ من شأن خطير، وما ينتظره من مستقبل زاهر في ظلال العناية الربّانية والألطاف الإلهية، ولكنّها أيضاً أثارت هواجسه ومخاوفه، ولهذا بادر إلى نُصح ابنه بأن لا يحدّث إخوته برؤياه، فيؤجّج بذلك مشاعر الحقد في قلوبهم أكثر، ويسوِّل لهم الشيطان المكرَ به وتدبير ما من شأنه أن يضرَّه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وهذه الكرامة الّتي خصّه الله تعالى بها، والمتمثلة بإراءته هذه الرؤيا، ستكون فاتحة خير لكرامات ومواهب جزيلة أُخرى، بشّر بها يعقوب عليه السلام ابنه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[2]

وهذه البشائر عبارة عن:

---

١. إنّ استعمال ما يختصّ بالعقلاء ـ ضمير الجمع المذكر وجمع المذكر السالم ـ للكواكب والشمس والقمر في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، إنّما ورد لغاية جعلها في صورة العقلاء، بشهادة أنّها سجدت ليوسف، والسجود ـ كما هو معلوم ـ حاكٍ عن الشعور والإرادة المختصين بالعقلاء.

٢. يوسف:٦.

١. الاجتباء، وهو الاختيار والاصطفاء، حيث اصطفاه الله على غيره، وخصّه بمكارم الأخلاق ومعالي الأُمور.

٢. تعليمه تأويل الأحاديث، والمراد به تعبير الرؤىٰ، سمّيت أحاديث لأنّ الرائي يتحدّث برؤياه إلى أقربائه وأصحابه أو إلى من يُعبّرها له.

وقد برع يوسف عليه السلام ـ بتعليمٍ من الله ـ في تفسير الرؤيا ومعرفة مآلها، وسيوافيك تفصيل ذلك.

وقيل: معناه يعلّمك تأويل الأحاديث في آيات الله تعالى ودلائله على توحيده، وغير ذلك من أُمور دينه.[١]

٣. إتمام النعمة، وهو إعطاؤها بأفضلها وأكملها، والمراد به هنا النبوة والرسالة.

لقد ورد في القرآن الكريم أنّ يعقوب عليه السلام أوصى ولده بأن لا يقص رؤياه على إخوته، وسياق الآية يدلّ على أنّه اطاع أمر والده، لكن التوراة تذكر خلاف ذلك فقد جاء فيها: ورأى يوسف حُلْماً فأخبر به إخوته فازدادوا بغضاً له قال لهم: «اسمعوا هذا الحلم الّذي رأيته: رأيت كأننا نحزم حُزماً في الحقل، فإذا حزمتي وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزمتكم بحزمتي وسجدت لها» فقال له إخوته: أتراك تملك علينا أو تتسلط علينا. وازدادوا أيضاً بُغضاً له بسبب أحلامه وأقواله.

ورأى أيضاً حُلماً آخر، فقصه على إخوته وقال: رأيت حُلماً أيضاً كأنّ الشمس والقمر وأحدَ عشر كوكباً ساجدة لي.

ولمّا قصّه على أبيه وإخوته، وبّخه أبوه وقال: ما هذا الحُلمُ الّذي رأيته؟

---

١. التبيان في تفسير القرآن:٦/ ٩٨. وفيه: والتأويل في الأصل هو المنتهى الّذي يؤول إليه المعنى. وتأويل الحديث فقهه الّذي هو حكمه، لأنّه إظهار ما يؤول إليه أمره ممّا يعتمد عليه وفائدته.

أترانا نأتي أنـا وأُمّك و إخوتك فنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوتـه، وأمّا أبوه فكان يحفظ هذا الأمر.[١]

و إذا قارن القارئ الكـريم بين ما جاء في الذكر الحكيم حـول قصة يوسف وبين ما ورد في التوراة لقضى بأنّ سـورة يوسف ـ مضافاً إلى بلاغتهـا وفصاحتها ـ من صنع الوحي الّـذي أوحاه الله تعالى إلى نبيـه، فلا ترى فيها أيّ كلمـة أو جملة تناقض مقام النبوة وعصمة الأنبياء وأخـلاقهم، وسوف نذكر في المستقبل مواضع الخلاف بين القرآن والتوراة عند سرد القصة.

٢

المؤامرة الغادرة لإخوة يوسف عليه السلام

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾.

﴿قَـالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُـوا يُوسُـفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيـابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْـهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾.

---

١. الكتاب المقدس (التوراة، سفر التكوين ٣٧/ ٥ـ٢٥) ص ١٢٦.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾.

﴿فَلَمّاَ ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.[1]

كان إخوة يوسف يرَون أنّ أباهم يؤثر يوسف وشقيقه عليهم في حبّه وعطفه، الأمر الّذي أثار غيظهم وحنقهم، ثمّ جاش الحقد في صدورهم ليتحرك على أرض الواقع في حياكة مؤامرة دنيئة، يستهدفون بها حياة يوسف عليه السلام، وقد شرع القرآن الكريم في عرضها بأُسلوب قصصي رائع، مستهلاً ذلك بهذه الآية الّتي تثير اهتمام القارئ اللبيب: ﴿لَقَدْ كانَ في يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾.

وهنا يتأكد الغرض القرآني من سرد القصص، وهو بثّ العبر والعظات لمن يلتمسها من السائلين، روّاد البحث عن الحقائق.

وهذه القصة غنيّة بالعبر والدلائل والآيات لمن يريد الانتفاع بها، والاستنارة بأضوائها في مسيرة حياته، وتتلخّص في قوله تعالى: ﴿إِنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[2]

نشاهد في هذه المحطة وهي الثانية من حياة يوسف، نشاهد اجتماع الإخوة لتداول قضية يوسف وأخيه، الّتي شغلت قلوبهم وأسهرت عيونهم، وافتتحوا كلامهم بالإفصاح عن منشأ هذه القضية، وهو أنّ أباهم يحبّ هذين الأخوين

---

١. يوسف:٧ـ١٥.

٢. يوسف:٩٠.

أكثر منهم: ﴿**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا**﴾.[١]، وهذا الأمر ـ كما يتصوّرون ـ يبعث على العجب، إذ كيف يؤثر علينا هذين الصغيرين، غير القادرَيْن على تأدية الأعمال وتدبير شؤون الحياة، بينما ﴿**نَحْنُ عُصْبَةٌ**﴾ قويّة ونافعة، تضطلع بهذه المسؤوليات والواجبات؟! ولكنّ أبانا ـ حسب نظرهم المحدود بالمصالح الدنيوية الضيقة ـ ﴿**لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ إذ يُعرض عمن يجتهد في توفير المصالح والمنافع، ويُحسن إدارتها وتدبيرها.[٢]

ولكن مقاييسهم وتقديراتهم هذه كانت خاطئة، إذ لم يدركوا سرّ هذا الحبّ والاهتمام والرعاية والإكرام، الّذي يوليه يعقوب لولده يوسف، وقد كشفت عنه الأحداث فيما بعد، كما أثبتت الأحداث والوقائع أنّهم كانوا في ضلال مبين، وقد لمسوا ذلك بأنفسهم، وأشاروا إليه بقولهم ليوسف: ﴿**تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا**﴾.

نعود إلى اجتماع الإخوة، لنشهد حوارهم من أجل رسم خطة، يتخلّصون بموجبها من هذا الصبي النجيب البريء استولى حبّه على قلب أبيهم، وبرز هنا رأيان: رأي يدعو إلى قتله وسَفْك دمه، وآخر يفضّل إلقاءه إلى أرض نائية ينال فيها حتفه على الأكثر، أو يظلّ بعيداً لا يهتدي إلى بيته سبيلاً ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ**

---

١. كان يوسف وأخوه هذا، واسمه بنيامين (كما في الأخبار) أخوين لأُمّ واحدة، دون الباقين، وهم عشرة (كما في الأخبار).

٢. من هنا يُعلم أنّهم لا يريدون بالضلال هنا الضلال في الدين، لأنّهم كانوا مؤمنين بالله تعالى وبنبوة أبيهم يعقوب، كما يظهر من قولهم:﴿**يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا**﴾، وقولهم ليوسف: ﴿**تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا**﴾، ولو أرادوا به الضلال في الدين لكانوا بذلك كافرين. وهو شبيه بقولهم لأبيهم أخيراً ﴿**تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ**﴾ حين قال لهم: ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ**﴾ ومن الواضح أنّهم يقصدون الإفراط في حب يوسف والمبالغة في أمره بما لا ينبغي. انظر الميزان: ١١/ ٨٩ـ٩٠.

اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ من أجل أن **﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾** الّذي كان يصرفه عنّا وجه يوسف، وعندئذٍ تستأثرون بمحبته وعطفه.

ثمّ **﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوهُ فِي غَيابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾**.

وانتهى اجتماعهم بإقرار هذا الرأي، القاضي بإلقائه في غَوْر بئر **﴿غَيابَةِ الْجُبِّ﴾** واقع على طريق القوافل، ليأخذه بعض المسافرين، ويذهبوا به إلى بلد بعيد.

تنفيذ المؤامرة

اتّفق الإخوة على تنفيذ المؤامرة وجعلِ يوسف في غيابة الجب، وهذا يتطلّب الاستفراد به بعيداً عن أبيه، فكيف يُقنعون الأب ويُغرونه بالموافقة على اصطحابه معهم، وهم يعلمون شدة حرصه عليه، وعلى استبقائه إلى جانبه فيما مضى من الزمن؟

لابدّ إذن من خطّة ماكرة، تتيح لهم تحقيق بُغيتهم، وقد بدأت بهذا التساؤل الّذي يحمل لوماً وعتاباً: **﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾**، وهو يُشعر أيضاً بإحساسهم بما كان يهجس في صدر الأب من شكوك تجاه علاقتهم بأخيهم، ومن هنا بادروا إلى إزالة شكوكه فيهم وعدم اطمئنانه إليهم بإظهار نصحهم له، وبأنّهم لا يريدون له إلاّ الخير والفلاح.

ثمّ قدّموا بين يديه هذا العرض الّذي يرون أنّه محبّب إلى نفسه: **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾** وهل شيء أقرّ لعينيه من أن يتنعّم ولده ويلعب ويُسَرّ قلبُه؟ ولماذا الخشية عليه ونحن نتعهّد بحمايته وحراسته؟

لم يشأ يعقوب عليه السلام التصريح بأنّه لا يأمن بوائقهم، بل اعتذر عن رفضه لهذا العرض بأمرين: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فوجوده يؤنسني، وفراقه يثير حزني، ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

لم يجب الإخوة عن الأمر الأوّل، لارتباطه بالنفس ومشاعرها العاطفية، وهل يقدر أحد على تجريد النفس من مشاعرها؟ بَيْد أنّهم أكّدوا استحالة وقوع الأمر الثاني، و﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ فلا جدوى فينا ولا فائدة ولا نصلح لشيء. وأرادوا بهذا الأسلوب إزالة قلق أبيهم بشأن سلامة يوسف.

انطلق الإخوة ومعهم يوسف، وهم عازمون على الغدر به ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾، وفعلاً نفّذوا ما اتفقوا عليه، ووضعوه في داخل البئر، ولكنّ اللطف الإلهي رافقه في هذا الموقف العصيب، إذ ألقى الله في رُوعه أنّه سينجو وينبّئهم بخيانتهم هذه في مستقبل الأيّام، دون أن يعرفوا أنّ الّذي يحدّثهم بذلك هو يوسف الّذي غدروا به وهو صبي[1] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذَا وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ﴾.

إلى هنا تمت خيوط المؤامرة تخطيطاً وتنفيذاً.

فلننظر كيف واجهوا الوالد بصلافة وكذبوا عليه واختلقوا عذراً كان قد تنبأ به قبل أن يأخذوا يوسف منه، وهذا ما سندرسه في الآيات التالية.

---

١. تحقق هذا الوعد الإلهي بعد سنين متطاولة، إذ قال لهم بمصر حين دخلوا عليه يطلبون الميرة: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

٣

تمثيلية مفضوحة

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.[1]

اتّفق الإخوة ـ بعد تنفيذ مؤامرتهم ـ على أن يختلقوا قصة كاذبة يبرّرون بها لأبيهم عدم عودتهم بيوسف، ومهّدوا لذلك بأن تأخّروا إلى أن حلّ الظلام، ثم اصطنعوا هذه الحالة إمعاناً في التمويه: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

ثمّ قالوا وهم يتباكون: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾.

قالوا إنّهم ذهبوا يتسابقون، وتركوا يوسف عند متاعهم (والمراد به هنا ما يحمله المسافر من زاد ولباس)[2] ليحرسه، فأكله الذئب، وهم بعيدون عنه.

---

١. يوسف:١٦ـ١٨.

٢. التفسير الكاشف:٤/ ٢٩٥.

إنّ هـذا العـذر الواهـي قد فضحهم وأبـان عن كـذبهم، لأنّ كلمـة أبيهم لازالت تـرنّ في آذانهم وهـو يحذّرهم مـن خطـر الـذئب، وهم يفخـرون بقـوتهم ويؤكدون قدرتهم على حماية أخيهم. ومن هنا خاطبوا أباهم بهذه اللهجة: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ لأنّك لسوء ظنك بنا في شأن يوسف، لا تصدّق بنا ولا تطمئنّ لما نقول.

وارتأوا أن يقيموا شـاهداً على ادّعـائهم، فأروه قميص يوسف وهـو ملطخ بدمٍ مكذوب فيه ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾، ولكن يعقـوب أدرك أنّهم كادوا ليوسف، وأنّ حكـاية الذئب حكايـة مُختَلَقة، لأنّه (ما أضمَـر أحدٌ شيئاً إلاّ ظهرَ في فَلَتات لسانـه وصَفَحات وجهه)[1]، ولذا ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً**﴾، و إذا هوّنت النفسُ أمراً (مهما كان عظيماً) أقدمت عليه.

لم يتزلزل يعقوب عليه السلام أمام هذا الخطب ـ رغم فداحته ـ ولم يُسلَب وقارُه، بل فوّض أمره إلى الله تعالى، قائلاً: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾.

إنّـه سيواجـه هذا الحادث الجلل بصبر لا جـزع فيـه ولا شكوى لأحـد من الخَلْق، طـالبـاً من الله تعـالى أن يعينـه على مـا يصفـون ﴿**وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾.

وهذا دعاء في موقف التوكل ومعناه: اللهم إنّي توكلت عليك في أمري هذا فكن عوناً لي على ما يصفه هؤلاء.

ولعلّ في لفظ «تصفـون» إشارة إلى أنّ الخبر مختلق ولا واقعيـة له، ولـو كان صادقـاً لقال: والله المستعان«على ما وقع». والنبي يعقـوب بهذه الجمل الحكيمة، حفظ مكـانة العـائلة ومـوقف الإخوة ولم يعنّف أبنـاءه وقد كـان بوسعـه تأديبهم

---

١ . نهج البلاغة، باب الحكم، ص ٤٧٢ برقم ٢٦.

وعقابهم بأشد الـوجوه، غير أنّ ذلك يوجب تفكك الأواصر الأُسريـة، والذهاب بمكانة عائلته بين الناس.

هـذا هو الّـذي يحكيه القـرآن الكريم عن النبي يعقـوب الحازم، وما ذكـره القرآن الكـريم هو المنـاسب لشأن الأنبياء العظـام الذين إذا أصـابتهم مصيبة لم يتزعزعوا، بل يواجهونها بقوة وصلابة.

وهذا خلاف ما نقرأه في التوراة الحالية، فقد جاء فيها:

وقال الإخوة: انظـر أقميص ابنك هو أم لا؟ فنظر إليه وقـال: «هو قميص ابني وحش ضار أكله، افترس يوسف افتراساً».

ومزّق يعقوب ثيابه وشدَّ مِسحاً على حقويه وحزن على ابنه أياماً كثيرة. وقام جميع بنيه وجميع بنـاته يُعزّونه، فـأبى أن يتعزّى وقال: إنّ أنزل حـزيناً إلى ابني، إلى مثوى الأموات»، وبكى عليه أبوه.[1]

ويتلخص الفرق بين النقلين في أمرين:

١ . يذكـر القرآن بأنّ يعقـوب لم يصدّق حكايـة الإخوة وأدرك أنّ عمـلاً ما سوّلته لهم أنفسهم قد ارتكبوه بحق يـوسف، دون أن تكون لحكايتهم لمسة صدق أو مسحة حق. ولكن التوراة تذكر بأنّ يعقوب صدّق حكايتهم وأذعن لها.

٢ . يظهر من القرآن أنّ النبي يعقوب كان كالجبـل الراسخ، لم تزعزعه قصة مقتل ولده الّتي حكاها له أبنـاؤه، بل اتخذ الصبر جُنّة واستعان بالله سبحانه على ما وصفوه من الحادثة المفتعلة.

ولكن التوراة تذكر جزع يعقوب على ما مرّ ذكره، فأيها أليق وأقرب بالواقع

---

١ . التوراة(الكتاب المقدس) سفر التكوين:٣٧/ ٢٦ص ١٢٧.

وألصق بحياة الأنبياء؟

لنَعُد مرّة أُخرى إلى يوسف الّذي تركه الغادرون في البئر، لنقف عند المحطة الثالثة والأخيرة من المرحلة الأُولى من حياته.

تمرّ إحدى القوافل فتحطّ رحالها في المنطقة، وتبعث من يبحث لها عن الماء ويدلّهم عليه.

وينطلق (الوارد) باحثاً عن الماء، فيقف عند أحد الآبار، ويُدلي فيه دلوه، فيُفاجأ بوجود غلام فيه، فاستبشر به أو بَشّر به أصحاب القافلة.

أخرج الغلام من البئر، وضُمّ إلى القافلة، وجعلوه من جملة بضائعهم التجارية، كاتمين بذلك حقيقة أمره، ثم عرضوه للبيع باعتباره رقيقاً، فباعوه بثمن قليل، متعجّلين التخلّص منه، خشية أن يفتضحَ أمرهم، ويُتَّهموا بسرقته.

وقد أوجز القرآن كلّ ما حدث في هذه المحطة بهاتين الآيتين: **﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ* وَشَرَوْهُ [1] بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾**.

وسياق الآيتين يدلّ على أنّ يوسف بيع على غفلة من الإخوة، وأنّهم غير عارفين بمكانه ومصيره إلى الوقت الّذي جاءوا فيه إلى مصر في المرة الثالثة لطلب الميرة. وأمّا التوراة المتداولة فتحكي خلاف ذلك وتدّعي أنّ الإخوة بعدما طرحوه في البئر وقفوا عند البئر لغاية بيعه للسيارة الّتي تمر إلى جانب الجب، جاء فيها:... وأخذوه وطرحوه في البئر، وكانت البئر فارغةً لا ماء فيها. ثمّ جلسوا يأكلون.

١. أي باعوه بثمن بخس.

ورفعوا عيونهم ونظروا، فإذا قافلة من الإسماعيليين[١] مقبلة من جلعاد، وجمالهم محملة صمغ قتاد وبلساناً ولاذناً، وهم سائرون لينـزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمه؟ تعالوا نبيعه للإسماعيليين. ولا تكن أيدينا عليه لأنّه أخونا ولحمنا» فسمع له إخوته.[٢]

ولا يخفى انّه لو كانت الغاية بيعه للسيارة، فما الداعي إلى طرحه في البئر؟ إنّما كان عليهم الوقوف في نفس المكان حتّى تمرّ بهم القافلة فيبيعونه لهم، اللّهمّ إلاّ أن يكونوا قد غيّروا رأيهم بعد طرحه في البئر.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ الذكر الحكيم وحي من الله سبحانه على قلب سيد المرسلين دون أن يستند إلى قول قائل أو كتاب.

إلى هنا تم الكلام في المرحلة الأُولى من مراحل حياة يوسف، وإليك الكلام في المرحلة الثانية، المتمثلة بانتقاله إلى مصر بعد استرقاقه وبيعه.

---

١. المراد بالإسماعيليّين: العرب، لأنّهم ينتهون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. التفسير الكاشف: ٤/ ٢٩٦.

٢. التوراة (الكتاب المقدس) سفر التكوين ٣٧/ ٢٦ ص ١٢٧.

المرحلة الثانية:

٤

في بيت عزيز مصر

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.[1]

***

انتهت بنا المرحلة الأُولى من حياة يوسف عند بيعه من قِبَل القافلة كعبدٍ مملوك، ويتّضح هنا أنّ الّذي اشتراه كان رجلاً من أهل مصر، ذا منصب رفيع، يلقّب بـ(العزيز).

حمل العزيزُ يوسفَ إلى قصره، مبدياً اهتمامه به، وأتىٰ به إلى امرأته فأوصاها بأن تُحسن معاملته وتُكرم إقامته عندها ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ لما لاحَ عليه من سمات

---

١. يوسف: ٢١ـ٢٢.

كـريمة ، أحيَتْ الأمل في قلبـه؛ فعسى أن ينفعهما في تحقيق مصالحهما أو يتبنّيـاه، لأنّ العزيز كان عقيماً.

وهكذا قدَّر الله تعـالى ليوسف الّذي نُبذ في البئر، واعتُبر عبـداً رقيقاً، وزُهد فيه فبيع بثمن بَخْسٍ، قُدِّر لـه أن يعيش في قصر منيف محفوفاً بالرعـاية والإكرام، وأن يصبح مقتدراً على ما يريد من أرض مصر ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ وهذا التمكين والتعليم وغيرهما إنّما يحصل بقدرة الله الغـالبة الّتي لا يـردّها شيء، فهـو المالك لأزمّـة الأُمور، والمتصرّف فيهـا وفق إرادته، وإذا أراد أمراً خضع له وانقاد ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾.

وهذا يوسف قد كاد له إخـوته وأرادوا به شرّاً، ولكن الله تعالى أراد له الحياة وسموَّ المنـزلة، فكـان ما أراد الله﴿وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ﴾أنّ الأمـر لله وحده، يدبّره لمن يشاء، كيف يشاء.

ثمّ تتوالى النِّعم على يوسف عليه السلام، ويمنّ الله تعالى عليـه بالحُكم والعلم بعـد بلــوغه منتهى القــوة وكمـال العقل﴿وَلَمَّـا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ آتَيْنـاهُ حُكْمـاً وَعِلْمـاً﴾.

لقد رُزق عليه السلام السّـداد في حُكمه على الأُمـور[1]، وعلماً لدنيّـاً يصيب به حقائق الأشياء.[2]

---

١. وقال بعض المفسرين: المراد بـالحُكم هو القضـاء الصحيح بين الناس، وقال غيرهم: المراد بـه هنا النبوّة.

٢. ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ العلم هنا يعني العلم بتأويل الرؤيا. ونحن لا نـرى ما يدعو إلى هذا التخصيص، لا سيّما وأنّ قــولـه: ﴿آتَيْنـاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ جاء بعـد قولـه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَـأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ الّذي فسّـروه أيضاً بتأويل الرؤيا، الّـذي هو ـ كما يظهر لنـا ـ جانب ممّا أفـاضه الله عليه من علم.

وهـذه المـواهب الإلهيـة الّتي مُنحت ليـوسف عليه السلام، إنّمـا هي جـزاء لإحسانه، المتمثل في انقياده لله في قـوله وفعله ، وصبره على المحن والنوائب وعن المعاصي، وصبره على الطاعة ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ﴾ .

قال السيد الطبـاطبائي : وليس من البعيد أن يستفاد مـن قوله : ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ﴾ أنّ الله تعـالى يجـزي كلّ محسن ـ علـى اختلاف صفـات الإحسان ـ شيئاً من الحكم والعلم يناسب موقعه في الإحسان، وقد قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[1].[2]

٥

صراع الإيمان والغريزة

﴿وَرَاوَدَتْهُ الّتي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبوابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

﴿لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَـا لَوْلاَ أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ .

---

١. الحديد:٢٨.

٢. الميزان في تفسير القرآن:١١/ ١١٩.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَآىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا وَاسْتَغْفِري لِذَنْبِكِ وَإِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .[١]

تُعدّ هذه الفترة من حياة يوسف من ألمع مراحل حياته، حيث تجلّت فيها قوة إيمانه ونزاهته وعفّته، فقد حاكت امرأة العزيز له مصيدة، قلّما يتّفق لإنسان أن يقع في مثلها ثمّ يخرج منها مرفوع الرأس ولا ينزل طائعاً لرغباته النفسية .

و إليك هذا التمهيد قبل الشروع في بيان القصة :

تربّىٰ يوسف عليه السلام ـ كما نعلم ـ في قصر عزيز مصر، و تفتّحت زهرة شبابه في أجوائه المتحرّرة ، الزاخرة باللهو والمرح، وبين أهله وزوّاره المُنعّمين المُترَفين ... وفي كَنَف امرأة، هي سيدة القصر، وقد عَشِقَته وهامت في حبّه، وظلّت تبعث إليه باستمرار برسائل حبّها وغرامها، و تتفنّن في إغرائه، وتتحيّل في اصطياد قلبه .

ولكنه عليه السلام كان في شغل شاغل عنها، مستمسكاً بإيمانه الوثيق، مُقتصّاً أثر آبائه الكرام في التقوىٰ والورع، مراقباً لله تعالى في حركاته وسكناته، فلم يتأثّر بتلك الأجواء، ولم يضعف أمام الفتنة أو يستسلم للإغراء والإغواء .

لم تَعُد هذه العاشقة الوالهة تحتمل هذا العزوف والإعراض من محبوبها،

---

١ . يوسف:٢٣ـ٢٩.

وعزمت على إيقاعـه في شِباكها، مهما كلّفهـا ذلك من ثمن، وخَطتْ في هذا الاتجاه ثلاث خطوات جريئة:

الخطوة الأُولى: المراودة

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾.

الرَّوْد: هو التـردّد في طلب الشيء برفق، مشبِّهـاً حالهـا بحال من يجيء ويذهب لمطلوبه، وهذا يدلّ على أنّها كـانت تغريه وتخادعه، وهي تدعوه إلى نفسها.

ولعلّ في قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ إشعاراً بتسلط صاحبة البيت عليه، لأنّها سيـدته الآمرة النـاهية المُنعِمة عليـه، وكل ذلك دفع يوسف لأن يستجيب لها ويخضع لطلبها.

الخطوة الثانية: تغليق الأبواب

وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾.

وفي تشديد الفعل في قوله: ﴿غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ دلالة على إغلاق الأبواب إغلاقاً محكماً لا يمكن ليوسف معه الفرار.

الخطوة الثالثة: الأمر بالمبادرة

وهي الأمر بالمبادرة الّـذي يدلّ عليه قولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وهي اسم فعل بمعنى «بـادر وأقبل إلى ما هـو مهيّأ لك» وبهـذا أتمّت صـاحبة البيت خطّتهـا بإحكام لقضاء وطرها من يوسف على كلّ تقدير.

وقف عليه السلام من هذه الدعوة السافرة موقفاً حازماً، وانتفض انتفاضة المؤمن الصادق الّذي يخشى الله كأنّه يراه، وتفجّرت كلّ طاقته الروحية المكنونة فيه، لتجعل منه كياناً شامخاً، يستعلي على كلّ أشياء هذه الحياة الفانية.

في هذه اللحظات العصيبة جداً، تجسّد إيمانه العميق بالله وحبّه الخالص له بهاتين الكلمتين: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾.

لقد استمسك بعروة التوحيد وتعوّذ بالله فحسب، لأنّ عشقه لله وذوبانه فيه، أنساه كلّ شيء من حوله حتّى نفسه، ولذا لم يقل إنّي أعوذ منك بالله، بل قال: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾.

ثمّ أردف قائلاً، وهو يستذكر نعمة ربّه: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، إذ هيّأ لي هذا المقام الكريم في بيت العزيز، فكيف أعصيه باقتراف هذا المنكر؟ فذلك ظلم للنفس بعصيانها للمنعم المدبّر ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[1]

ويستمر القرآن الكريم في عرض مشهد الصراع بين الإيمان والغريزة، بين يوسف و الّتي هو في بيتها: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

١. ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّ المراد بربي في قول يوسف ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ هو العزيز، لأنّه هو الّذي أحسن مثواه، فكيف يخونه في زوجته؟ وقد ناقش بعض المفسرين هذا الرأي من وجوه:

أ. إنّ السياق يرجّح رجوع الضمير إلى لفظ الجلالة لقربه منه في قوله: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾.

ب. إنّ الدافع لامتناع يوسف عنها هو الخوف من الله تعالى، وليس مجرد الوفاء للعزيز.

ج. إنّ الأنسب ـ لو كان يوسف يقصد العزيز ـ أن يقول: إنّه لا يُفلح الخائنون، كما قال للرسول وهو في السجن: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ولم يقل: إنّي لم أظلمه بالغيب. انظر: التفسير الكاشف: ٤/ ٣٠١؛ الميزان: ١١/ ١٢٥.

اختلف المفسرون في تصوير هذا المشهد، وتباينت آراؤهم حوله تبايناً كبيراً، يعود إلى تباينهم في خلفياتهم الفكرية والعقائدية والنفسية، وفي منهجهم في التعامل مع الروايات.

وقبل الشروع في عرض ودراسة أهمّ الآراء، يحسن بنا أن نوضّح معنى هاتين المفردتين: الهمّ، والبرهان:

فالهمّ له معان مختلفة، منها: العزم على الفعل، ومنها خطور الشيء بالبال دون العزم عليه، ومنها المقاربة، يقولون همّ بكذا، أي كاد يفعله، ومنها الميل النفسي والرغبة، كقولهم: هذا أهمّ الأشياء إليّ.[1]

أمّا البرهان ـ في اللغة ـ فهو الحجة القاطعة، يقول ابن منظور: البرهان هو الحجة الفاصلة البيّنة، يقال: برهن يبرهن برهنة، إذا جاء بحجة قاطعة لرد الخصم.[2] و استعمل البرهان في القرآن في المعجزة قال سبحانه: ﴿**فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَونَ وَمَلأِهِ**﴾[3] والبرهانان هنا: عصى موسى واليد البيضاء.

ولابدّ أن نشير إلى سخف الرأي الّذي يفسّر همّ يوسف عليه السلام بالعزم على ارتكاب الفاحشة والإصرار على ممارستها، وأنّه لم يردعه عن ذلك سوى البراهين الكثيرة المزعومة الّتي تداركه الله بها، والّتي (لو أن أوقح الزناة لقي بأدنى ما لقي لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك)[4] حسب تعبير الزمخشري.

---

١. انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/ ١٢٠.

٢. لسان العرب:١٣/ ٥١.

٣. القصص:٣٢.

٤. الكشاف:٢/ ٢٥٠.

والروايات الواردة في هذا الشأن معروفة المصدر والأهداف!! وقد انخدع بها بعض المفسرين والمحدثين[1]، أو قبلوها لحاجات في نفوسهم.

وهل تجد أحداً أشدّ من اليهود رغبةً في الطعن على الصديقين الأبرار والحطّ من منزلتهم ومقاماتهم الكريمة؟ أو أكثر سعياً منهم في ترويج الفساد وإشاعة الفجور بمختلف الوسائل الخسيسة؟

لقد جُبلوا على تحقير الإنسان الّذي كرّمه الله أيّ تكريم، ليهبطوا به إلى مستوى البهائم أو أدنى!! ومن هنا يعزّ عليهم أن يرَوا إنساناً تشرق حياتهُ بالنظافة والطهر والعفاف، أو يُبصروا سموّاً وارتفاعاً في روحه وإيمانه ومبادئه.

والحقّ أنّ النظر إلى هذا المشهد (الهمّ به والهمّ بها) ينبغي أن لا يحصل دون النظر إلى سائر مشاهد القصة الّتي ظهر فيها يوسف عليه السلام إنساناً محاطاً بالعناية الإلهية والرعاية الربّانية منذ أن كان صغيراً وفي كافة مراحل حياته وأطوارها، فقد هيّأه تعالى لمهمة رسالية كبرىٰ ومسؤولية عظمى، ومن هنا رزقه حكماً وعلماً وجمالاً وبهاءً، وبسط إليه يد العون في المواقف الّتي يحلّ فيها اليأس وتنقطع الآمال.

كما عكستْ مشاهد أُخرى إيمانَه العميق بالله تعالى وشدة تعلّقه به وولَهه في حبّه، ومراقبته له في سرّه وعلانيته، وصبره على مصاعب الطريق، وثباته على القيم في السرّاء والضرّاء.

كلّ هذه المشاهد تهدف إلى أن تُبرزه قدوة، ومَثَلاً أعلىٰ يُحتذى به في المجالات المذكورة، وكلّ ما يسيء إلى هذا الهدف أو يشوّش عليه، ينبغي أن

---

١. الدر المنثور في تفسير الآية.

يُنبذ ويُطرح جانباً.

وعلى ضوء ذلك، يجب أن نقوّم الآراء الّتي تصوّر المشهد المذكور. ولا ريب في أنّ الرأي الأقرب إلى جوّ القرآن هو ما ينسجم مع ما رسمه القرآن نفسه من معالم هذه الشخصية الإلهية المعصومة.

وإليك أهمّ الآراء الّتي وردت في هذا المجال:

١. انّ في الآية تقديماً وتأخيراً، والتقدير: (ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها). أي أنّه لم يهمّ بها إطلاقاً. وهذا ليس بمعنى تقديم جواب(لولا) عليها(وهو قبيح كما قالوا، لأنّه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام)، بل بمعنى حذف الجواب المؤخر لدلالة جملة متقدمة عليه.

فيكون معنى الجملتين:

وهمّت به: أي همت امرأة العزيز بيوسف بلا قيد وشرط.

وهمّ بها: لولا أن رأى برهان ربه، فرأى البرهان ولم يهمّ.

ومعنى ذلك امتناع الجزاء، أي الهم لوجود الشرط كما هو معنى لولا الامتناعية، كقولهﷺ: «لولا أن أشق على أُمّتي لأمرتهم بالسواك عند كلّ صلاة»[1] فانتفى الأمر بالسواك لأجل مخافة أن يشق الأمر على الأُمّة.

وبذلك يظهر أن امرأة العزيز همّت بيوسف وأمّا يوسف، فلم يخالطه همّ بامرأة العزيز لما رأى من البرهان.

٢. انّ اللام في قوله: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ**﴾ للقسم، والمعنى: وأقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه، ومعنى قوله: ﴿**وَهَمَّ بِها لَولاٰ أَنْ رَأَىٰ بُرهَانَ رَبِّهِ**﴾:

---

١. الكافي:٣/ ٢٢، باب السواك، الحديث١.

أُقسم لولا رؤيته برهان ربّه، لهمّ بها وكاد أن يجيبها إلى ما تريده منه. وبعبارة أُخرى: لولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهمّ والاقتراب، دون الارتكاب والاقتراف.[1]

ويقرب من هذا المعنى، قولهم: إنّه مال طبعه إلى ما دعته إليه، وتحرّكت مشاعره نحوها.

قال إسماعيل حقي: إنّه مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب ميلاً جبلّياً لا يكاد يدخل تحت التكليف لا قصداً اختيارياً، لأنّه كما أنّه بُرّئ من ارتكاب نفس الفاحشة، كذلك بُرّئ من الهمّ المحرّم، وإنّما عبّر عنه بالهمّ لمجرد وقوعه في صحبة همّها في الذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به.[2]

٣. إنّها همّت بالفاحشة منه وأرادت ذلك، وهمّ يوسف أن يدفعها عن نفسه وينالها بمكروه ولو بضربها ولكنّه رأى برهان ربّه فاجتنب ذلك، ولو أقدم عليه لدفع الثمن غالياً، ولصقت به تهمة المراودة على المنكر.

وثمة ملاحظتان وردتا على هذا الرأي: **الأُولى**: إنّه يلزم منه التفريق بين الهمّين، بجعل متعلّق الهمّ في الأوّل هو العمل القبيح، وفي الثاني العمل على ردّها ومدافعتها، وهو خلاف الظاهر القاضي بوحدة الهمّين.

الثانية: أن تفسير همّ يوسف بها بهذا المعنى، لا دليل عليه من عبارة الآية الكريمة.

والتفت بعضهم إلى الملاحظة الأُولى، ففسّر الهمَّيْن بمعنىً واحد،

---

١. الميزان: ١١/ ١٢٨.

٢. تفسير روح البيان: ٤/ ٢٣٧.

وذهب إلى أنّ الموقف بين الطرفين (يوسف وامرأة العزيز) كان موقف صراع ومواثبة، وأنّ الفارق بين همّها وهمّه، أنّها أرادت الانتقام منه شفاءً لغيظها، إذ فشلت فيما تريد، وأُهينت برفضه وإبائه لما أرادت، وأراد هو الاستعداد للدفاع عن نفسه، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه، ولكنّه رأى من برهان ربّه وعصمته مالم تره، إذ ألهمه أنّ الفرار من هذا الموقف هو الخير الّذي به تتم حكمته فيما أعدّه له.[1]

والآن، ما هو المراد من البرهان الّذي رآه يوسف عليه السلام وعصمه من الهمّ بامرأة العزيز؟ هناك عدة وجوه ذكرها المفسرون، منها:

أ. انّه حجة الله سبحانه في تحريم الزنا والعلم بالعذاب الّذي يستحقه الزاني.

ب. انّه ما أتاه الله سبحانه من آداب الأنبياء وأخلاق الأصفياء في العفاف وصيانة النفس عن الأدناس.

ج. النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش والحكمة الصارفة عن القبائح.

د. انّه اللطف الّذي لطف الله تعالى به في تلك الحال أو قبلها فاختار عنده الامتناع عن المعاصي وهو ما يقتضي كونه معصوماً، لأنّ العصمة هي اللطف الّذي يختار عنده التنزه عن القبائح والامتناع عن فعلها، ويجوز أن تكون الرؤية هاهنا بمعنى العلم كما يجوز أن تكون بمعنى الإدراك.[2] هذه هي الوجوه المذكورة، وهناك احتمال آخر وهو أفضل من الجميع وهو أنّه تمثّل واقع الفحشاء ونتائج هذا العمل السيّئ في الحياتين عنده وهذا صار سبباً

---

١. تفسير المراغي: ١٢/ ١٣٠. وانظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٧/ ١٦٤.

٢. مجمع البيان:٣/ ٢٢٥.

للاعتصام وعدم الهمّ. وكان التمثل على حدّ كأنّه رأى النتائج بأُم عينيه. وتسمية ذلك بالبرهان من باب المشاكلة، فكما أنّ الحجج القاطعة تصدّ الإنسان عن الاعتقاد بالخلاف أو ارتكاب عمل يكون على جانب الخلاف من البرهان فهكذا تمثّل نتائج المعصية تصدّ الإنسان عن الهم بها، ولعل هذا هو المراد من اللطف في الوجه الخامس.

٦

الشهادة الكبرى الّتي تقطع ألسنة السوء

اقتضت إرادته سبحانه أن يعصم يوسف من السوء والفحشاء، لأنّه من الذين أخلصهم الله لطاعته واصطفاهم لرسالته: ﴿**كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾.

إنّ قوله: ﴿**كَذَلِكَ**﴾ نظير قوله فيما سبق ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ**﴾، ومعنى ذلك أريناه كذلك رؤية لنصرف عنه السوء.

وأمّا السوء وهو القبيح فالمراد به هنا خيانة من ائتمنه، وقيل: كيد امرأة العزيز، وقيل: هو ما كان همّ به من أذاها، وقيل هو مقدمات الفاحشة من النظر بشهوة وغيره. والفحشاء هي أقبح أنواع المعاصي، والمراد بها هنا الزنا.

ثمّ إنّ قوله: ﴿**لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ**﴾ من ألطف البيان لتنزيه يوسف عن ارتكاب أي عزم قبيح أو فعل كذلك فالآية تدلّ على أنّ السوء والفحشاء هما اللذان قصداه فصرفهما الله سبحانه عنه. وإلاّ فلو كان يوسف

قاصداً للسوء والفحشاء لكان الصحيح أن يقول لنصرفه عن السوء والفحشاء .

ثمّ إنّ التعليل (لنصرف) دليل على أنّ يوسف لم يهمّ أصلاً . وانّه امتنع عن الهمّ لأجل وجود رؤية البرهان، وإلاّ فلو كان الهمّ مطلقاً بلا قيد لكنه سبحانه أتى بالصارف لما صحّ أن يقول لنصرف عنه السوء والفحشاء، لأنّ الهم المطلق من مصاديق السوء . وقد صار يوسف ـ حسب الفرض ـ مصدراً له .

٧

نجاة يوسف من المكيدة

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ .

﴿وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .[1]

تعكس لنا هذه الآيات الظروف القاسية الّتي كانت تحيط بيوسف وتلجئه إلى الاستسلام لرغبة امرأة العزيز، الّتي كانت تصرّ على تلبية رغبتها، بينما كان

١ . يوسف:٢٥ـ٢٩ .

يأبىٰ ذلك عليه السلام ويمتنع أشد الامتناع، واستمر النزاع بينهما مدة ـ الله أعلم بحدّها ـ، إلى أن حسمه بالتصميم على الهرب من الغرفة للتخلّص منها، فجرى نحو الباب، وجرت هي خلفه مسعورة لتمنعه، فلحقت به قبل أن يهرب من الباب، وجذبت قميصه من الخلف فخرقته، وفي هذا الوقت فوجئا بمجيء الزوج (السيّد كما يُلَقّب عند النساء في مصر). وقد أودع قلم الإعجاز هذه المفاهيم في جملة موجزة: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾.

والإلفاء يستعمل في وجدان شيء فجأة بدون سعي.

في هذه اللحظات الحاسمة يتميز العشق الإلهي عن العشق الغريزي ويفترق العاشقان في المسلك والموقف، فالأوّل منهما لا يتراجع عن أمنيته وحبّه ويجاهر به ما دامت الدماء تجري في عروقه، في حين يتراجع الثاني بسرعة، وبدل أن يعترف العاشق بحبه وعمله يتهم المعشوق بتهمة مخزية، كما تراه في المقام حيث قالت: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيم﴾.

فقد اتّهمت يوسف بالتعدّي على أهل السيد فصارت مدّعية ثمّ صارت قاضية وأصدرت حكمها بأنّه لابدّ أن يجازى بالسجن أو العذاب، ولعلّ مرادها من العذاب هو الضرب والقتل، ففي التعبير(بأهلك) مكان (نفسها) نوع من التحريض وتهييج الزوج على مؤاخذته، ولكن في التردد بين السجن والعذاب الأليم نوع إشارة إلى بقاء حبها له حيث ترددت بينهما لكي لا يؤخذ يوسف بالثاني.

ولم تصرح باسم المعتدي ـ على زعمها ـ ولا المعتدى عليه ـ أعني:

نفسها ـ تأدباً في حضور زوجها واحتراماً لساحته .

وطبيعة الموقف كانت تقتضي أن يبتدئ يوسف بالكلام ويشتكي من زوجة العزيز، ولكنّه تأدّباً وحفظاً لستر العائلة وعفافها لم يبدأ بالكلام وسكت، وإنّما بدأت المرأة بالشكوى واتهمته وأصدرت حكمها، وعند ذلك لم يجد يوسف بدّاً من بيان الحقيقة: ﴿**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي**﴾، أي لم أردها بالسوء بل هي الّتي أرادت ذلك مني وراودتني عن نفسي .

هكذا، بلهجة المطمئن بنزاهته، يكشف يوسف عليه السلام عن حقيقة ما جرى، من دون حاجة إلى تأكيد كلامه بقَسَم وغيره .

فوجئ العزيز بهذه الحادثة الّتي تمس كرامته، ولكنّه لم يشأ أن يحكم فيها، بل حكم فيها أحد أقارب الزوجة ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا**﴾ .

وقد جعل الشاهد مبنى قضائه وتشخيصه وجودَ الشقّ في قميص يوسف(حيث يدلّ على منازعتهما ومواجهتهما)، وقال: ﴿**إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ .

فلمّا رأى العزيز قميص يوسف قد شُقّ من خلف، أذعن بأنّ يوسف كان يفرّ من بين يديها فجذبته المرأة حتّى شَقّت قميصه، عندئذٍ خاطبها بقوله: ﴿**إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ**﴾ معاشر النساء ﴿**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾ ثمّ التفت إليهما، وقال: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ .

كان من المترقب أن يستفزّ هذا الحادث الجَلل غيرة العزيز ويثير نخوته، فيبادر إلى معاقبة زوجته أو تعنيفها بشدّة، خاصّة بعد أن أيقن بعزمها على ارتكاب الفاحشة وخيانته في فراشه، بَيْد أنّه اكتفى بأمرين:

أمَر يوسف بالإعراض وكتمان الخبر وعدم إذاعته، وأمر زوجته بالاستغفار.

وهكذا تبعث حياة اللهو والترف على التحلّل من القيم، والميوعة في اتخاذ المواقف الحازمة بشأنها.

٨

اطّلاع النسوة على غرام العزيزة

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ .

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هٰذا بَشَراً إِنْ هٰذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَالاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .[1]

---

١. يوسف: ٣٠ ـ ٣٤.

انتشرت في المدينة أخبار ما يدور في قصر العزيز، وتلقّفتها النسوة، ورُحن يتحدثن ـ لغرض في نفوسهنّ ـ عن قصة تعلّق سيدة القصر ذات المقام الاجتماعي الرفيع بمملوكها الّذي اشتراه زوجها بثمن زهيد، واكتوائها بنار حبّه، وتهالكها في بذل نفسها له: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[1]

وأدركت امرأة العزيز غرض هذا الحديث الّذي يُراد به النيل منها ومن شأنها، وفكّرت في طريقة تتيح لها إطلاعهنّ على محنتها الّتي تعانيها، لتلمس العذر لها، وتشفي غيظها منهن، وهي تشهد انهيارهنّ أمامها، فأقامت لهن مأدبة في قصرها ووفّرت لهن وسائل الراحة والانبساط، وأعدّت لهن وسائد يتّكئن عليها، وقدّمت لهن الطعام والسكاكين. وبينما كنّ يتفكّهن ويستعملن السكاكين عند الأكل، أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج عليهنّ، فلما رأين طلعته أجللْنَه، وجرحن أيديهن من فرط التعجّب والذهول، وصرّحن بأنّ هذا ليس بشراً، بل هو ملك كريم في جماله وبهائه، وهذا ما تحدّثت عنه الآية التالية:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هٰذا بَشَراً إِنْ هٰذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

نجحت الخطة الماكرة لامرأة العزيز، فانبرت قائلة، وهي ترى مصرعهنّ أمام هذا الجمال الباهر ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، ووجدت الفرصة سانحة للاعتراف بالحقيقة دون حياء ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وامتنع عن

---

١. الشغاف: غلاف القلب، والجمع شُغُف. ومعنى قوله: ﴿شَغَفَهَا﴾ أي أصاب حبُّه شغافَ قلبها، فاخترقه حتّى بلغ القلب.

الاستجابة لي، ثمّ أردفت قائلة في صلافة وتحدٍ وبحضور المدعوّات، اللواتي لم يكنّ أقلّ منها وقاحة وتهتّكاً: ﴿ وَلِئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاّء.

وجد يوسف عليه السلام نفسه مُقحماً في أجواء مشبعة بالفتنة والإغراء، ووسط كلمات الإعجاب والحب والغرام، وأمام التهديد الصارم لامرأة العزيز بسجنه وإذلاله.

توجّه عليه السلام ــ كما هو شأنه ــ إزاء هذه الضغوط القاسية إلى ربّه، قائلاً: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ هؤلاء النسوة من ارتكاب المعصية، ثمّ تضرّع إليه تعالى، مستمداً منه المزيد من اللطف والرعاية، للثبات أمام هذه الفتنة الّتي تعصف به، والّتي يخشى أن يقع في شباكها، وتُبعده عن رحاب الله ﴿وَالاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تزيين الحرام ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وأمِلْ إلى جانبهنّ ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

لم تتأخّر إجابة هذا العبد الصادق المخلص: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بإفاضة المزيد من اللطف عليه وتثبيته بالعصمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

المرحلة الثالثة

٩

حياة يوسف في السجن، وخروجه منه

بالرغم من أنّ الآيات والشواهد دلّت على براءة يوسف وطهارة ذيله، كشهادة شخص من أُسرتها، واعترافها هي أمام النسوة ببراءته واعتصامه، إلاّ أنّ قراراً ظالماً صدر بحقّه يقضي بسجنه لأمد محدّد، لرفضه الانصياع لرغبة السيدة الكبيرة، وللتغطية على فضيحتها الّتي صارت حديث الناس، وإظهار أنّه هو المتجاوز دونها.

زُجّ عليه السلام في السجن، فلبث فيه فترة، ذكر القرآن الكريم بعض أحداثها، وشيئاً من دوره في تأدية مهمّته الرسالية. وإليك الآيات الّتي تستعرض ذلك:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ .

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلَكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .[1]

عرضت لنا هذه الآيات مشهداً من السجن، يظهر فيه فتيان من حاشية الملك(أحدهما خباز، والآخر صاحب شرابه، كما في الرواية) إلى جنب يوسف عليه السلام ، وهما يقصّان عليه ما رأياه في منامهما، ويطلبان منه تعبيرَهما، بعد أن لمسا فيه كمال العقل والفهم، وعَلِما بفضله وحسن سيرته :

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

اغتنم فرصة إقبالهما عليه، ووثوقهما بعلمه وسيرته للقيام بمسؤوليته الرسالية والدعوة إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك بحكمة، منتهجاً أُسلوب

---

١ . يوسف:٣٥ـ٤٢.

الخطوة خطوة لبلوغ أهدافه الإلهية، فسعى أوّلاً إلى تعزيز ثقتهما به، من خلال كشفه لأسرار ترتبط بشيء حسّي من عالمهما الضيّق (السجن) ـ وهو معرفته بحقيقة وخصوصيات الطعام، الّذي يؤتى به إليهما في السجن قبل أن يصل إليهما ـ للتدليل على أنّ علمه ببعض الأسرار(ومنه تعبير الرؤى) لم يكن ضرباً من العلوم والمعارف البشرية، وإنّما هو بإفاضة من الله تعالى، ووحي منه. وهو يمهّد بذلك لإثبات نبوّته وارتباطه بالغيب وبالتالي صدقِهِ في دعوته إلى التوحيد: ﴿**قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ**[١] **قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُما مِمَّا عَلَّمَني رَبِّي**﴾.

ثمّ شرع في بيان عقيدته، بأن برّأ نفسه أوّلاً من الإيمان بدين القوم القائم على الشرك بالله تعالى وإنكار المعاد. وهذه إشارة لطيفة إلى فساد عقيدة الفتيَيْن السجينَيْن: ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾، ثمّ راح يؤكد أنّ للتوحيد الخالص جذوراً في عقيدة آبائه وأسلافه، وأنّه ينتمي إلى هذه الأسرة العريقة الشهيرة ﴿**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾، لتكون دعوته إلى التوحيد أدعى للقبول بها والاطمئنان إليها.

ثمّ أضاف بياناً آخر وقال: ﴿ **مَا كانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ**﴾، أي لا يصحّ ولا يمكن لنا أن نشرك بالله شيئاً بعد دلالة الآيات على توحيده في ألوهيته وربوبيته، وهو مثل قوله: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ**﴾.[٢]

---

١. الضمير (الهاء) في(تأويله) يرجع إلى الطعام حسب ما فسّرنا، وعليه أكثر المفسرين.

٢. آل عمران:٧٩.

كلّ هذا البيان، هو تمهيد لما سيلقيه من البرهان على توحيده سبحانه، ولولا هذا التمهيد لربما يكون البرهان عقيماً عندهم ولذلك بدأ ببيان التوحيد مقروناً بالبرهان وقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

إنّ الاعتقاد بوجود إله قاهر واحد كان أمراً متفقاً عليه بين يوسف وصاحبَيْه، غير أنّهم كانوا مشركين في أمر التدبير، إذ يعتقدون أنّ الإله القاهر الواحد فوض تدبير الأُمور إلى أرباب مختلفة، كلٌّ يدبّر شأناً من شؤون الكون والإنسان، ولذا كانوا يعبدون تلك الأرباب المتفرقة مع الاعتقاد بكونهم مخلوقين لله سبحانه.

وأمّا وجه تخصيصهم بالعبادة دون الله فلأجل قولهم: إنّ الله سبحانه أجلّ وأرفع ذاتاً من أن تحيط به عقولنا أو تناله أفهامنا فلا يمكننا التوجه إليه بعبادته ولا يسعنا التقرب منه بعبوديته والخضوع له، والّذي يسعنا هو أن نتقرب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة الّتي هي مؤثرات في تدبير النظام العالمي حتّى يقربونا منه ويشفعوا لنا عنده.[١]

في هذا المقطع القصير من كلامه، راعى يوسف عليه السلام أساليب التأثير على مخاطبيه، فقد وصف رفيقَيْه الجالسَين معه بـ﴿صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ لجلب اهتمامهما لما يقول، كما تحاشى نقد عقيدتهما بشكل مباشر وصريح، وإنّما ألقى إليهم حجته في صورة الاستفهام التقريري: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإذا كان الله هو الواحد القهار والباقون هم المقهورون، فهو خير فيكون أولى بالعبادة لا غير، لأنّ الأرباب المتفرقة كلّهم من مخلوقات الله الواحد القهار وهو الّذي أعطى لهم الوجود والقوة والقدرة على إدارة طرف من

---

١. الميزان: ١١/ ١٧٧.

الكون، فإذا كان الحال كذلك، فمبدأ القوة والقدرة الّذي يستمد الكل منه هو الأولى بالعبادة لا غيره.

وبذلك يظهر أنّ القوم كانوا موحّدين بالخالقية وأنّه لا خالق إلّاالله ولكنّهم مشركون في مرتبتين تاليتين:

أ. الربوبية وتدبير العالم علوه وسافله.

ب. العبودية والخضوع لمن له قوة التصرف في العالم.

فالنبي يوسف عليه السلام أبطل كلا الشركين بأنّ الكلّ مخلوق لله ولو كان لهم قدرة فهي معطاة من الله سبحانه فعبادة الغني المطلق هو المتعين دون هؤلاء الفقراء بالذات المتمسكين بذيل قدرته. كلّ ذلك على فرض وجود أرباب متفرقة، ثم أبطل عليه السلام ربوبيتهم بصراحة، قائلاً:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فليس لما تعبدون من الأرباب حظّ ولا نصيب من الربوبية إلّا الأسماء، وهي مجردة عن المعاني ولا تعبّر عن حقيقة، وذلك لأنّكم أنتم الذين وصفتموهم بالأرباب، دون أن يكون هناك دليل قاهر على صحّة ما تدّعونه.

فإذا تبين أنّهم ليس لهم من الربوبية حظ ولا نصيب والكلّ عبيد لله سبحانه فيكون الحكم له تعالى: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّهِ﴾**، لأنّه المالك لأزمّة الأُمور والمتصرّف فيها، وقد حكم و **﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾** فلم يأمر إلّا بعبادته وحده دون عبادة غيره، يقول سبحانه: **﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**[1]، وقال عز اسمه مخاطباً الأنبياء: **﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾**[2].

---

١. النحل: ٣٦. ٢. الأنبياء: ٩٢.

وعلى ذلك فإنّ دين التوحيد الّـذي دلت على صحته الفطرة والعقل ، هو الدين المستقيـم القادر على قيادة الحيـاة الإنسانيـة بجدارة ، كمـا يشير قـوله : ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

وهكذا ينهض يوسف عليه السلام بأعبـائه الرساليـة في سجن الملك ، بـاتّخاذه منبراً إلهياً لهداية الناس إلى الدين القيّم .

ولمّا أتم يوسف إلقاء الحجة على صاحبيه ، بـدأ بالوفاء بوعده في تأويله رؤياهما ، وهما يستمعان إليه بفارغ الصبـر وبانتباه شديد ، فقال : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ وهذا ـ بقرينة المناسبة ـ تأويل رؤيا من قال منهما : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ حيث أوّلها عليه السلام بأنّـه سيُطلق سراحـه ويرجع إلى عمله عند سيده الملك ، فيسقيه خمراً ، ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ .

ولمّا كان عليه السلام واثقـاً من تأويلـه للـرؤيتيـن ، لأنّـه بتعليم من الله تعـالى ، قال : ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فهو واقع لا محالـة ، ولا يُجدي في ردّه شيء .

ورغب يوسف عليه السلام في إيصال مظلوميته إلى الملك عن طريق رفيقه الّذي سيُطلق سراحه ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ .

إنّ التمسك بالأسباب الطبيعية يتراوح بين التوحيد والشرك ، فمن تمسك بها بمـا أنّها من سنن الله سبحانه فـي الكون والمجتمع فقد اعتصم بالتـوحيد ، وذلك كالفلاح يبذر البذور في الأرض بعد تهيئتهـا لقبول الزرع ثمّ يسقيها بالماء ويزيل النبـاتات الضارة بـالزراعة ، كلّ ذلك لأجل أنّـه سبحانه أجـرى سنته في الزراعة على هذا المنوال ، فمن أخذ بها فقد اتبع سنةالله تعالى في عالـم الكون ،

وهذا هو نفس التوحيد.

وقد صرح سبحانه في العديد من الآيات الكريمة على تأثير الأسباب الطبيعية في الكون ولكن بإذن منه سبحانه مثل، قوله: **﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾**.[١]

وأمّا من تمسّك بهذه الأسباب معتقداً بأصالتها واستقلالها في التأثير فهذا هو الشرك المحض.

وعلى ضوء ذلك، فإنّ استعانة يوسف عليه السلام بالسبب الطبيعي (وهو هنا الملك) لإثبات براءته والتحرّر من السجن، تأتي في إطار التمسك بالسبب من المقولة الأُولى، فالمؤثر في الواقع هو الله سبحانه، والملك سبب في مسير تحقق إرادته سبحانه.

ومهما يكن، فإنّ رغبة يوسف عليه السلام في إبلاغ مظلوميته للملك لم تتحقّق، إذ نسي هذا الّذي بشّره يوسف بالنجاة وأُطلق سراحُه وعاد إلى عمله في بلاط الملك (وهو الساقي كما في الأخبار)، نسي صاحبَه يوسف ومحنته وما أوصاه به **﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾**[٢]، فدفع يوسف عليه السلام ثمن هذا النسيان من عمره وشبابه **﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾**:

---

١. البقرة:٢٢.

٢. الضميران في (أنساه) و (ربّه) يرجعان إلى الناجي، أي أنسى الشيطانُ الناجيَ (ساقي الملك) أن يذكر يوسف لربّه. ويؤيد ذلك قوله تعالى فيما بعد **﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾**. وهذا صريح في أنّ الساقي هو الناسي والمتذكر بعد لأي من الزمن.

وذهب كثير من المفسرين إلى أنّ الضمير في **﴿أَنْسَاهُ الشَّيْطانُ﴾** يعود إلى يوسف، أي أنّ الشيطان أنسى يوسف ذكر الله فاستعان بغيره. وهذا لا يليق بساحة المخلصين، وهو منهم عليه السلام لقوله سبحانه: **﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾**، وقد اعترف الشيطان بأنّ لا سبيل له عليهم **﴿ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلاّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾**.

مـا كلُّ مـا يتمنّى المـرء يُـدركُـه تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

١٠

رؤيا الملك: مفتاح تحرّر يوسف من السجن

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾. [١]

تتضمن هذه الآيات أُموراً أربعة:

١. سبب خروج يوسف من السجن.

٢. العوامل الّتي أدّت إلى تقلّده منصباً رسمياً رفيعاً.

---

١. يوسف:٤٣ـ٤٩.

٣. إثبات براءته من التهمة الملصقة به، بتصديق كافة النسوة اللاّتي حضرن في المجلس الّذي رتبته امرأة العزيز.

٤. إجلاء جانب ممّا أفاضه الله تعالى عليه من علم، وهو تأويل الرؤى، فقد عبر رؤية الملك على وجه يكشف عن وجود الرابطة بين الرؤيا والتأويل.

وإليك قصة هذه الرؤيا:

بعد أن أمضى يوسف سنوات من عمره سجيناً، هيّأ الله تعالى له ــ جزاءً لإيمانه العميق وإخلاصه الشديد ــ وسيلة للخروج من السجن معزّزاً مكرّماً مبرّأً من كلّ تهمة ورَيْب، فقد رأى الملك حُلُماً غريباً، أثار لديه اهتماماً كبيراً، إذ رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف(هزيلات)، ورأى في حقل واحد سبع سنبلات قد انعقد حبُّها وأُخر يابسات قد احتُصدت.

ثمّ دعا أعيان قومه(الملأ) وطلب منهم تفسير رؤياه، وقال: ﴿**أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾ ولكنهم أظهروا العجز عن تفسيرها، و﴿**قَالُوا أَضْغَاثُ**[1] **أَحْلام**﴾ أي أخلاط أحلام متراكمة لا تفسير لها، أو نحن نجهل تفسيرها: ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحلامِ بِعَالِمِينَ**﴾.

في هذه الأجواء المشحونة بالحَيْرة والقلق، تذكّر الناجي (الساقي) صاحبه يوسف عليه السلام الّذي تركه في السجن منذ سنوات، والّذي لمس منه صدق تعبيره لرؤياه ورؤيا صاحبه الآخر الّذي صُلب، فأخبر الملك عنه وعن علمه بتأويل الرؤى، مقترحاً إرساله إليه ليأتيهم بالتأويل الّذي لا مرية فيه ﴿**وَقَالَ الَّذِي**

١. الأضغاث جمع ضغث، وهو الحزمة من كلّ شيء، وقيل: من النبات فقط يختلط فيها الرطب باليابس.

نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ﴾ .[١]

وصدر الأمر بإرساله، فانطلق الساقي إلى يوسف في سجنه، وتحدّث إليه، واصفاً إيّاه بالصادق الكثير الصدق **﴿الصِّدِّيق﴾**، ثمّ طلب منه تفسير الرؤيا الّتي نقلها له بدقة، رجاء أن يحمله (أي التفسير) إلى الملك ومَن عنده **﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلى النَّاسِ﴾**[٢] الذين يترقّبون الجواب **﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** فضلك و مكانتك[٣]، فيخرجونك من السجن.

لم يكتف يوسف عليه السلام بتأويل الرؤيا الّتي تُنذر بوقوع أزمة اقتصادية خانقة في المستقبل، بل شفعه بطرح حلول ناجعة لمواجهتها **﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾** متوالية، تجود فيها الأرض بالغَلّات الوافرة (وهي تأويل البقرات السبع السمان) ثمّ نصح لهم بإبقاء الزرع في سنابله (ليصان من الفساد) وبالاقتصاد في الاستهلاك **﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾** .

ثمّ تنطفئ سنوات الخصب والرخاء هذه، لتأتي بعدها سبع سنين يعمّ فيها البلاد الجَدْبُ والقحط (وهي تأويل البقرات السبع العجاف)، الأمر الذي يُفضي إلى نفاد كلّ ما ادّخرتموه في سنين الخصب. وهنا ينصحهم ثانياً بأن يُحصنوا ويحرزوا قليلاً منه ليُتّخذ بذراً.[٤]

---

١. قوله: **﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾** أي وتذكّر بعد وقت وحين من الزمان. وقد حُدّد في التوراة بسنتين، حيث جاء فيها: وكان بعد مضي سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً إذ هو واقف عند النيل...(الكتاب المقدس:٣٥/ ٤١ص ١٣١).

وهذا مخالف لما في القرآن الّذي جاء فيه **﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾** وأقله ثلاثة وأكثره تسعة.

٢. انظر الميزان: ١١/ ١٩٢ـ١٩٣.

٣. وقيل: المراد بالناس، هم أهل البلد، لا الملك ورجال حاشيته فقط.

٤. وقيل في معناه: لعلهم يعلمون تأويل الرؤيا.

وإليك الآية الكريمة الّتي أوجزت ما قدّمناه: **﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾**.

ثمّ أضاف عليه السلام شيئاً لم يرد في رؤيا الملك، فذكر مزايا عام رخيّ، يأتي بعد السبع الشداد، تكثر فيه الخيرات والبركات **﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾**.[1] هذه الإضافة تؤكد نبوته وارتباطه بالله تعالى الذي وهبه هذا العلم الّذي لا يهتدي إليه العقل البشري، الأمر الّذي يعزّز من ثقة الناس به، ويجعلهم أكثر استجابة لرسالته ودعوته إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى، كما تفتح ـ هذه الإضافة ـ أبواب الأمل للناس، وتنقذهم من حالة اليأس والقلق، الّتي سيبعثها فيهم نبأ السنوات المجدبة الّتي تنتظرهم.

وممّا مضى يتبيّن أنّ يوسف عليه السلام قدّم لشعب مصر خدمة جليلة، لولاها لعمّ الجدب هذا القطر الأعظم وهلك الناس من الجوع، وتتمثل هذه الخدمة في جانبين:

١. إخبارهم بأنّ أمامهم سبعة أعوام مخصبة، وسبعةً مجدبة، فليدّخروا من السبعة الأُولى للسبعة الثانية. ولولا هذا الإخبار ما اقتصدوا في استهلاكهم، وما ادّخروا شيئاً لأيامهم السُّود.

٢. تعليمهم كيفية صيانة الزرع من السوس وغيره من مسبّبات فساده، في ذلك العصر الّذي لا توجد فيه مخازن ضخمة لحفظ الطعام، فقد أرشدهم

---

١. قوله: **﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾**، فالغوث النفع الّذي يأتي على شدة الحاجة، والغيث المطر الّذي يجيء في وقت الحاجة، والمعنى: يُمطرون، فيرتفع الجدب من بينهم، ومن الجائز أن يكون **﴿يُغَاثُ﴾** مأخوذاً من الغيث، بمعنى الكلأ الّذي ينبت من ماء السماء. وقوله: **﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾** أي يعصرون الثمار الّتي تُعتصر من العنب والزيتون والسمسم وغيرها، ويمكن أن يراد بالعصر الحَلْب أي يحلبون ضروع أنعامهم.

إلى مخازن طبيعية تقوم على ترك الزرع في سنابله عند حصده، وعدم تذريته وتصفيته. وهذه الطريقة تتيح صيانته من الفساد مدة من الزمان.

فمن أين تعلم ذلك، هذا الّذي قضى عمره في القصر رقيقاً وفي السجن مظلوماً؟

١١

نزاهة يوسف ممّا نسب إليه

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[١]

***

بعد أن أبلغ الساقي تعبير يوسف رؤيا الملك، أعجبه التأويل وأمر

١. يوسف: ٥٠ـ٥٣.

بإحضاره، فأسرع إليه الرسول ليُخرجه من السجن ويرافقه إلى قصر الملك حتّى يراه عن كثب، حيث أثار علمه وتدبيره إعجاب الملك بل عامة رجال البلاط، ولعلّهم أحسوا بظلمهم لمن يملك تلك القدرات العلمية والتدبير الرائع في السجن.

ولما جاءه الرسول ليخرجه من السجن، أبى يوسف أن يخرج، إلاّ بعد أن يتضح شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ وما هي قصتهنّ وما نهايتها في إشارة تنضح بالأدب إلى براءة ساحته ممّا رُمي به، متحاشياً التعرّض لامرأة العزيز.

إنّ امتناعه عليه السلام من الخروج من السجن إلاّ بعد أن يتبين حال النسوة وشأنهن، أوضح دليل على شخصيته العالية ومكانته السامية، ولم يكن كغيره من الناس الذين إذا سجن أحدهم، وبُشّر بإطلاق سراحه، نسي كلّ شيء يترتب على خروجه من السجن، وإن أضرّ بمكانته وشخصيته.

رجع الرسول وأخبر الملك بقول يوسف، فأمر بالتحقيق في الأمر، فجمع كلّ من كان في ذلك المجلس من امرأة العزيز والنسوة اللواتي قطعن أيديهنّ، فلما استجوبهن الملك عن القضية وعن تهمتهنّ ليوسف، علت أصواتهنّ بنزاهة يوسف و ﴿**قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**﴾. في هذه الأجواء لم تجدْ امرأة العزيز بدّاً من الاعتراف والقول بصراحة﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ**﴾ واستبان ﴿ **أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ في قوله، إنّني أنا الّتي راودتُه.

وباعترافها أُغلق ملف هذه القضية وتبين المخطئ من البريء، وعند ذلك قال يوسف عليه السلام، وهو يشير إلى علّة ردّ الرسول وطلب التحقيق في سبب سجنه﴿**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ**﴾ العزيز﴿**أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**﴾ فلتطمئن نفسه ولا يشك في

أمري.

ثمّ ركّز هذه القاعدة الّتي تتحكّم في سلوك الإنسان إذا استند إليها ﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾. ولا يسدّد خطواتهم إلى نيل مآربهم، بل يفضحهم ويكشف مساوئهم ولو بعد حين. وهذه القاعدة هي الّتي انطلق منها يوسف عليه السلام في تعامله مع مختلف القضايا.

ثمّ كره عليه السلام بعد قوله: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أن يظهر ــ وهو المخلص العميق الإيمان ـ في موقع من يزكّي نفسه ويعجب بها، وينسب لها الاستقلال في التنزّه عن الخطيئة، ولذا بادر إلى استدراك ذلك، قائلاً: ﴿وَمَا أُبَرِئُ نَفْسِي﴾ فهي بطبعها تميل إلى الأهواء والشهوات﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبّي﴾ فهو تعالى وحده الّذي يلطف بها ويعصمها من الذنوب والآثام ويوفّقها للصالحات.

يُذكر أنّ كثيراً من المفسرين ـ عملاً بظاهر السياق ـ يذهب إلى أنّ هاتين الآيتين﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّي لَمْ أَخُنْهُ ... * وَمَا أُبَرِئُ نَفْسي ... ﴾ تتمة لكلام امرأة العزيز، وهو بعيد للأسباب الآتية:

١. لو كان ذلك من تتمة كلامها فلا وجه لأن تقول: «ذلك ليعلم» بل كان اللازم أن تقول: وليعلم أنّي لم أخنه بالغيب، بحذف ذلك فالإتيان باسم الإشارة البعيد غير لازم.

٢. لو كان الهدف من قولها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ﴾ هو الاعتراف بالحق في هذه اللحظة الحاسمة، فقد تبلجت فيها الحقيقة كتبلج الفجر الصادق قبل هذه الجملة باعترافهن جميعاً، فلم يكن أي حاجة لهذه الجملة لأنّها اعترفت بذنبها وطهارة يوسف بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

وإن كان الهدف منه القول بعدم خيانتها طول الزمان فهو خلاف الواقع، لأنّها خانته حيث اتهمته وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾، ولم يقرّ لها قرار حتّى أودعته السجن وقالت في كلامها السابق ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

٣. انّ امرأة العزيز كانت تعيش في أجواء الشرك واللهو والمجون، وأين هي من هذه القيم الإيمانية والحقائق الرفيعة: ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ و ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ مَا رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[١]

وقد برّر أحد الأعلام صدور هذه المعاني الجليلة من امرأة العزيز بقوله: (لا يبعد أنّ الإنسان حين ترتطم رجله بصخرة صماء، تظهر في نفسه حالة من التيقظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل، خاصة أنّه لوحظ أنّ الهزيمة في العشق المجازي يجر الإنسان في طريق العشق الحقيقي «عشق الله». وبالتعبير الحديث المعاصر: بدلاً من زوال الميول النفسية الّتي أُصيبت باللوم والتوبيخ، يحصل عندها «تصعيد» و تتجلّى بشكل عال).[٢]

وهذا التبرير صحيح في نفسه، ولكنّه ـ فيما نرى ـ لا يصحّ في امرأة العزيز الّتي كانت من قومٍ كافرين، وكانت تعيش حياة اللهو والترف والتحلّل من القيود الأخلاقية في قصرها وفي علاقاتها الاجتماعية، ولم تتورّع عن خيانة زوجها بمراودة فتاها، والتهالك على بذل نفسها له، وحياكة قرار ظالم ضد يوسف عليه السلام، سُجن على أثره بضع سنين، دون أن يظهر ـ طيلة هذه الفترة ـ أيّ

١. انظر: الميزان: ١١/ ١٩٩.

٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٧/ ٢٠٧.

مسعىً لها تتدارك به خطيئتها برفع الظلم عنه وتحريره من السجن.

والله يعلم مقدار السنوات الّتي كان يمكن أن يقضيها في السجن بفعل ظلمها واستهتارها، لو لم يرَ الملك رؤياه، ويفتح تحقيقاً في الأمر.

أمّا إصحارها بالحقيقة، فهو لا يعبّر عن حالة من التيقّظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل، خاصة أنّه جاء في جلسة استجواب يعقدها الملك، وفي ظلّ معرفته بفضل يوسف عليه السلام وعلمه ورجاحة عقله، وبعد شهادة النسوة بنزاهته من كلّ سوء.

وثمة سبب آخر دعا إلى استبعاد ربط هاتين الآيتين بيوسف، وهو: أنه (إذا كانت هاتان الآيتان بياناً لكلام يوسف، فسيبدو بينهما نوعاً من التناقض والتضاد، فمن جهة يقول: ﴿**أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**﴾، ومرة يقول: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾.

وهذا الكلام لا يقوله إلاّ من يعثر أو ينزلق ولو انزلاقاً يسيراً، في حين أنّ يوسف لم يصدر منه أيّ انزلاق).[1]

لا شكّ في أنّ يوسف عليه السلام لم يعثر أو ينزلق ولو انزلاقاً يسيراً، لأنّه يقف على أرض ثابتة من الإيمان والورع والتقوى، ويتمتع بألطاف إلهية تقيه من الانزلاق... فهو من الصدّيقين الأبرار الذين أخلصهم الله لطاعته واصطفاهم لرسالاته، فعصمهم من الذنوب والآثام، وطهّرهم من أرجاسها.

وقوله عليه السلام: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي**﴾ ينسجم مع مقامه الرفيع هذا، لأنّه تعبير عن شعوره بضعف نفسه وقلة

١. نفس المصدر.

حيلته في مقاومة الشهوات والأهواء وكلّ ضغوط الحياة، وتعبير أيضاً عن عميق ثقته بالله تعالى وافتقاره إلى رحمته ولطفه وعصمته.

لقد أراد عليه السلام بهذا القول بعد أن أعلن عن أمانته وبراءته من الخيانة ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أراد أن ينأىٰ بنفسه عن الاغترار بهذا الإنجاز والانتصار، وأن ينسبه إلى ربّه الكريم، الّذي صرفه عن سيِّئ الأعمال ووفّقه لصالحها، لأنّ النفس بطبيعتها تجنح إلى السوء، فتزل وتردىٰ.

وهذا التذلّل والخضوع لله تعالى واتّهام النفس بالضعف والتقصير، يتجلّى بوضوح في سيرة المعصومين، ونجده بارزاً في أدعية الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في «الصحيفة السجادية».

ونحن نورد هنا كلاماً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، يُلقي أضواءً ساطعة على ما نحن بصدده، وكأنّه تفسير وبيان لقول النبي يوسف. قال عليه السلام: «... فلا تكفُّوا عن مقالةٍ بحقّ، أو مشورةٍ بعدلٍ، فإنّي لستُ في نفسي بفوق أن أُخطئَ، ولا آمَنَ ذلك من فعلي، إلاّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به منّي [١]، فإنّما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربٍّ لا ربّ غيره، يملكُ منّا ما لا نملك من أنفسنا...» [٢].

---

١. أمعن النظر في قوله: فإنّي لست في نفسي... وقوله: إلاّ أن يكفي الله من نفسي....

٢. نهج البلاغة: ٣٣٥، الخطبة ٢١٦.

المرحلة الرابعة

١٢

انتخاب يوسف للوزارة

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ . (١)

***

لما ثبتت براءة يوسف أمام الناس جميعاً وتجلّت شخصيته بأبهىٰ حُلَلها ، رضيعليه‌السلام هذه المرة بالخروج من السجن ، والحضور بين يدي الملك ، الّذي أراد أن يستأثر به ويجعله من خاصته لينتفع بمواهبه **﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾** الملك وسأله عمّا يُهّمه ، ازداد إعجاباً بشخصيته وبما يتمتع به من سمات ومَلَكات ، وقال له لقد خصصتُك بمكانة رفيعة لديّ ، ومنحتك ثقتي المطلقة **﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾** .

---

١ . يوسف : ٥٤_٥٧ .

انتهز عليه السلام فرصة هـذا التكريم الّذي أولاه إيّاه الملك، والعـزم على إشراكه في إدارة شؤون البـلاد، انتهز ذلك ليَعرض عليـه رغبته في تـولّي خزائن[1] مصر وشؤونها الاقتصادية في هذا الوقت، لعلمه بما ينتظر البلاد من سنوات مُجدبة، تتطلب رسم خطط اقتصـاديـة محكمـة وتـدابيـر مُتقنـة في سنـوات الخصب والـرخاء، تتيح لـه تجـاوز المصـاعب والأزمات والشـدائد الّتي ستحـدث في السنوات الحالكة القادمة.

كمـا تتطلّب ـ سنـوات القحط ـ وضع إجراءات حـازمـة وموازين عـدل صـارمـة، تمنـع المحتكـرين والمستغلين والمحتـالين من الاستئثـار بأقـوات الناس، وهضم حقوقهم، والتلاعب بمصائرهم، وتحول دون وقوع مجاعة تهدّد حياة المستضعفين والفقراء والمحرومين.

لقد رأى عليه السلام الفرصة سانحة لتحقيق رسالـة الأنبياء في إقامة العدل و إزالة مظـاهر الظلم في أهمّ جـوانب الحيـاة، وذلك من خلال حفظ الأمـوال العامـة وتحقيق مصـالح المجتمع وتـوفيـر العيش الكـريم لـه. وهـو عليه السلام يمتلك مـن الصفـات والقابليـات ما يـؤهله للنهـوض بهذا العبء الفـادح، وقد أشـار إلى بعضها بقوله للملك: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

(ولـم يكن عليه السلام مزكّياً لنفسه وهو يقول: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ إنّما كان يذكر الصفتين الضروريتين لـلاضطلاع بـذلك الواجب الثقيل، صادقـاً فيما يقـوله، متحدثاً بنعمة الله عليه، وقد آتاه الله الحكم والعلم).[2]

باشـر النبي يوسـف مهامه، وأصبح لـه ـ بفضل الله تعـالى ـ نفـوذ واسع

---

١. الخزائن واحدها خِزانة، وهي ما تُخزن فيه غلّات الأرض ونحوها.

٢. في ظلال القرآن: ١٣/ ٩.

وسلطة ممتدة في البلاد ﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ويتصرّف فيها كما يريد، بعد أن عانى وحشة البئر وقيود السجن وضِيقَهما﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ﴾، وقد شاء أن يمنّ عليه بالرفعة وعلوّ المنزلة، ولا رادّ لمشيئته الجارية وفق السنن الّتي وضعها، ومنها مجازاة المحسنين في إيمانهم وسلوكهم ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه إيماء إلى أنّ هذا التمكين في الأرض، هو أجر دنيوي ليوسف، جوزي به لصبره وتحمّله للمصاعب والمتاعب في سبيل الله، وله مع ذلك أجر أُخروي. ﴿ولأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾، أي خير لأولياء الله المتحلّين بأمرين: الإيمان الكامل والتقوى كما قال سبحانه: ﴿أَلا إِنَّ أَولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ* لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.[١]

١٣

السبع المجدبة
و
إخوة يوسف في مصر

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

---

١. يونس: ٦٢ـ ٦٤.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ .

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .[1]

مرّت السنوات السبع المخصبة وأقبلت السبع المجدبة واشتد الجدب في مصر، وامتدّ إلى فلسطين أرض كنعان، فأصاب الكنعانيين من القحط ما أصاب غيرهم، وقد تناهت إلى يعقوب عليه السلام وأبنائه أخبار طيبة عن مصر وعن توفّر الطعام فيها. فتجهّز بنو يعقوب ـ باستثناء (بنيامين) شقيق يوسف ـ وساروا حتّى وردوا مصر: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ في مقرّه الّذي يُشرف فيه على عملية بيع الغلال وتوزيعها ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ ولم يعرفوه ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ لطول العهد به وتغيّر شكله وبُعد حاله الّتي رأوه عليها عن حاله حين فارقوه.

أكرم يوسف عليه السلام إخوته وأمر بإيفاء الكيل لهم، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وأوقر ركائبهم، واستعدّوا للرحيل ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾، وهنا يثار هذا السؤال: كيف عرف عليه السلام أنّ لهم أخاً من أبيهم؟

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: والّذي اقتضى طلبه الأخ من أبيهم أنّه فاوضهم وسألهم عن أخبارهم وأحوالهم، وأخبار أهلهم، كما يتساءل الناس عن مثل ذلك، ودلّ الكلام على ذلك، وهو من عجيب فصاحة القرآن.[2]

ثمّ رغبّهم عليه السلام بالعودة إليه، بقوله: ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُم أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي لا أبخس الناس شيئاً وأُتمّ لهم كيلهم ﴿وَأَنَا خَيْرُ

١. يوسف:٥٨ـ٦٢.

٢. التبيان في تفسير القرآن:٦/ ١٦١.

﴿الْمُنْزِلِينَ﴾ أي خير المُضِيفين.

ثمّ هددهم قائلاً: **﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾**.

أحسّ إخوة يوسف بأنّ ما يحملونه من الطعام لا يكفي عائلة مكونة من اثني عشر نفراً، ومن جانب آخر هدد العزيز بمنعهم من ابتياع الطعام إذا لم يأتوا بأخيهم فلذلك خاطبوا يوسف بقولهم: **﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾** أي نبذل قصارى جهدنا في الإتيان بالأخ، **﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾** أي عاملون بوعدنا.

وقبل أن يرحلوا، أمر يوسف خَدَمه بأن يدسّوا ما قدّمه إخوته من الأثمان لشراء الميرة، يدسّوها في أوعية أمتعتهم **﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾**، والهدف من ذلك هو تشجيعهم على العودة إليه مرة أُخرى، والظفر بإحسانه وكرمه[1] **﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**.

١٤

عودة الإخوة إلى وطنهم

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

---

١. ولا يبعد أن يكون من مقاصد يوسف في دسّ بضاعة إخوته في رحالهم أن يُطمئن أباه، ولا يثقل عليه إرسال أخيه له. التفسير الكاشف: ٤/ ٣٣٤.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ .

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ .

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ . [١]

***

عاد إخوة يوسف بما يحملون من أطعمة إلى وطنهم(فلسطين)، وسارعوا إلى رواية قصة رحلتهم إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، وأخبروه بقرار متولّي خزائن مصر برفض التعامل معهم والكيل لهم في المستقبل، ما لم يؤتوه بأخيهم من أبيهم، ثمّ طلبوا إليه أن يرسله معهم، متعهّدين بحفظه وحمايته ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

لم يطمئن الأب إلى قولهم، فله معهم تجربة قاسية نغّصت عليه حياته، ولذا واجههم بهذا الردّ: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد تعهدتُّم بحفظه، ولكنكم فرّطتم فيه، وادّعيتم أنّ الذئب أكله وأنتم عنه غافلون .

---

١. يوسف:٦٣ـ٦٨.

ثمّ توجّه بكلّ كيانه إلى الله تعالى، وقال: ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ وقد فوّضت إليه أمري في حفظ ولدي، وقطعت رجائي عمّن سواه.

ترك الأبناء أباهم والأحزان تستعر في قلبه، وتوجّهوا إلى رواحلهم، لإخراج ما في الأوعية من أطعمة، فلمّا فتحوها وجدوا فيها أيضاً بضاعتهم الّتي حملوها كثمن للشراء ﴿**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ**﴾ فانطلقوا إلى أبيهم مسرورين و ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي**﴾... وأي شيء نطلب بعد هذا، وقد أكرمنا متولّي الخزائن بإعطائنا الغلال مجاناً؟

ثمّ أخذوا يعدّدون مزايا الرحلة الّتي يعتزمون القيام بها إلى مصر، لإغراء أبيهم بالموافقة على إرسال أخيهم معهم: ﴿ **هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**﴾ وستنفعنا في المبادلة ﴿ **وَنَمِيرُ أَهْلَنَا**﴾ أي نأتيهم بالميرة (الطعام)، ﴿ **وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ**﴾ باستصحاب أخينا ﴿ **ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾... من السهل أن نحصل عليه في حال مرافقته لنا.

رضي يعقوب عليه السلام أخيراً بإرسال ابنه (بنيامين) معهم، ولكن بشرط أن يعطوه عهداً مؤكّداً بالأيمان أن يعيدوه إليه سالماً ﴿**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ**﴾.

ولما كان قدراتهم محدودة في هذا المجال، فقد يختطفهم القَدَر أو ينزل بهم ما لا حيلة لهم في ردّه، قال يعقوب مستثنياً: ﴿ **إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ**﴾.

استجاب الأبناء لمطلبه ﴿ **فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ .تذكيراً لهم بأنّ الله رقيب وشاهد على ما تعهدوا به، وكأنّه تأكيد للحلف.

لما استعدّ أبناء يعقوب للسفر ثانية إلى مصر، وهم أحد عشر رجلاً، أوصاهم أبوهم بالاحتراز عن دخول مصر مجتمعين من باب واحد وألزمهم

بالدخول متفرقين من أبواب مختلفة: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.

ويظهر أنّ المراد من الأبواب هو أبواب المدينة فقد كانت المدائن في العصور السابقة ذات أبواب.

وقد اختلفت كلمات المفسرين في الغرض من هذا الإيصاء، ويحتمل أن يكون النهي هو خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحرّاسها حيث إنّ أزياءهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، فربما يحسّ الحراس منهم خيفة فيُسجنون حتّى يتبين حالهم وما هو الهدف من سفرهم، فربما ينتهي ذلك إلى حرمانهم من شراء الطعام الّذي هو الغرض الأقصى من السفر.

وقيلت وجوه أُخرى، منها:

١. خاف يعقوب عليهم العين، لأنّهم كانوا ذوي جمال وهيبة وكمال، وهم أخوة أولاد رجل واحد.

٢. خاف عليهم حسد الناس إياهم وأن يبلغ الملك قوّتُهم وبطشُهم فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه.

إلى غير ذلك من الوجوه.[١]

ولعلّ ما ذكرناه نقلاً عن «التحرير والتنوير» أوضح.[٢]

وبما أنّ ظاهر الإيصاء أنّ العمل به لا يدفع عنهم الشر مطلقاً، استدرك يعقوب ذلك بقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾أي لا يكون ما أمرتكم به مُغنياً من الله سبحانه، وربما يصيبكم شيء من دون أن يدفعه ما أوصيتكم

١. مجمع البيان: ٣/ ٢٤٩.
٢. التحرير والتنوير: ١٢/ ٩٠.

به، لأنّ حكمه تعالى نافذ، ثمّ علل ذلك بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ﴾، فالكون وما فيه محكوم بحكمه وإرادته لا تُردّ، ولذلك يجب إيكال الأمر إلى الله سبحانه بعد الأخذ بالأسباب الظاهرة كما قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، والتوكل عبارة عن تسليط الأمر الّذي له نسبة إلى الموكِّل والوكيل والنسبة هنا هي الولاية المطلقة الإلهية الحاكمة على الكون وما فيه، ومنه الإنسان.

والمراد من الحكم في الآية إرادته الكونية النافذة في الكون وتدبيره من عالم الغيب إلى عالم الشهود بقرينة الأمر بإيكال الأمر إلى الله بخلاف الحكم الوارد في كلام يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[1]، فإنّ المراد بالحكم هذا هو الحكم التشريعي لا التكويني بقرينة ما رتبه عليه قوله: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾.

وصل الإخوة المدينة وعملوا بما أوصاهم أبوهم ودخلوها من أبواب متفرقة، ومع ذلك أصابهم ما كان يخاف منه يعقوب، وما تفرّسه من نزول مصيبة بهم تُفرّق جمعهم وتنقص عددهم، ولكن الوسيلة الّتي اتخذها لتلك الغاية (الدخول من أبواب متفرقة) لم تكن لتدفع عنهم البلاء، بل صار قضاء الله ماضياً فيهم، حيث فرّق شملهم لما سيأتي من أنّ العزيز أخذ أخاهم من أبيه بتهمة أنّ صواع الملك قد سُرِقَ ووجد في رحل أخيهم، فعاد الإخوة إلى أرض كنعان وبقي كبيرهم في مصر، حتّى تظهر الحال كما سيوافيك، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ

---

١. يوسف: ٤٠.

شَيْءٍ﴾ أي لم يكن مغنياً عن ردّ القضاء المقدر من الله سبحانه، ومع ذلك كلّه فالله سبحانه استثنى شيئاً وقال: ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وقد فُسّرت الحاجة بوجهين:

١. المراد بها اضطراب قلبه حيث ارتفع بالإيصاء.[١]

٢. حرصه على تنبيههم على الأخطار الّتي تعرض لأمثالهم في هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله.[٢]

يلاحظ عليه: أنّه لو كان المراد هو هذا فقد قضيت حاجته عندما استعد الأولاد للرحيل ولكن ظاهر الآية انّه قضيت حاجته بعد رحيلهم ودخولهم مصر.

ولعلّ المراد هو تهيئة السبب الّذي يتوصّل به يعقوب إلى لقاء ابنه يوسف، حيث إنّ الوصال كان حاجة يعقوب الّتي تدور في خلده ليلاً ونهاراً، فصار هذا التفريق سبباً لقضاء ذلك يقول العلاّمة السيد الطباطبائي: لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجة في نفس يعقوب عليه السلام، فإنّه جعل هذا السبب الّذي تخلف عن أمره وأدّى إلى تفرق جمعهم ونقص عددهم بعينه سبباً لوصول يعقوب إلى يوسف عليه السلام، فإنّ يوسف أخذ أخاه إليه ورجع سائر الإخوة إلاّ كبيرهم إلى أبيهم، ثمّ عادوا في المرحلة الثالثة إلى يوسف يسترحمونه ويتذللون لعزته فعرّفهم نفسه وألزمهم بإشخاص أباهم وأهله إلى مصر فتبدل الفراق بالوصال.[٣]

---

١. مجمع البيان:٣/ ٢٥٠.

٢. التحرير والتنوير:١٢/ ٤٩.

٣. تفسير الميزان:١٣/ ٢١٩.

١٥

الرحلة الثانية إلى مصر

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ .

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ .

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ .

﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ .

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ .

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرجاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ . [١]

***

---

١ . يوسف: ٦٩ـ٧٦.

نشاهد في هذه المحطة من الرحلة الثانية إلى مصر، التقاء الإخوة بيوسف للحصول على الميرة، وتوفّر الفرصة ليوسف للاختلاء بأخيه (بنيامين) وتقريبه منه، ومصارحته بأنّه هو أخوه، ثم تطييب نفسه بعدم الابتئاس والاغتمام بما صدر من إخوته من أذىً ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وأراد يوسف عليه السلام أن يحتفظ بأخيه، فألهمه الله تعالى من أجل تحقيق بغيته تدبيراً محكماً، ستتوضح معالمه بعد قليل.

أمر يوسف بعض فتيانه بدسّ الوعاء الّذي يُسقىٰ به، والمستعمل عندهم للكيل، أمر بدسّه في الرحل المختص بأخيه (بنيامين) عند تجهيزهم بالطعام ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

ولما أراد أبناء يعقوب الانصراف، نادى المنادي في القافلة: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

صُعق أبناء يعقوب لهذا الخبر الّذي يُسيء إلى سمعتهم(وهم من أهل بيت رفيع الشأن)، ويُغلق عليهم باب الحصول على الطعام في هذه الأوقات العصيبة، ولذا سارعوا إلى فتيان يوسف للتساؤل عن حقيقة الأمر ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ فأجابهم الفتيان: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ[1] الْمَلِكِ﴾، وأضافوا: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[2]﴾، وهذا يُشعر بأنّ فتيان يوسف كانوا خائفين من عدم العثور على الصواع ولذلك عيّنوا جائزة، وهي أنّ من جاء به سيُعطىٰ حمل بعير من الطعام بالإضافة لما يستحقه.

---

١. الصواع: مكيال الطعام.

٢. الزعيم: الكفيل والضمين.

وهنا يُطرح هذا السؤال: كيف جاز ليوسف أن ينسب السرقة لإخوته، مع علمه ببراءتهم؟

قد أُجيب عن ذلك بوجوه، أحسنها هذان الوجهان:

الأوّل: إنّ الشخص الّذي ستثبت عليه تهمة السرقة وفق الخطة المرسومة هـو شقيق يوسف (بنيـامين)، وقد أطلعـه يوسف على خطتـه، فوافق عليهـا، ورضي بأن يقوم بهذا الدور، كما يُفهم ذلك من السياق، إذ لم يُبدِ أي ردود فعل إزاء كلّ ما جرى له.

الثاني: إنّ الاتهام بالسرقة صدر من بعض أعوان يوسف ولم يأمره يوسف بذلـك، أي أنّ الموكَّل (أو المـوكّلون) بالصـواع لم يعلم بما أمـر به يـوسـف من جعله في رحـالهم، فلمّا فقده، صار ذلـك سبباً لتوجيه الاتّهـام إليهم. وربما يشير إليه قوله: ﴿**وَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ**﴾ دون أن يقـول «واذّن» الجاعل صـواع الملك في رحل أخيه، وهذا يشعر بتغايرهما.

وعلى كلّ تقديـر، انتاب الإخوة اضطراب شـديد لمّا سمعوا نـداء الاتهام بالسرقة، وبادروا إلى تبرئة سـاحتهم بهذا الكلام المعزّز باليمين ﴿**قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَـا جِئْنَـا لِنُفْسِدَ فِـي الأَرْضِ وَمَا كُنَّـا سَـارِقِينَ**﴾، فقـد رأيتم من صحـة معاملتنـا وشدة توقّينـا لما لا يجوز لنـا، ما ينبئ عن مقاصـدنا،[1] ونزاهتنا عن الفساد، فقال فتيان يوسـف: ﴿**فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ**﴾، فأجاب أبناء يعقوب بأنّ جزاء من وجد الوعاء في رحله هو استـرقاقه تبعاً، حيث نجزي السارق بهذا الأُسلوب في بلدنا كمـا يحكيه سبحانه: ﴿**قَالُـوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِـهِ فَهُوَ**

١. انظر: التبيان:٦/ ١٧٢.

جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

اتفق فتيان يوسف وأبناء يعقوب على أنّ من وُجد الصواع في رحله يسترقّ ويُستعبَد وهو قريب من استرقاق المغلوب في ساحة القتال .

فبدأ بعض فتيان يوسف بفتح أوعية الإخوة وتفتيشها قبل وعاء أخي يوسف لإبعاد فكـرة المؤامـرة عن أذهانهم ، وهذا يـدلّ على أنّه كـان يعمل وفق الخطة الّتي رسمها يـوسفعليه السلام. قال تعـالى : ﴿فَبَـدَأَ بِـأَوْعِيَتِهِمْ قَبْـلَ وِعَـاءِ أَخِيـهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ .

وعند ذلك استقر الجزاء عليه باسترقاقه ، لكون الصواع في رحله .

ثمّ إنّه تبارك وتعالى يشيـر إلى أنّ هذا التخطيط الدقيق ليوسفعليه السلام كان بإلهام من الله سبحـانه ، ليتـوصل به إلى أخـذ أخيه : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وليس كلّ كيد منتفيـاً عنه سبحانـه وإنّما ينفى الكيـد المبني على الظلم ، ولولا هذا الكيد لم يتـوصل يوسف إلى ما يطلبـه من أخـذ أخيـه ، حيث إنّ السارق في القانون السائد عند ملك مصر لا يُعـاقب بالاسترقاق ، بل بعقـوبة أُخـرى ، وهذا هو المراد بقـوله سبحانه : ﴿مَـا كَـانَ لِيَـأْخُـذَ أَخَـاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ ، ويُقصد بـالمشيئة هـو هذا التدبيـر الّذي أُتيح لـه فيه أخـذ أخيه ، وهكـذا يـرفع الله من يشاء بـالعلم ، كمـا رفع يـوسف : ﴿ نَـرْفَعُ دَرَجَـاتٍ مَـنْ نَشَـاءُ﴾ حتّى ينتهي إلى الله تعالى الغني بنفسه عن التعليم﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .

١٦

التنصّل من فعل أخيهم

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ .

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ .[١]

فوجئ أبناء يعقوب بالصواع وهو يُستخرج من رحل أخيهم، مع أنّهم أكّدوا براءة ساحتهم من السرقة، وعندئذٍ اعتراهم الاضطراب والارتباك، وأخذوا يتشبثون بالبهتان كما يتشبث الغريق بالحشيش و ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ، وهكذا يعبّر الحقد الكامن في نفوسهم تجاهَ يوسف وأخيه، يعبّر عن نفسه باختلاق هذه التهمة الباطلة في حق يوسف وكأنّهم أرادوا بقولهم : ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أنفسهم، لا المتهم بالسرقة ولا أخاه لأنّهما كانا أخوين لهم من جهة الأب فقط، وكأنّهم لم يحسبونهما أخوين لهم .

أورت مقالتُهم هذه ألماً ممضّاً في قلب يوسف عليه السلام، ولكنّه تحمّلها ولم

---

١. يوسف:٧٧ـ٧٩.

يؤاخذهم بها كعادته، واعتصم بحلمه وكرمه، وقال في نفسه[1]: أنتم أسوأ حالاً (أو منزلة) لصدور القبائح منكم، والله أعلم بحقيقة ما تقولون: ﴿ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾.

لم يجد الإخوة الذين أخذ أبوهم منهم العهد المؤكد بالإتيان بأخيهم إليه سالماً، لم يجدوا وسيلة للتخلص من هذه الورطة الّتي وقعوا فيها سوى استعطاف العزيز وتهييج عواطفه ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَاً شَيْخاً كَبِيراً**﴾ وكلّ هذه الصفات تقتضي الرقّة والعطف: حنان الأب وشغفه بابنه، وضعف الشيخوخة، وكبر السنّ. استعطفوه بهذه الكلمات مقدِّمين بين يديه هذا العرض ﴿**فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ**﴾. أن يُطلق أخاهم (بنيامين)، ويأخذ بدله واحداً منهم، ويختاره من بينهم، وهم عشرة رجال، ثمّ علّلوا ذلك بقولهم: ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فمثلك يرحم الأب الطاعن في السن الّذي له رغبة في هذا الولد.

اعتذر يوسف عن قبول طلبهم، و﴿**قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذا لَظَالِمُونَ**﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ غيره مكانه، لأنّ أخذَ من وجد المتاع عنده أخذ على نظام العدل؛ وأمّا أخذ غيره مكانه فهو عدول عن الحقّ، فلو فعلنا ذلك لأصبحنا من الظالمين.

---

١. لا في لسانه، ولكن يبدو من بعض التفاسير أنّ يوسف عليه السلام جابَهَ إخوته بقوله: ﴿**أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾ وهو بعيد، لقوله تعالى﴿**وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**﴾، ولأنّه عليه السلام ضرب المثل الأعلى في الحلم والصفح والتجاوز عن الإساءة، ويتّضح ذلك بجلاء في موقفه الكريم منهم يوم اعترفوا أمامه بخطيئتهم بعد أن كشف لهم عن هُويّته، إذ قال لهم: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾.

١٧

العودة الخائبة

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ .

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ .

﴿قَالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْني إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاٰ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَتَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ . [١]

---

١ . يوسف: ٨٠ـ ٨٧.

شعر أبناء يعقوب بالخيبة وغمرهم اليأس بعد فشل مساعيهم في إقناع العزيز بأخذ أحدهم بدل «بنيامين»، فانتحَوا جانباً، وعقدوا اجتماعاً خاصاً بهم بعيداً عن أعين الناس للتشاور بصورة سرية في كيفية التعامل مع هذه المشكلة المستعصية ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً**﴾.

انتهى الاجتماع بتسجيل وإقرار رأي أخيهم الكبير الّذي ذكّرهم بأمرين: العهد المأخوذ عليهم من أبيهم بشأن بنيامين، وتقصيرهم في شأن يوسف فيما مضى من الزمان، إشارة منه إلى إلقائهم إياه في البئر ﴿**قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ**﴾.

وانطلاقاً من شعوره بالحرج الشديد أمام أبيه، عزم كبيرهم على البقاء بمصر وعدم مغادرتها، إلاّ أن يأذن له أبوه بالرجوع، أو يجعل الله له من أمره فَرَجاً﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾.

ثم طلب من إخوته أن يعودوا إلى وطنهم، ويخبروا أباهم بحقيقة ما جرى لهم في حضرة العزيز ﴿ **ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاّ بِمَا عَلِمْنَا**﴾ فقد رأينا بأُم أعيننا أنّ صواع الملك كان في رحل ابنك، وكان هذا هو مصدر علمنا، ونحن وإن أعطيناك المواثيق بإرجاعه إليك إلاّ أنّنا لم نكن عالمين بالغيب وأنّه سيسرق: ﴿ **وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾.

ثمّ أضاف وقال: لو شكّ الوالد وصار متردداً في القضية فعليه أن يستخبر الواقعة من أحد طريقين:

١ . أن يسأل أهل مصر، بأن يرسل إليهم أحداً، أو يكاتبهم لتحقيق الحال، حيث شاعت سرقته في مصر: ﴿**وَأْسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**﴾.

٢ . أن يسأل أصحاب القافلة القادمين معنا من مصر إلى أرض كنعان، فقد رأوا ما رأينا ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ .

رجع سائر الإخوة إلى بلدهم، وأخبروا أباهم بما حدث، فتألّم كثيراً وخاطبهم بنفس العبارة الّتي خاطبهم بها ليلة زعموا أنّ يوسف قد أكله الذئب ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لكنّه أضاف هنا: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ . .انه الإيمان الّذي يملأ القلب، ويمدّه بأمل اللقاء بأبنائه الثلاثة. . حتّى يوسف الّذي غُيِّب عنه منذ أمد بعيد!!، الإيمان بالله وعلمه وحكمته في تدبير كلّ شيء﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

آثر يعقوب عليه السلام الإعراض عن أبنائه، والاختلاء بنفسه، إذ لم يجد فيهم من يعزّيه ويواسيه في نوائبه ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾. . عجيب أمر هذا الصبيّ الّذي ترك في قلب والده كلَّ هذه الذكريات الّتي لا يمحوها كرّ الأيام والسنين، وكلَّ هذه اللوعات الّتي لا يخفِّف من وطأتها سائر المصائب والأحزان.

وظلّ الحزن يستعر في صدر يعقوب حتّى أثّر ذلك في بصره ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ وذهب بصرهُ ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . . يطوي حزنه عن الناس، ويكظم غيظه.

ولم يزل اسم يوسف يتردّد على شفتيه ويلهج به لسانه إلى أن تبرَّم وضجر[1] منه أبناؤه و ﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ

---

١. قيل: إنّما قالوا له ذلك إشفاقاً عليه وتعطّفاً ورحمةً له. وما ذكرناه أقرب إلى نفوس الأبناء المليئة بالحقد على يوسف، فهذا القول يذكّرهم به وبجريمتهم في حقّه، ويؤيده أيضاً ردّ أبيهم عليهم في الآية اللاحقة ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾.

﴿الْهَالِكِينَ﴾ . . أي حتّى تمرض ويُذوى جسمُك أو تموت غمّاً.

وجاء ردّ أبيهم عليهم منسجماً مع إيمانه العميق وبصيرته النافذة ﴿قَالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي[١] وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ الّذي لا يُبرمه إلحاح الملحّين، ولا يَخيب في حضرته الراجون﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ . وقد ألهمني أنّ هذا الغمّ زائل، والأمل بلقاء الحبيب حاصل.

ثمّ حداه هذا الأمل والرجاء إلى القول: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَتَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ . فالمؤمن لا ينطفئ أمله مهما عصفت به ريح الشدائد، وامتدّ ظلام المآسي . . ويظل يرنو إلى عين الله الرحيمة وينتظر سحائب الرأفة ولو جفاه الدهر وقسىٰ عليه القَدرَ.

١٨

الرحلة الثالثة إلى مصر

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّها الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ .

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

---

١. البثّ: الهمّ الّذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثّه، أي يفرّقه، وكلّ شيء فرّقته فقد بثثته.

﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ .

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ﴾ .

﴿اِذْهَبُوا بِقَميصِي هَـذا فَأَلْقُـوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَـأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِـي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . [١]

***

توجّه أبناء يعقوب للمرة الثـالثة إلى مصر، بقصد الحصول على الطعام، ولتقصّي أخبار يوسف وأخيه، كما أوصاهم أبـوهم بذلك ـ و إن كانوا آيسين من التقاط أخبـار عن يوسف بعـد هذا الغياب الطـويل ـ فلمّـا دخلوا على العـزيز شكوا إليه ما نابهم وناب أهلهم من شدة صمّاء، وفاقة مُجهدة، راجين إحسانه ونوالـه، لأنّ ما يحملونه من بضـاعة، لا يساوي ـــ لقلّته أو رداءته ـ ثمنـاً لشراء الطعام ﴿قَالُـوا يَا أَيُّها الْعَـزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّـرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَـةٍ مُزْجَاةٍ فَـأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقينَ﴾ . [٢]

أمام هذا المشهـد المؤلم للإخوة، وكلمات الاستعطـاف الّتي أطلقوها، رأى يوسفعليه السلام أنّ الـوقت قـد حـان للكشف عن وجـه الحقيقـة، والتعـريف بنفسه، واستلهام نتائج الدروس من الوقـائع والأحداث، وتبيان عواقب الأُمور: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُـمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بهذه الكلمة القصيـرة والعابرة ودون الخـوض في تفاصيل مـا ارتكبوا من أعمـال ذميمة، فتح يـوسفعليه السلام صندوق الأسـرار، وهذا إن دلّ على شيء فإنّمـا يـدلّ على سموّ أخـلاقـه وسعة صـدره

١. يوسف:٨٨ـ٩٣.

٢. قولهم ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا﴾ أي تفضّل علينا بالمسامحة والإغماض عن البضاعة المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها. وقيل: معناه: تصدّق علينا بردّ أخينا(بنيامين) وتخلية سبيله.

وأريحيته، والألطف من ذلك انّه التمس لهم العذر بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فالسبب هو جهلكم آنذاك، مشعراً بذهاب الجهل عنهم الآن.

أثارت كلمته القصيرة هذه، انتباه الإخوة وذكرياتهم، فقالوا في صيغة الاستفهام التقريري: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾[١]، فأجابهم بقوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ فعرّف نفسه وأخاه، مع أنّهم لم يسألوه عنه، تفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾، ثمّ أشار إلى وجه المنّ، وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهذا هو الدرس الكبير الّذي أراد يوسف عليه السلام أن يستلهمه البشر، كلّ البشر، ومنهم إخوته:

أن يتق الإنسان ربّه تعالى، ويستشعر رقابته في كلّ ما يصدر عنه.. أن يخشاه حق خشيته، فيبادر إلى طاعته، ويتجافىٰ عن معصيته.. أن يتبع صراطه المستقيم، ويصدّ عن جميع السبل الّتي تفرّق به عن سبيله.

وأن يصبر: يصبر على المحن والشدائد والمواقف الصعبة، فلا يضعف أمامها ولا ينهار، بل يواجهها بعزم وإصرار، ويصبر على طاعة الله، فلا يزيغ ولا ينحرف ولا يملّ ولا يسأم، وعلى نِعَم الله، فلا يبطر أو يتجبر ويطغىٰ، ويصبر عن المعاصي، فلا يُقدم على المنكرات والموبقات، ولا يسترسل مع الأهواء والشهوات.

ومن جَمعَ هاتين الخصلتين الساميتين، (التقوىٰ والصبر) فهو من المحسنين الذين لا يضيّع الله تعالى أجرهم وثوابهم.

---

١. حيث أكدوا كلامهم هنا بـ(إن) و (اللام) و (الضمير الفصل).

جدير بالذكر انّ كلام يوسف هذا وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ انّما هو مصداق واضح لامتثال أمره سبحانه حيث قال : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].
ولا يصحّ عَدُّ هذا الكلام من مصاديق إعجاب المرء بنفسه ، الّذي هو بعيد كلّ البعد عن شخصية يوسف الإيمانية .

ومن هنا جاء اعتراف الإخوة و إذعانهم بمنزلة يوسف وعلوّ درجته عند الله : ﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا﴾ بالعلم والحلم والصبر و التقوى وبالملك والقدرة﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي آثمين فيما فعلنا .

وهنا في موقع الحاكم الغالب القادر، أبان يوسف عليه السلام عن جوهره كما أبان عنه، وهو في موقع المحكوم المغلوب المقهور... ذلك الجوهر الّذي صنعته الرسالة، وطهره الإيمان والتقوى، وصقلته المصاعب والتجارب ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ . لا لوم عليكم ولا توبيخ ولا تقريع فيما فعلتم .

ثمّ قال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

أمر يوسف إخوته أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه وذلك لغايتين:

الأُولى:أن يكون إرسال القميص علامة لأبيه على صدق كلام إخوته أنّهم جاءوا من عند يوسف وانّه حيّ وله شأن ومنزلة.

الثانية:انّ الإخوة جاءوا ـ من قبل ـ بقميص يوسف ملطخاً بالدم وصار ذلك سبباً لحزنه وبكائه إلى أن انطفأ نور عينيه، فأرسل اليوم قميصه معهم ليصير سبباً لسروره وعودته بصيراً، كما قال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي

١ . الضحى:١١ .

يَأْتِ بَصِيراً﴾ ، وهذا أيضاً أحد الألطاف الإلهية على يوسف بعد ما وصل إلى هذا المقام حيث إنّ الله قد جعل لوقوع قميصه على وجه الأب سبباً لإبصاره، ولا مانع من أن يكون وقوع القميص سبباً لعودة البصر، ومن المعلوم أنّ المؤثر هو إرادة يوسف غبّ إرادة الله سبحانه حيث تعلقت مشيئته على إجراء فيضه عن طريق الأسباب، والسبب منه طبيعي وعادي ومنه غيبي وغير عادي.

ثمّ إنّ يوسف أمرهم بإتيان أهلهم من البدو إلى مصر، وقد قيل: إنّ عشيرة يعقوب كانت ستاً وسبعين نفساً بين رجال ونساء.

١٩

القميص...وسرَيان النور في عينَيْ يعقوب عليه السلام

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.[١]

***

اتّجهت القافلة الّتي تضمّ أولاد يعقوب ومعهم قميص يوسف إلى أرض كنعان، وما أن تجاوزت أرض مصر، حتّى أحسّ الأب المفجوع بفراق ولده منذ أمد

---

١. يوسف: ٩٤ـ٩٨.

طويل، أحسّ بشيء عجيب يغمر كيانـه، فقال لِمَن حولـه من أهله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ولمّا كان يعلم أنّهم لا يستسيغون كلامه هذا، استدرك بقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ وتتهموني بالسفاهة وضعف الرأي.

وقد تحقّق ما تنبّأ به يعقوب عليه السلام من ردّهم عليه، إذ خاطبـوه بجفاء قائلين: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ حيث لازلتَ تنتظر يوسـف وتترقّب عودتـه وتتلهّف إلى لقائه بسبب إفراطك في حبّه، ومـا هذا إلّا تحليق في الخيال، وانطلاق مع الأوهام.

لم يستطع هذا الردّ العنيف أن يَخنق روحَ التفـاؤل لدى هذا الأب العارف الصابر، أو يُذوي أمل اللقاء بحبيبه، فلم تمرّ إلّا أيام قصيرة حتّى أدرك الجميع صدق ما ينبض به قلبُ هذا النبيّ المفعم بـالإيمان من مشاعر وأحاسيس، فقد وصلت القافلة، وأتى من يحمل القميص، فطرحه على وجه يعقوب، فعاد إليه بصرهُ بإذن الله تعـالى ﴿فَلَـمَّا أَنْ جَـاءَ الْبَشِيـرُ أَلْقَـاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَـارْتَدَّ بَصِيراً﴾ وهنا التفت إليهم يعقـوب، ليذكّرهم مـرة أُخرى بسرّ هـذه الثقة بانفـراج الهموم وزوال الشدائد، وتحقّـق الآمال ﴿قَـالَ أَلَـمْ أَقُلْ لَكُـمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَـا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وكان قد قـال ذلك أيضاً عندما كـان الأبناء يلومونـه في بكائه على يوسف فأجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَـمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا من وجوه الغيب الّتي علّمها الله سبحانه نبيه يعقوب.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فمن أخذ بـالتقوى عَزبَتْ عند الشـدائد بعد دُنُوّهـا، واحْلَوْلَت لـه الأُمور بعد مـرارتها، وانفرجتْ عنه الأمـواجُ بعد تـراكُمها، وأسْهَلَتْ له الصِّعابُ بعد إنصابها، وهَطَلَتْ عليه الكرامةُ بعد قُحوطها، وتحدّبت

عليه الـرحمةُ بعد نفورها، وتفجّـرتْ عليه النِّعمُ بعد نُضوبها، ووبَلَتْ عليـه البركة بعد إرذاذها».[١]

أحسّ الإخوة بـالخجل أمام الأب الّـذي صار بصيراً ينظر إلى وجـوه أبنائه الذين خانوه كما خانوا أخاهم، فعنـد ذلك اغتنم الأبناء الفرصة، فقالوا: **﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾**.

ولكن الأب لم يستغفر لهم فوراً، بل وعـدهم بذلك و: **﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**، فما هو الوجه في التأخير؟

يحتمل أنّه أخّر ذلك إلى وقت يستجاب فيه الدعاء، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، كما يحتمل انّه أخّره لتطيب نفسه كلّ الطيب بنسيان جميع آثار الفراق بعد أن يلتقي بابنه يوسف.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ للإنسان الخاطئ أن يتوسّل بدعاء أخيه أو بدعاء من هو أفضل منه كالأنبياء والأولياء فيطلب منـه الدعاء، حيث نرى أنّ أبناء يعقوب توسّلوا بدعـاء أبيهم. وقد أمر سبحانه المسلمين أن يتوسّلـوا بدعاء النبي ويطلبوا منه الاستغفار لهم، قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾**.[٢]

---

١. نهج البلاغة:٣١٣(الخطبة١٩٨). عزبت: غـابت وبَعُدت. الإنصـاب: الإتعاب. تحدّب عليـه: عطف. وبَلَت السماء: أمطرت مطراً شديداً. أرذّت: مطرت مطراً ضعيفاً.

٢. النساء:٦٤.

٢٠

استقرار آل يعقوب في مصر

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.[١]

***

قد تقدّم أنّ يوسف طلب من إخوته أن يهاجروا إليه وقال:﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فلمّا بلغ هذا الخبر يعقوب وأُسرته، استعد الجميع للرحيل إلى مصر ولكن القرآن طوى ذكر سفرهم من كنعان إلى مصر، لعدم وجود عبرة فيه، فلذلك

---

١. يوسف:٩٩ـ١٠٢.

بدأ بذكر دخولهم مصر وقال:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي ضمّهما إليه وأنزلهما لديه، وظاهر الآية كون الأُمّ أيضاً مع يعقوب، وقال أكثر المفسرين عنىٰ بأبويه أباه وخالته، فسميت الخالة أُمّاً كما سمّي العم أباً في قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وٰاحِداً﴾.[١]

وقد ماتت أُمّ يوسف في نفاسها ببنيامين فتزوج أبوه بأُختها.[٢] وما ذكر خبر واحد لا يصلح لتفسير القرآن الكريم. وظاهر الآية انّهما كانا أبويه الحقيقيّين.

ولمّا دخلوا حيّاهم يوسف بقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾. ولعلّه حياهم بذلك عند استقباله إياهم خارج مصر، ويحتمل أن يكون ذلك دعاءً منه بعد دخولهم مصر وأُريد به الاستقرار والاستيطان فيها بأمان واطمئنان، حيث استقر يعقوب وأولاده في مصر وكانوا ـ كما قيل ـ ثلاثاً وسبعين نفساً وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً.[٣]

ثمّ حضر أبوا يوسف وإخوته عنده، فأجلس أبوَيْه على سرير المُلك الّذي كان يجلس عليه، تعظيماً لهما ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ . بمعنى انحطوا (أبَوا يوسف وإخوته) على وجوههم ووضعوها على الأرض، وربما يُفسَّر السجود بمجرد الانحناء، وهو لا يناسب قوله ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ إذ هو من قولهم: خرّ الماء أو الريح أي سمع صوته فهو خرّار، ويستعمل في السجود كما في قولهم: خرّ يخر خروراً سقط من علو إلى أسفل وما هذا إلاّ لأنّ السقوط من العلو

---

١. البقرة:١٣٣.

٢. مجمع البيان:٣/ ٢٦٤.

٣. مجمع البيان:٢/ ٢٦٤.

إلى الأسفل يشتمل على الصوت. والضمير في قوله: «له» يرجع إلى يوسف الّذي دلّ عليه ضمير الرفع في قوله: رفع.

فلمّا رأى يوسف عليه السلام سجودهم بين يديه، التفت إلى والده ﴿**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً**﴾ فالشمس والقمر هم والداه، والأحد عشر كوكباً هم إخوته، وهكذا أصبحت الرؤيا حقيقة واقعة.

في هذا المقام الّذي يبعث الإنسان على الزهو والغرور، وفي هذه اللحظات الّتي يشعر فيها المُعتدىٰ عليه بالرغبة في الثأر والانتقام، راح يوسف عليه السلام يستذكر ما أعطاه ربّه من مواهب هنيئة وما أفاضه عليه من نِعَمٍ سابغة، ومنها التحرر من السجن، ومجيء أهله من البادية إلى المدينة، وانتقالهم من معيشة الرعاة وحياة الفقر إلى الحياة الطيبة الناعمة، قال عليه السلام وهو يحدّث ببعض آلاء الله تعالى عليه ﴿**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ**﴾ و«البدو» عكس «الحضر»، وسمّي بدواً لأنّ سكانه بادون أي ظاهرون لكلّ وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

وقد تجنّب عليه السلام ذكر ما يؤذي مشاعر إخوته الذين بالغوا في إيذائه، ونسبَ ما دبّ بينه وبين إخوته من شرّ إلى الشيطان ﴿**مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**﴾، أي بعدما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي.

ثم أسند كلّ تلك النعم إلى ربّه اللطيف وقال: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

أي لطيف في تدبير عباده يدبّر أمرهم على ما يشاء ويُسهل لهم العسير وبلطفه حصلت هذه النعم علينا.

ولمّا فرغ من ذكر النعم الإلهية عليه، أخذ بمناجاة ربه ذاكراً أعظم نعم الدنيا

والآخرة عليه ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهذه النعم الأربع الّتي ذكرها، اثنتان منها دنيويتان واثنتان أُخرويتان... وإليك البيان:

أ. ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾، الظاهر هو ملك مصر.

ب. ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، أي تأويل الرؤيا.

هاتان النعمتان من نعم الله سبحانه الدنيوية الّتي أنعمها عليه في الدنيا وقوله:﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كأنّه دعا لله يعني يا فاطر السماوات والأرض، أي خالقهما على غير مثال سابق لهما.

ج. ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وهي جملة خبرية بمعنى الإنشاء، أي كن وليّي في الدنيا والآخرة. وهذه نعمة أُخروية وهي الأُولى الّتي طلبها يوسف.

د. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهذه نعمة أُخروية وهي نعمة الدين الحق...﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إذ انّه من لوازم الوفاة على الدين الحقّ حيث يكون محشوراً مع الأنبياء والأولياء.

إلى هنا تم ذكر قصة يوسف وحياته وما جرى عليه من المحن والبلايا، كما تم بيان جزاء الله له على تقواه وصبره على المصائب والطاعات وتصبّره عن المعاصي، وقد ذكر سبحانه انّ هذه القصة ممّا أوحى الله سبحانه إلى نبيّه، وهي من أخبار الغيب ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

والغيب ما غاب عن الناس... وكانت القصة من أنباء الغيب، وقد أوحاها الله إلى رسوله الكريم ﷺ ليخبر بها قومه وتكون دليلاً على نبوته ومعجزة

مشيرةً إلى صدقه.

والدليل على أنّها من أنبـاء الغيب ومن وحي السماء، هو أنّ النبي ﷺ لم يكن مع الإخوة حتّى يقـف على مكرهم وحيلتهم ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي لدى الإخوة ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي عزموا عليه بكلمة واحدة﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ .

تنويه:

لقد درجنا فيما سبق على كتـابة خلاصة لكلّ قصة، قمنا بـدراستها في هذا الكتاب، وبما أنّ قصـة يوسف عليه السلام قد عُـرضت كلّهـا في سورة واحـدة، وجاءت أحداثها متسلسلة، فقد استغنينا بذلك عن كتابة خلاصة لها. ومع ذلك فمن أراد قراءة خلاصتها، فليرجع إلى تفسير الميزان[1] فقد لخّصها الأُستاذ ـ قدّس الله سرّه ـ.

٢١

الدروس و العِبَر

١ . إنّ المتحمّل لمسؤوليـة الدعوة إلى الحقّ والخير يقوم بهذه المسـؤولية بكلّ كيانه، ويغتنم كلّ الفرص لأدائها، فلا يقعد به غمٌّ أو ضيق وشدة عن القيام بها، كما لا تلهيه عنها شؤونه الدنيوية.

فالصدّيق يوسف عليه السلام نهض بمهماته الرسالية وأعبـاء الدعوة إلى الله وهو في السجن، ونهض بها وهو يُمسك بزمام الأُمور ويعتلي عرش المُلك.

وكان عليه السلام مبلّغاً نـاطقاً بالكلمـة الطيبة الصادقـة المؤثرة المعزّزة بـالبرهان،

١ . الميزان: ١١، ص ٢٨١ـ ٢٨٧.

وكـان داعية صـامتاً بسيرتـه وسلوكـه في زمنٍ سـادت فيه القيم الماديـة الزائفـة، وانحسرت فيه معاني الشرف والفضيلة والكرامة.

ونحن ــ في هـذا العصر ــ أحـوج ما نكـون إلى أن نحمل هموم الـرسـالـة الإسـلامية الخالـدة الّتي تتعـرض لهجمات شرسة ومخطّطـات صهيـونية وصليبيـة حاقدة تستهدف النيـل منها ومن قادتها وأتباعها، وأن لا ندّخـر جهداً في الدعوة إليها بالحكمة وبالتجسيد الحيّ لها في سيرتنا.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كونـوا دعاة للنـاس بغير ألسنتكم، ليرَوا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية».[1]

٢. إنّ المؤمن بعقيدتـه، الوثيق الصلة بـربّه، يظل ملتـزماً بمواقفـه ومبادئه وقيمه الإلهية في كـلّ الظروف والأوضاع: في الشدة والـرخاء، والعسر واليسر، وعند إدبار الدنيا عنه أو إقبالها عليه.

وكان يوسف عليه السلام مَثَلاً أعلى لهذا الالتزام الواعي، فلم تصرعه شهوة أو يذلّه طمع، ولم يطغيه غنىً أو جاه وقوة، ولم تزلزله نكبة أو تُبطره نعمة.

وقـد تقلّبت بـه الأحـوال، فلم تختلف حـالاتـه في أيّ منهـا، قـال الإمـام علي عليه السلام: «في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال».[2]

٣. إنّ صـاحب الأهـداف الإلهيـة وإن كـان يبـدي الكثير من المرونـة في التعامل الاجتماعي، ويتغاضى عن الكثير من الممارسـات الخاطئة في حقّه، ويحلم ويكظم غيظـه في الموارد الّتـي يُسـاء فيهـا إليـه، إلاّ أنّ ذلـك لا يمنعـه من اتّخاذ مواقف حازمة وممارسات صارمة من أجل إنجاز الأهداف الّتي تفرضها المصلحة

---

١. أُصول الكافي: ٢/ ٧٨، باب الورع، الحديث ١٤.

٢. نهج البلاغة: ٥٠٧، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم ٢١٧.

الرسالية والقيم الإيمانية، وعدم إبداء أيّ نوع من التساهل أو التراجع تحت ضغط العاطفة والإحساس الرهيف أو سائر الضغوط.

والصِّدّيق يوسف عليه السلام قد تعرّض لمحن قاسية بسبب مواقف إخوته تجاهه، فعفا عنهم وصفح ولم يعنّفهم أو يوبّخهم، بل دعا لهم بـالمغفرة والرحمة، ولكنّه في الوقت نفسه أصرّ ـ قبل أن يكشف هويّته لهم ـ على تلقينهم دروساً صعبة، تطلّبتها مسؤوليته الرسالية لا رغباته النفسية الّتي قد تدعو إلى الثأر والانتقام، ومن هنا لم يخضع لعواطفه تجاه أبيه، ولم يستجب لتوسّلات إخوته وضراعتهم بين يديه بشأن إطلاق أخيهم بنيامين، قبل أن تتحقّق الأهداف الّتي كان يتوخّاها.

٤. قد يتصوّر الإنسان أنّه يمتلك من الإرادة والعزيمة ما يجعله قادراً على تجنّب ممارسة بعض الأعمال غير اللائقة، فيقوم بتعيير مَن يمارسها، ويصفهم بكلّ قبيح، ولكنّه عندما يقع في بوتقة الاختبار يفشل ويسقط، إذ يرتكب نفس تلك الأعمال، ويلقىٰ المصير الّذي لقيه من عابَهم وأزرى عليهم فيها.

وفي هذه القصة نجد أنّ نسوة مصر كنّ يَلُمْن امرأة العزيز في مراودة فتاها ويندّدن بعملها، ويصفنَها بأنّها في ضلال مبين، ولكنّهنّ لمّا واجهن ما واجهت تلك المرأة، وقعن في المصيدة ذاتها الّتي وقعت فيها، فقطّعن أيديهن بمجرد رؤيته، وطارت عقولهنّ لجماله.

ومن هنا ينبغي التريّث وعدم التسرّع في نقد الآخرين والطعن عليهم قبل التأكّد من امتلاك إرادة قوة وعزيمة ماضية، تحصّن الفرد من الانزلاق بتلك المداحض، فـ(أكبر العيب أن تعيب مافيك مثله)[1] كما يقول الإمام علي عليه السلام.

٥. انّ الله تبارك وتعالى إذا شاء ـ لحكمةٍ ما ـ أن يرفع إنساناً ويُعلي مكانته

---

١. نهج البلاغة: ٤/ ٨٢ برقم ٣٥٣.

ويعطيه القدرة والعظمة، فإن مشيئته سبحانه غالبة لا رادّ لها، إذ يهيّئ له الأسباب الّتي ترتقي به إلى أسمى المقامات، ويمدّه بلطفه وعنايته.

وهذا النبي يوسف عليه السلام قد نُبذ في البئر، وأقام في بيت العـزيز عبداً رقيقاً، ثمّ زُجّ في السجن بضع سنين. ولكنّه غدا بعد كلّ ذلك عـزيزَ مصر وسيّدها، وموئلَ الناس، وأملهم المرُجّىٰ... كلّ ذلك بعناية الله جلّ شأنه وفضله العميم، ومواهبه الجزيلة.

٦. إنّ اللجـوء إلى أساليب غير نـزيهة، واعتماد طـرق ملتويـة للوصـول إلى مآرب وغايات معينة، يضرّ الفـرد ولا ينفعه، ويفتح عليه نوافذ الشرّ من حيث لا يحتسب، فأولاد يعقوب عليه السلام قـد نسجـوا مؤامـرة دنيئـة ضـد أخيهم غير الشقيق يوسف عليه السلام، وآذوا أخـاهـم الآخر شقيق يـوسف (بنيـامين)، وتوسّلـوا بالأبـاطيل للوصول إلى هـذه الغاية: الاستئثار بحبّ أبيهم وعطفـه، ولكنّهم ـ ليس فقط ـ لم يبلغوا مأربهم، بل ابتعدوا عنه كثيراً، وارتدّ إليهم مكرهـم، ففقدوا ثقة والدهـم بهم، وأصبحوا موضع شكّه واتّهامه، وجَنَوا من وراء ذلك ثماراً مرّة نغّصت عليهم طعمَ الحياة... وما أصدق قول شاعرنا الكبير أبي فراس الحمداني:

إذا كان غير الله للمرء عدّةً   أتته الرزايا من وجوه الفوائد

٧. إنّ أصحاب الرسالات الإلهية، يستطيعـون بمواهبهم وقدراتهم وبوحي من رسـالاتهم، قيـادةَ المجتمع نحـو الأرقىٰ والأفضـل في مختلف مجالات الحيـاة المادية، وحلّ أزمـاته ومشـاكلـه وفق تخطيط دقيق وحكمـة ودرايـة، وعلى أُسس العدل والخير والفضيلة.

إنّهم يستطيعـون ذلك تماماً كـاستطـاعتهم في قيـادة المجتمع وتوجيهـه في المجالات الروحية والمعنوية.

ولا ريب في أنّ المجتمع إذا استكمل هـذيـن البُعـدين: المادي والـروحي،

فإنّه سيعيش في رخاء وسعادة وهناء، وفي سموّ ورفعة وكرامة.

وفي هذه القصة، أبدىٰ يوسف عليه السلام من المواهب والقابليات، ما جعله محطّ أنظار الملك وحاشيته لإنقاذ البلاد من التردّي في هوّة الفقر والحاجة في سنين الجدب والقحط واستفحال الأزمة الاقتصادية.

٨. إنّ الحوادث الّتي مرّ بها يوسف خلال حياته وإن كانت بظاهرها مؤلمة وحزينة، لكنّه جنى منها ثماراً حلوة انتهت إلى بلوغه درجة عالية من الكمال وصار مظهراً لإرادته ومشيئته سبحانه. ومن مصاديق ذلك، أنّه عليه السلام بعث بقميصه إلى أبيه يعقوب ليعيد إليه بصره الّذي فقده حزناً وكمداً على فراقه، فلمّا ألقاه البشير على وجهه ارتدّ بصيراً، وهذا يشير إلى أنّ المحن والفتن هي الطريق الّذي يبلغ به الإنسان ذروة الكمال، وقد ورد في الحديث الشريف: «انّ الجنة حُفّت بالمكاره».[١]

٩. انّ الحب النابع من الغريزة الحيوانية لا يثبت أمام القيود الاجتماعية والعلاقات الشخصية، وربّما ينسىٰ المُحبُّ غرامه ولوعته إذا كان الثبات عليه سبباً للتهمة، وربّما يسعى لإلصاقها بحبيبه ليتخلص هو من تبعاتها، وهذا ما رأيناه عند امرأة العزيز عندما خاطبت زوجها: ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ**﴾.

وأمّا الحب النابع عن صفاء النفس والميل إلى الكمال المطلق الّذي ليس فوقه كمال فيدفع صاحبَه إلى العكوف والثبات عليه وان كلّفه ذلك دفع ثمن غالٍ، واحتمال المشقّة والعنت، ولهذا نرى أنّ يوسف رجّح السجن طواعيه ورغبة، في سبيل حفظ نفسه وصدّها عن مخالفة مولاه الجليل.

---

١. نهج البلاغة:٢/ ٩٠، الخطبة١٧٦.

١٠. من صفات المؤمن أن يـدفع عن حيثيته وسمعته السـوءَ كما يدفع عن نفسه الأخطـار المادية فلا يساوم بها بأي شيء غـالٍ، لأنّه يراهـا من أغنى الأشياء عنده، وإن استدعى حفظها البقاء في السجـن والعذاب. وعلى هذا الأساس نرى أنّ يـوسف عنـدمـا أبلغـه الـرسول طلـب الملك بأن يخرج من السجن ويلتحق ببـلاطـه، رفض هـذا الطلب حتّـى يتبين البريء من المجـرم في القضيـة الّتي زُجّ بسببهـا في السجن، وبـذلك أعـاد النظر في هـذه القضيـة فثبتت نـزاهتـه، حتّى اعترفت بها امرأة العزيز نفسها والنساء اللواتي كن معها حيث:﴿**قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَـزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ وعند ذلك طاب له الخروج من السجن.

والحقّ انّ قصة يوسف كلّها عبر ودروس، ومـن أراد المزيد فليرجع إلى ثنايا عرضنـا للقصة، أو إلى بعض التفـاسير والكتب الّتي استخلصت منها جملـة من الدروس والعظات، وما ذكرناه من الوجوه العشرة ليس إلاّ نزراً يسير منها.

تمّ الجزء الأوّل، وبنعمته سبحانه تتم الصالحات.

ويليه الجزء الثاني

ويبدأ بقصة موسى الكليم عليه السلام

إن شاء الله تعالى

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلّف: القصص القرآنية موضوعها، أهدافها، وخصائصها	٩
موضوع القصص القرآنية	١١
غايات القصص القرآنية	١٢
أ. الدروس والعبر	١٤
ب. وحدة هدف الأنبياء	١٤
ج. تثبيت فؤاد النبي ﷺ	١٥
خصائص القصص القرآنية	١٦
أ. الموضوعية والواقعية	١٦
ب. تصحيح التحريف	١٧
ج. الإيجاز في سرد القصة	١٨
١	
ادم ابو البشر	
أهم المحاور في حياة النبي آدم عليه السلام	٢١
١. نشأته وخلقته، وفيها مراحل ثلاث	٢٣

الموضوع	الصفحة
الأُولى: المرحلة الترابية وتوابعها	٢٣
الثانية: مرحلة التصوير	٢٥
الثالثة: مرحلة نفخ الروح	٢٦
خلقة آدم ونظرية تكامل الأنواع	٢٧
تطبيق بعض الآيات على نظرية التطور	٣٠
استمرار ذريته	٣١
٢. استخلاف آدم في الأرض	٣٤
خلافته في الأرض	٣٥
محاكاة المستخلف في صفاته	٣٦
خلافة آدم عنه سبحانه في التصرف بالعالم	٣٧
الخلافة عن الأُمم البائدة	٣٨
الخلافة لآدم بنوعه	٤١
٣. تعليم الأسماء لآدم عليه السلام	٤٢
الأسماء	٤٢
العرض على الملائكة	٤٣
إنباء آدم بالأسماء	٤٣
علمه سبحانه بغيب السماوات والأرض	٤٤

الموضوع	الصفحة
٤. سجود الملائكة لآدم عليه السلام	٤٤
جعل آدم قبلة فقط	٤٥
السجود بأمر الله سبحانه	٤٦
العبادة هي الخضوع عن اعتقاد خاص	٤٧
تحديد العبادة تحديداً منطقياً	٤٩
هل كان السجود لشخص آدم؟	٥٢
هل كان إبليس من الملائكة؟	٥٣
حقيقة استكبار إبليس	٥٦
استمهال إبليس	٥٨
٢	
النبي إدريس عليه السلام	
معلم الخط	
النبي إدريس عليه السلام في القرآن الكريم	٩٥
نسبه ومولده	٩٥
٣	
نوح شيخ الأنبياء	
أهم المحاور في حياة النبي نوح عليه السلام	٩٧

الموضوع	الصفحة
١. فضائل نوح ومناقبه وسماته	٩٨
٢. التهم والشبهات المثارة حوله وحول أتباعه	١٠٠
١. الجنون	١٠١
٢. التفوق والتفضّل	١٠١
٣. الضلالة	١٠٢
الاعتراضات الناجمة عن الأنانية والجهل بمبادئ الحق	١٠٢
١. اجتماع الأراذل حولك	١٠٢
٢. ما أنت إلّا بشر	١٠٢
٣. التهديد	١٠٣
٣. رد نوح عليه السلام على التهم والاعتراضات ودحضه للشبهات	١٠٣
ردوده على اعتراضات قومه	١٠٥
وقفة تأمّل مهمة	١٠٦
٤. ثباته في طريق الدعوة وتمادي قومه في الظلم	١٠٧
١. ثباته في طريق دعوته	١٠٨
٢. أُسلوبه في الدعوة، وفيه اتجاهان:	١٠٩
أ. الترغيب بالنعم الدنيوية غبّ الإيمان	١٠٩
ب. التنبيه على الحياة الأُخروية	١١٢

الموضوع	الصفحة
٣. عنادهم ولجاجهم قبال دعوته	١١٢
٥. دعاؤه على قومه واستئصالهم بالطوفان	١١٤
صنع الفُلك (السفينة) وسخرية قومه	١١٥
علائم البلاء في السماء والأرض	١١٦
استواء السفينة على الجودي	١١٧
نهاية قصة الطوفان	١١٨
هل كان الطوفان عالمياً؟	١١٩
٦. حقيقة سؤال نوح عن ابنه	١٢٢
ما هو المراد من الوعد الحق؟	١٢٤
كيف دعا نوح ابنه إلى ركوب السفينة مع كونه كافراً؟	١٢٤
ما هو المراد من قوله **﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾**؟	١٢٥
هل كان نداؤه لربه بشأن ابنه واقعاً في غير محله؟	١٢٥
قاعدة ربّانية	١٢٦
خلاصة قصة نوح	١٢٧
نكات وعبر	١٣٠

الموضوع	الصفحة

٤

هود المبعوث إلى قوم عاد

الموضوع	الصفحة
أهم المحاور في حياة النبي هود عليه السلام	١٣٩
١. خصائص قوم هود عليه السلام	١٣٩
١. البسطة في الخلق	١٤١
٢. مساكنهم الرفيعة	١٤١
٣. النعم الوفيرة	١٤٢
٤. روح الاعتداء والتنكيل	١٤٢
٥. تكبّرهم على الباري تعالى	١٤٢
٢. مضمون دعوته ومنهجها	١٤٣
منهج دعوته	١٤٤
أ. عدم طلب الأجر على دعوته	١٤٤
ب. الرجوع إلى الله لغاية زيادة النعم	١٤٥
ج. تحذيرهم من مغبّة العصيان	١٤٥
٣. حواره مع قومه وردّ التهم الموجّهة إليه	١٤٦
التهم الملصقة بهود عليه السلام	١٤٧
١. السفاهة	١٤٧

الموضوع	الصفحة
٢. الكذب	١٤٨
٣. الخبل	١٤٨
الاعتراضات الموجّهة له	١٤٨
أ. كونه بشراً	١٤٩
ب. أُسطورة الأوّلين	١٤٩
ج. أين البيّنة؟	١٥٠
٤. التهديد بالعذاب	١٥٢
٥. وقوع العذاب وهلاك قومه	١٥٤
خلاصة قصة هود عليه السلام	١٥٧
٦. الدروس والعبر	١٥٩
٥	
النبي صالح عليه السلام وقوم ثمود	
أهم المحاور في دعوة صالح عليه السلام	١٦٤
١. خصائص قوم صالح	١٦٥
٢. مضمون رسالته وأُسلوب دعوته	١٦٧
مضمون دعوته	١٦٨
٣. حوار صالح مع قومه وردّ التهم الموجهة إليه	١٦٩

الموضوع	الصفحة
التهم الموجهة إليه	١٦٩
أ. كونه مسحوراً	١٦٩
ب. كونه بشراً مثلهم	١٧٠
ج. التطيّر	١٧٠
٤. الناقة معجزة صالح	١٧١
٥. عقر الناقة ونزول العذاب	١٧٣
كيفية نزول العذاب	١٧٦
قد أعذر من أنذر	١٧٧
خلاصة قصة صالح عليه السلام	١٧٩
٦. الدروس والعبر	١٨١
٦	
إبراهيم بطل التوحيد	
أهم المحاور في دعوة إبراهيم عليه السلام	١٨٤
١. فضائل إبراهيم وسماته ومنزلته الرفيعة	١٨٧
٢. نشأة إبراهيم عليه السلام	١٩١
حياته في بابل	١٩١
٣. مناظرات إبراهيم وحواراته	١٩٢

الموضوع	الصفحة
أ. مناظرته مع آذر	١٩٢
وقفة في وعد إبراهيم لآزر	١٩٦
علاقة آزر بإبراهيم	١٩٧
ب. مناظرته مع عبدة الأجرام السماوية	١٩٩
عدم رؤية إبراهيم للأجرام السماوية	٢٠٦
ما هو المراد بالملكوت؟	٢٠٨
موقف المشركين من إبراهيم عليه السلام	٢١٠
ج. مناظرته مع عبدة الاصنام	٢١٢
د. مناظرته مع ملك بابل	٢٢٠
٤. تحطيم الأصنام	٢٢٤
٥. إصدار الحكم بإحراق خليل الرحمن	٢٣١
٦. هجرته من أرض قومه	٢٣٣
٧. ولادة إسماعيل وإسحاق	٢٣٤
٨. الخليل وبناء الكعبة	٢٣٧
النداء العام لزيارة البيت	٢٤١
٩. الخليل والابتلاء العظيم	٢٤٢
الذبيح هو إسماعيل	٢٤٦

الموضوع	الصفحة
١٠. خليل الرحمن وطلب إراءة إحياء الموتى	٢٤٨
نظرية المنار ونقدها	٢٤٩
١١. تنصيبه لمقام الإمامة	٢٥١
الكلمات والابتلاء	٢٥٢
ما هو المراد من الإتمام؟	٢٥٣
ما هو المراد من الإمام؟	٢٥٤
ما هو الملاك في إمامة الخليل عليه السلام؟	٢٥٥
١. الملاك هو النبوة	٢٥٦
٢. الملاك كونه أُسوة لمن بعده	٢٥٧
٣. الملاك كونه مفترض الطاعة	٢٥٩
١٢. مناجاة إبراهيم وأدعيته	٢٦٤
خلاصة قصة إبراهيم عليه السلام	٢٦٧
١٣. الدروس والعبر	٢٧١
٧	
إسماعيل الذبيح عليه السلام	
إسماعيل عليه السلام في القرآن الكريم	٢٧٧

الموضوع	الصفحة
٨	
إسحاق بن إبراهيم عليه السلام	
الآيات الواردة في شأن إسحاق عليه السلام	٢٨١
٩	
النبي لوط عليه السلام في أرض المؤتفكات	
أهم المحاور في قصة لوط عليه السلام	٢٨٤
١. ممارسة الخبائث	٢٨٥
٢. معارضة القوم لنبيّهم لوط عليه السلام	٢٨٩
٣. نزول الملائكة وطمع القوم بهم	٢٩١
٤. إسراء لوط مع أهله في غسق الليل	٢٩٧
٥. وقت نزول العذاب	٣٠٠
٦. كيفية إهلاكهم	٣٠١
الصيحة	٣٠٢
قلب القرية أسفلها أعلاها	٣٠٢
الإمطار بالحجارة	٣٠٢
خلاصة قصة لوط عليه السلام	٣٠٥
٧. الدروس والعبر	٣٠٧

الموضوع	الصفحة
١٠	
النبي شعيب في مدين	

الموضوع	الصفحة
زمانه عليه السلام	٣١١
مكانه عليه السلام	٣١٢
قبيلته عليه السلام	٣١٢
أصحاب الأيكة هم أصحاب شعيب	٣١٣
خصائص شعيب وقومه	٣١٤
محاور دراسة قصة شعيب عليه السلام	٣١٤
١. أُصول دعوة النبي شعيب عليه السلام	٣١٥
الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك	٣١٦
الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر	٣١٧
حفظ الحقوق في المعاملات	٣١٧
النهي عن الإفساد في الأرض	٣١٨
النهي عن صدّ الناس عن الإيمان	٣١٩
٢. أُسلوب دعوته عليه السلام	٣٢٠
الاعتماد على الدليل والبرهان	٣٢١
التذكير بنعم الله سبحانه	٣٢١

الموضوع	الصفحة
التذكير بمصير المفسدين	٣٢٢
التبشير والتحذير	٣٢٣
الدعوة إلى نبذ التنازع	٣٢٤
الإخلاص في الدعوة	٣٢٤
٣. موقف قومه من الدعوة	٣٢٥
ادّعاء الغموض في مضمون الدعوة	٣٢٦
ضعف المكانة الاجتماعية	٣٢٧
الاتّهام بأنّه مُسحَّر	٣٢٧
البشرية لا تناسب الرسالة	٣٢٨
التهديد بالنفي	٣٢٨
رفض الدعوة الّتي تصادم عقيدة الآباء وتنهى عن الكسب الحرام	٣٢٨
٤. إبادتهم ونزول العذاب	٣٣٠
نجاة شعيب والمؤمنين من العذاب	٣٣٢
خطاب شعيب لقومه	٣٣٣
خلاصة قصّة شعيب عليه السلام	٣٣٤
الدروس والعبر	٣٣٧

الموضوع	الصفحة
١١	
يعقوب ﷺ	
يعقوب ﷺ في الذكر الحكيم	٣٤١
١٢	
يوسف بن يعقوب ﷺ	
مراحل حياة يوسف ﷺ	٣٤٨
المرحلة الأُولى: مرحلة الصبى	٣٤٩
١. حياته في صباه بين حب الأب وحسد الإخوة	٣٤٩
٢. المؤامرة الغادرة لإخوة يوسف ﷺ	٣٥٢
تنفيذ المؤامرة	٣٥٥
٣. تمثيلية مفضوحة	٣٥٧
المرحلة الثانية: في بيت العزيز	٣٦٢
٤. في بيت عزيز مصر	٣٦٢
٥. صراع الإيمان والغريزة	٣٦٤
الخطوة الأُولى: المراودة	٣٦٦
الخطوة الثانية: تغليق الأبواب	٣٦٦

الموضوع	الصفحة
الخطوة الثالثة: الأمر بالمبادرة	٣٦٦
الشهادة الكبرى الّتي تقطع ألسنة السوء	٣٧٣
٧. نجاة يوسف من المكيدة	٣٧٤
٨. اطلاع النسوة على غرام العزيزة	٣٧٧
المرحلة الثالثة: حياة يوسف في السجن، وخروجه منه	٣٨٠
٩. حياة يوسف في السجن	٣٨٠
١٠. رؤيا الملك: مفتاح تحرّر يوسف من السجن	٣٨٧
١١. نزاهة يوسف ممّا نسب إليه	٣٩١
المرحلة الرابعة: انتخاب يوسف للوزارة	٣٩٧
١٢. السبع المجدبة وإخوة يوسف في مصر	٣٩٩
١٣. عودة الاخوة إلى وطنهم	٤٠١
١٤. الرحلة الثانية إلى مصر	٤٠٧
١٥. التنصّل من فعل أخيهم	٤١١
١٦. العودة الخائبة	٤١٣
١٧. الرحلة الثالثة إلى مصر	٤١٦
١٨. القميص.. وسرّيان النور في عينيْ يعقوب عليه السلام	٤٢٠

الموضوع	الصفحة
١٩. استقرار آل يعقوب في مصر	٤٢٣
٢٠. الدروس والعِبَر	٤٢٧
فهرس المحتويات	٤٣٣